الوطنية الجديدة

عزيز نيسين

لن نتطور أبداً



BTJ System AB
800 18 91 3398 C7
BTJ

ترجمة: محمد مولود فاقي

«قصص»

Hsg

NESIN
Lan natatawwur abadan

لن نتطور أبداً

عنوان الكتاب بالتركية

Aziz Nesin

Nah Kalkiniriz

ADAM 369 ISBN 774-418-150-0

عنوان الكتاب بالعربية

عزيز نيسن

لن نتطور أبداً

عزيز نيسين

لن نتطور أبداً

قصص قصيرة

ترجمة محمد مولود فاقي

Orientalia
المكتبة العربية الشرقية
أورينتاليا

• الدار الوطنية الجديدة – دمشق

- لن نتطور أبداً
- المؤلف: عزيز نيسين
- ترجمة: محمد مولود فاقي
- الطبعة الأولى ١٩٩٩
- الناشر: الدار الوطنية الجديدة
- التوزيع: الدار الوطنية الجديدة

دمشق- ص.ب: ٢٢٢٠٥

هاتف: ٤٤١٨٢٠٢ -٤٤١٨١٧٢

- ١ -

اللعبة الكبيرة

يصعب على المرء أن يحصي قدرات ومواهب نوري.. ومع كل هذه القدرات والمواهب التي يملكها.. فإنه لم يحقق أية أرباح مالية. ومع هذا يُعدُّ نوري ناجحاً بفضل الأعمال التي يقوم بها. وبالمقابل فهو لم يحقق أرباحاً من هذه الأعمال ليستطيع العيش بها.

استمر نوري في محاولاته لا يجاد عمل يؤمن له دخلاً ثابتاً، كونه ناهز الأربعين من عمره. فاضطر إلى بيع المنزل الذي ورثه عن أبيه.فاستأجر به مخزناً كبيراً لبيع الموبيليا والمفروشات. لقد اشترى المخزن وسط سوق المدينة، في مكان يعج بالناس والمشترين. وكانت معروضات المخزن من تصميمه الشخصي. وغالبيتها صنعها بنفسه، وبالإضافة إلى جودة البضاعة، فقد خفض أسعارها لدرجة كبيرة، ليستدرج الزبائن إلى مخزنه والشراء منه. . والحقيقة تقال: أن بضاعته كانت رائعة وجميلة للغاية.

كانت واجهة المخزن تكتظ بالمتفرجين والمعجبين، بحيث شعر نوري أنه داخل حوض لتربية الأسماك. ومن أجل إبعاد شخصيته عن عيون الفضوليين والمعجبين به، فقد نقل مكتبه إلى الغرفة الداخلية من المخزن. كان المتفرجون ينظرون إلى المعرض، بحرقة واشتياق، وقد حشروا أنفسهم أمام الواجهة الزجاجية، حيث كاد الإغماء يصيب البعض من الازدحام.

مرت الأيام مسرعة و لم يدخل أحد من المتفرجين مخزنه للشراء منه.

كان نوري يبحث عن ولد يافع للعمل في المخزن، وتأمين لوازمه

ومتطلباته، وتلبية خدمة وطلبات الزبائن. فقد ألصق على واجهة المخزن الإعلان التالي:

((مطلوب عامل للمحل)). تقدم لهذا العمل أعداد كبيرة في وقت قصير جداً، بحيث أصبح نوري في حيرة من أمره.

كان نوري يسأل كل واحد منهم السؤال التالي:

ماذا تعمل؟ وماذا تستطيع أن تعمل؟

استبعد الذين أجابوا: أقوم بكل الأعمال.. وأعمل كل ما يطلب مني.

في صباح أحد الأيام. دخل المخزن شاب صغير. مسترسل الشعر، أسمر الوجه.. عيناه سوداوان، يداه وقدماه متسختان، بمعنى أن منظره الخارجي كان رديئاً، لم يستحم منذ زمن طويل. حتى أن أصابع قدميه كانتا تخرجان من ثقب حذائه البلاستيكي:

قال لنوري دون خوف ولا وجل: يقولون إنك تبحث عن صانع.

كانت لهجته تعبر عن إشراقة حياته الجديدة، أجابه نوري باللهجة نفسها:

- نبحث عن صانع.

- إذا كان الأمر كذلك أنا مستعد للعمل لديك.

- ماذا تعمل؟

كان نوري ينتظر من الشاب نفس أجوبة الآخرين ((أقوم بكل الأعمال)) إلا أن جواب الشاب كان مخالفاً لأجوبتهم.

- لاشيء.. لا أستطيع القيام بأي عمل.

- ألا تعرف أية صنعة؟.

- لا أعرف. لكن إذا علمتني.. أتعلم بسرعة.

- ما اسمك؟

- سولو.

- كم عمرك؟

- ستة عشر عاماً.

كان مظهره الخارجي يدل على أن في التاسعة أو العاشرة من العمر.

هل تعرف القراءة والكتابة؟

- أطبق أسنانه وشفتيه، ونظر للأعلى.

- في الداخل سخان كهربائي. ألا تستطيع أن تصنع شاياً؟

- لا أعرف... قالها وهو يبتسم ابتسامة خفيفة.

- هل تستطيع أن تنظف وتكنس أرضية المخزن؟

- لا أستطيع.

- هل تستطيع أن تنظف الموبيليا من الغبار؟

- لا أدري..

كان يردد. لا أستطيع... لا أدري.. لكل سؤال يُوجه إليه:

أما نوري فقد بدأ يشعر نحو هذا الشاب الصغير، القريب من القلب، بنوع من الشفقة والاطمئنان.

- تقول دائماً، لا أستطيع.. لا أعلم... لا أدري.. إذن لماذا جئت إلى هنا.

في هذه المرة بدأ /سولو/ يبتسم ابتسامة عريضة وهو يقول:

- لكني أعرف أعمالاً أخرى. أستطيع القيام بها.

- ماذا تعرف؟

- هل تريد أن أقوم بها الآن؟

- هيا افعل فوراً لأرى.
- هل يحدث شيء إن فعلتها فوق هذه المنضدة؟
وكان يشير إلى منضدة كبيرة للطعام.
- لا... يمكنك أن تفعل.

قفز سولو بخفته التي تشبه خفة القرد فوق المنضدة اللامعة والجميلة. في تلك اللحظة صرخ نوري: ولكن آمان... لا تفعل هذا.

إلا أن سولو وقف على يديه الاثنتين فوق المنضدة. وبدأ بالدوران على أطرافها.

في بداية اللعبة. كان الواقفون أمام الواجهة ينظرون إلى الداخل بعيون ثاقبة مملوءة بالإعجاب والتقدير. ما لبثوا أن بدأوا بإطلاق ضحكاتهم العالية مظهرين إعجابهم باللعبة وبالشاب الصغير.

بعد فترة قصيرة انتقل سولو إلى منتصف المنضدة وبدأ بإظهار ألعاب أخرى كثيرة، وهو واقف على يديه. وبقفزة رائعة، جاء واقفاً على الأرض وبعفوية خالصة، بدأ المزدحمون أمام الواجهة بالتصفيق الحاد تعبيراً عن إعجابهم.

أراد نوري أن يقلل من أهمية حركاته. فقال لسولو:
- ماذا يعني هذا..؟ هل تسمي هذه الحركات خفة؟
قال سولو: لي حركات أخرى. هل تريد أن تراها؟
- هيا دعني أشاهد ما لديك أيضاً؟

قفز سولو ثانية فوق المنضدة. وقفز ثلاث قفزات نحو الأمام بحركات بهلوانية. ثم أعاد الكرة ثانية نحو الخلف بنفس الحركات الجميلة. في هذه المرة أيضا، وقف نوري فاغر الفم مندهشاً من جمال الحركات وخفة أدائها،

وخاصة لأن الفتى نفَّذ الألعاب في هذا المكان الضيق، بحيث أن لاعبي الخفة الحقيقيون، يعجزون عن القيام بتلك الحركات في هذا المكان الضيق.

كان عدد المتفرجين قد ازداد أمام الواجهة الزجاجية، ومن شدة وقوة التصفيق، وصرخات التشجيع، ضاعف سولو من حركاته وفنه. حيث أنزل رأسه من الخلف وأدخله بين ساقيه، وما لبث أن وقف على يديه وبدأ يمشي عليهما. كانت حركاته تلك أشبه بحركة الضفدع. وبدأ بالنقيق الحاد. وبينما كان يقوم بحركاته البهلوانية صرخ فيه نوري ضاحكاً:

- انزل من هناك. جزاك الله.

كان عدد المتفرجين يزداد أمام الواجهة في كل دقيقة.

نزل سولو من المنضدة وسأل نوري:

- هل تريد أن أقوم بألعاب أخرى؟

- هل هناك ألعاباً أخرى تعرفها؟

- أنا أعرف وأُتقن ألعاباً كثيرة.

- هيا لنرى أيضاً.

ملأ الشاب كأساً من الماء ووضعه فوق سبابته ورفعه للأعلى وأداره حول رأسه ماراً بعنقه، دون تنزل منه قطرة من الماء ووضعه فوق المنضدة.

سأل نوري الذي كان ينظر إليه بدهشة:

- آبيه أعطني سيجارة من فضلك.

أخذ سيجارة من العلبة التي مدها إليه نوري وأشعلها وقال:

- افتح عينيك جيداً يا آبيه.

وبلمح البصر أدار السيجارة المشتعلة نحو فمه بحركات غريبة من شفتيه،

وأطبق فمه والسيجارة تشتعل داخله، وظل برهة ثم أخرج السيجارة من فمه بنفس حركات شفتيه وأدارها بالعكس وبدأ ينفخ بالدخان والسيجارة في فمه.

كان يريد أن يشاهد كل ما لدى سولو من ألعاب بهلوانية فقال له: كل ما فعلته حتى الآن لا يعدو أن يكون أمراً عادياً. هل عندك نماذج أخرى:

- أجاب سولو: أعطني من فضلك قطعة من فئة الخمسين ليرة من المعدن.

ناوله نوري طلبه. فما كان من سولو إلا أن شمّر عن ساعديه بسرعة ومسك قطعة النقود المعدنية بإصبعيه ورفعها نحو الأعلى وقال لنوري:

- انظر جيداً الآن.. أنت تشاهد قطعة النقود المعدنية التي في يدي لا تقل إنه اغمض عيني.. أقول افتح عينيك جيداً.

وفجأة اختفت قطعة المعدن من بين أصابعه دون أن يقوم بأية حركة ظاهرة.

- أين مالك الذي أعطيتني إياه؟

قال نوري صارخاً: أين؟

- إذا كنت تملك قطعة ثانية ناولني إياها حتى ترى ثانية كيف تختفي.

ناوله نوري قطعة ثانية من فئة الخمسين ليرة.

- افتح عينيك جيداً. لا تقل أني أغمضت عينيك ثانية.

في نفس اللحظة التي نطق بها تلك الكلمات، كانت القطعة قد اختفت عن الأنظار.

عندها قال نوري: لقد قبلتك للعمل عندي.. كم تطلب راتباً شهرياً.

KMH

قال سولو مبتسماً: لا أدري أعطني كل ما يخرج من خاطرك.

قال نوري صارخاً: إذن ستعمل عندي فقط لإشباع بطنك.

- ليكن ما تريد.

هكذا بدأ سولو العمل في مخزن نوري للموبيليا. وفي يوم من الأيام، ذهب نوري إلى السوق، واشترى لسولو أحذية، وبنطالاً وقميصاً، وسترة، وألبسة داخلية. وقال له:

- اذهب إلى بيتك. نظف نفسك جيداً، والبس ثيابك الجديدة، واحضر غداً إلى المخزن باكراً لتبدأ العمل.

خرج سولو من المخزن مسروراً وهو يحمل تحت إبطه الثياب التي اشتراها له نوري وذهب إلى منزله.

في صباح اليوم التالي كان سولو ينتظر أمام المخزن بقيافته الجديدة وكما قال لنوري.. كان يقوم بكل عمل يطلب منه ويتعلمه بسرعة. وبما أن البحث عن الطلب داخل المخزن صعب جداً لاتساعه، فكان نوري يناديه على الدوام:

- سولووو أين أنت ياسولو..؟

- أنا هنا.

كان يقول ذلك دون أن يظهر للعيان، وبعد البحث كان يجده، إما فوق البرادات، أو فوق مجموعة من الأسرة والكراسي، وهو يقوم بالحركات البهلوانية الخفيفة.

كان نوري يراقب سولو. الذي أحبه، وأحس نحوه بشيء من العطف والحنان، كان يراقبه بإهتمام بالغ حيث كان يقوم كل يوم بحركة بهلوانية

جديدة من حركات الخفة وربط للعيون (الخداع البصري) وما شابه ذلك.

في أحد الأيام دُهش نوري كثيراً من لعبة قام بها سولو أمامه.

كانت اللعبة على الشكل التالي: وضع سولو إبهامه الأيمن بين كفه الأيسر وفصله عن يده. وفتح يده اليسرى وفيها إبهام يده اليمنى.

- كيف تفعل هذه اللعبة ياسولو؟

أجابه سولو بثقته: أفعلها.

- أراك تفعلها ولكن كيف؟ علمني كيف تقوم بذلك.

- أعلمك بالحال. هيا ادفع ألف ليرة حتى أعلمك.

دفع نوري المال، وبقي سولو حتى المساء يتعلم كيفية فصل الإبهام عن اليد، في نهاية الأمر، نجح في ذلك، وكرر العملية عدة مرات وكأنه يفصل الإبهام عن يده اليمنى، ويظهرها في كفه اليسرى.

أحضر سولو في صباح اليوم التالي ثلاث ورقات من ورق /الشدة/ اللعب اثنتان منهما باللون الأحمر والثالثة باللون الأسود وقال لنوري: انظر الآن جيداً.

وبعد أن أراه وجوه الأوراق الثلاثة عكسهما بحركة سريعة بيديه وخلطها ببعضها ثم وضعها على الأرض.

- هيا أوجد السوداء وخذ (المال)، أية واحدة هي السوداء؟ إن وجدتها أعطيك الألف ليرة. التي أخذتها منك البارحة. أما إذا لم تجدها فستدفع لي مائة ليرة.

قال نوري وهو يتوجه بإصبعه إلى إحدى الأوراق. هذه هي.

في اللحظة نفسها قال له سولو:

- نحن لانخدع الآخرين ولا أستطيع أن آخذ مالك هكذا. وبعد أن قلب الورقة التي أشار إليها نوري.. أكملَ: انظرٍ هذه الورقة الحمراء، سأعيد اللعبة أمامك ثانية، ولكن افتح عينيك وانتبه جيداً..

بقي نوري نصف النهار، وهو يحاول جاهداً إيجاد الورقة السوداء ولكن دون جدوى، في النهاية قال لسولو: هيا علمني هذه الطريقة أيضاً.

- أعلمك ولكن ستدفع لي ألف ليرة.

أعطاه نوري ألف ليرة، وبقي حتى المساء تحت أُمرة /سولو/ يتعلم طريقة إيجاد الورقة السوداء مثل سولو... أوجد السوداء وخذ المال، حتى تعلمها في نهاية المطاف.

ولكن ألعاب سولو لم تكن لتنتهي أبداً. في صباح أحد الأيام عندما دخل المخزن قذف إلى فمه /ماسورة/ من الخيطان وابتلعها تحت أنظار نوري ودهشته.

- ماذا تفعل ولك سولو... هل جننت؟

قال سولو: لا تندهش سأخرجها ثانية.

فتح سولو فمه لنوري ليتأكد من عدم وجود ماسورة الخيوط في جوفه، ثم ضغط على طرفي أنفه بأصابعه، وبدأ بسحب الخيط الذي ابتلعه سابقاً من أنفه بكلتا يديه أمام حيرة نوري واستغرابه الشديدين.

- افعلها ثانية لنرى.

تناول سولو قبضة من الخيوط البيضاء وابتلعها دفعة واحدة للمرة الثانية وأعاد إخراجها من أنفه كما فعل في المرة الأولى.

- هيا ياسولو. علمني هذه اللعبة أيضاً.

- ادفع ألف ليرة لأعلمك.

دفع نوري المال وبقي حتى المساء يتعلم اللعبة من سولوحتى تعلمها تماماً. كان الفراغ هو السائد في كل الأحوال في المخزن وخارجه. وكان نوري يحاول إملاء هذا الفراغ عن طريق تعلم تلك الألعاب من سولو.

مرة أخرى وفي أحد الأيام، وبعد قليل من افتتاح المخزن، سمع نوري من داخله صوت آلة موسيقية. فقد ظن لأول وهلة أن الصوت يصدر من المذياع. ولكن عندما وجد المذياع مقفلاً احتار في أمره. إذن أين مصدر هذا الصوت؟ نهض من مكانه، وبدأ يفتش عن المصدر، و إذا بسولو في إحدى زوايا المخزن، يعزف اللحن بيديه، وفمه، دون وجود أية آلة موسيقية معه.

- ماذا تفعل ياسولو؟
- إنني أعزف لحناً.
- وكيف تفعل ذلك؟
- أعزفُ
- علمني أيضاً
- إذا أعطيتني ألف ليرة أعلمك.

دفع نوري المال لسولو. وبقي حتى المساء يحاول عزف الموسيقا بأنفه ويديه تحت إرشادات وأوامر سولو. إلا أنه لم ينجح في عزف الموسيقا دون آلة. عند المساء أعاد له سولو المال الذي أخذه منه في الصباح.

وعندما سأله نوري عن سبب إرجاعه المال. قال سولو:

- الإتفاق بيننا، هو أن أعلمك عزف الموسيقا دون آلة مقابل ألف ليرة وبما أنك لم تتعلم حتى الآن... فلن آخذ منك أي مبلغ.

أخيراً تعلم نوري العزف خلال ثلاثة أيام وعندها أخذ سولو المال.

في ذلك اليوم كان قد مضى أسبوعان على عمل سولو في مخزن نوري.

دخل سولو في ذلك اليوم وهو في حالة غير طبيعية أبداً قد اختفت ابتسامته الدائمة من على وجهه.

سأله نوري: ما بك ياسولو. هل أنت مريض؟

- لست مريضاً.

- إذن لماذا أنت واقف هكذا على غير عادتك.

- ما من شيء.

- ربما انتهت ألعابك.

- هناك لعبة واحدة. إنها لعبتي الكبيرة هل ألعبها أم لا؟.

- إذن تركتَ لعبتك الكبيرة للنهاية... هيا أرنا لعبتك الأخيرة هذه أيضاً.

قال: لا أحب أن ألعب لعبتي الكبيرة يا آبيه.

- لماذا ياسولو، هيا ألعبها؟

- لن أفعل.

ظل نوري يضغط على سولو طوال النهار ليلعب لعبته الكبيرة. وامتنع سولو طوال النهار عن القيام بذلك. كان وجهه الأسمر قد ازداد سمرة، و لم يعد يبتسم لكل شاردة وواردة، كما كان يفعل قبل أيام. عند المغيب قال له نوري: أنا زعلان منك ياسولو لأنك لم تلعب لعبتك الأخيرة أمامي.

- رجاء يا آبيه، لا أريد أن أزعجك بشيء. لقد أخذت منك مالاً كثيراً، عوضك الله.

إن رأسي يؤلمني كثيراً. هيا دعني أذهب إلى المنزل هذا المساء باكراً.

سمح نوري لسولو بالذهاب إلى منزله. وخاصة إن دوام العمل في المخزن قد انتهى. كما أن فكرة إغلاق المخزن نهائياً لم تفارق مخيلته إن بقيت الأمور هكذا دون بيع وشراء.

وعندما حان موعد إغلاق المحل. جاء نوري إلى مكتبه يريد ارتداء سترته. وعندما لبسها أحس أن هناك نقصاً ما في جيب سترته من الداخل. وعندما أنزل يده في جيب السترة. وجد أن محفظته الصغيرة قد طارت منها. وقد وجد في جيبه الثانية بطاقته الشخصية، ومجموعة أوراق مهمة، وورقة واحدة من فئة العشرة آلاف ليرة. كانت هذه الأوراق قد انتشلت من داخل المحفظة ووضعت في الجيب الثاني على انفراد. عندها أحس نوري بأن سولو قد لعب لعبته الكبيرة، فكر ملياً وقال:

((مسكين سولو. لا ذنب له على الإطلاق. لأنه بقي منذ الصباح حتى الآن يحاول جاهداً كي لا يقوم بلعبته الأخيرة هذه)).

ومن حبه الشديد لنوري. لم يأخذ المحفظة كاملة معه، بل ترك له بطاقته الشخصية وأوراقه الخاصة بعمله ومبلغاً صغيراً يُسيِّر به أموره لبعض الوقت.

بعد تلك اللعبة التي لعبها سولو مع نوري لم يحضر للمخزن أبداً. ونظراً لعدم البيع في المخزن فقد أغلقه نوري نهائياً، وبدأ يقص على معارفه وجلسائه كل ما جرى له مع سولو. وفي نهاية كل حديث كان يقول:

ـ إن سولو يحبني كثيراً!

وعندما يسأله الناس عن ماهية هذا الحب؟ كان يجيبهم:

– في الوقت الذي كان فيه سولو يأخذ مني ألف ليرة لكل لعبة يعلمني إياها. فإنه لم يأخذ مني شيئاً مقابل تعليمي لعبته الكبيرة.

- ٢ -

لنرى ما سيحدث

ثمة مقهى صغيراً يستقبل أناساً من منطقة ما ومن حي واحد أغلبهم من المتقاعدين، يقع المقهى على مضيق البوسفور، قريباً من البحر الأسود من ناحية آسيا. رواد هذا المقهى جلهم يعرفون بعضهم البعض. كانوا يتناقشون، والمناقشة بالنسبة لهم طبيعية جداً سيما وأنهم متقاعدون تركزت المناقشات بشكل عام ودائماً، عن طبيعة الحياة في هذه الأيام وارتفاع الأسعار وما شابه ذلك من الأحاديث المتنوعة.

انتقل الحديث في ذلك اليوم، من الهموم المنزلية الخاصة، إلى هموم الدولة والوطن مثل كل يوم.

((لقد وعدت الحكومة بثبات ارتفاع الأسعار (التضخم) في حدود ثلاثين بالمائة ولكنها كما نرى وصلت إلى الثمانين بالمائة، إذن ثمانين بالمائة ها.. انظر ماذا سيحدث الآن؟.

لقد أرسلنا عمالنا إلى ألمانيا وفرنسا وسويسرة وكل هذه الحالة لم توقف العجز. حتى إن عمالنا وصلوا إلى السعودية، ولكن دون جدوى. وها هم الآن يقولون بأنهم سيرسلون عمالاً إلى الاتحاد السوفيتي. والراغبون بالذهاب إلى هناك، يتدافعون ويقتلون بعضهم بعضاً بالدعس والدفش... الله... الله... سيرسلون عمالنا إلى روسيا الشيوعية ها... المال.. المال يا صاحبي سواء كان شيوعياً أم فاشياً. ليس له دين ولا إيمان. لنحصل عليه من أي جهة، كانت، المهم أن نحصل عليه. ثم ولنفرض أن المال كان شيوعياً وأنشأنا به مسجداً أو فتحنا به دورة لحفظ وتعليم القرآن الكريم. فلن يبق له من

ذنب. ثم أن جامع المال هذا يُغفر له ربه كونه عمَّر مسجداً وفتح دورة لتعليم القرآن الكريم.

طيب في النهاية ماذا سيحصل؟ فليجعل ا لله نهايتنا على خير.

سيدي الكريم... يقولون بأن واردات البلد لا تكفي حتى لسداد فوائد الديون المتراكمة.

لا تقل ذلك يا هذا... يقولون بأن القرض الذي أخذناه من أمريكا مؤخراً لا يكفي لسداد فوائد الديون... ا لله... ا لله.

إلى أين سنصل في نهاية هذا الطريق؟.

ألا تسمع بالبنك الدولي؟... نعم.. هو الذي يخطط ويقرر مستقبل بلادنا.

لا يا هذا.. وا لله ما كنت أعرف هذا الأمر... ولكن إذا بقيت الأمور على هذا المنوال فماذا سيحصل؟.

كانت هذه المناقشات تتكرر يومياً... صباحاً ومساء.. العبارات ذاتها تتكرر وشارات الاستفهام نفسها ترتسم فوق وجوههم..

ا لله... ا لله.. لا يا هذا.. لا يا هذا..

كان المتقاعدون يسألون بعضهم كل يوم، نفس السؤال الذي لا يملكون جواباً عليه: إذن ماذا سيحدث؟ لننتظر ونشاهد.... ماذا سيحدث؟.

- إلى أين ستودي بنا نهاية هذه الطريق؟ إننا في قلق دائم... لنرى ماذا سيحدث.

تحدث الجميع دون كلل وملل في ذلك الصباح عن الموضوع ذاته. وكل من في المقهى يقول لرفيقه: لنرى ماذا سيحدث؟

قال أحد المتقاعدين وهو عجوز محنك تجاوز السبعين من عمره. وقد تقاعد من معامل /توب خانه/ العسكرية. لقد ذكرتموني بقصة جرت مع أحد أقربائي، وأنتم ترددون لنرى ماذا سيحدث.

اتجهت الأنظار نحوه وسألوه بلهفة عما جرى لقريبه. وبدأ العامل المتقاعد العجوز يقص عليهم القصة الآتية:

- ربما تتذكرون الضائقة التي مرت بها الحكومة منذ فترة عندما قررت بيع هضاب البوسفور الرائعة. في ذلك الوقت، ظهر على المسرح ثري كبير، واسمه /أبو الفاتك المشكي/. كان هذا الثري قد اشترى إحدى الهضاب الجميلة التي لا يرتوي الإنسان من النظر إليها أبداً لجمالها الرائع. وكان من المقرر أن يشيد فوقها قصراً أو ما شابه ذلك. وما لبث أبو الفاتك المشكي هذا أن أخذ قراراً ثانياً وهو الزواج بفتاة تركية جميلة. الفتاة التركية غير معروفة، ولكن يكفي أن تكون تركية، وبالطبع جميلة وفق المقاييس المتعارف عليها.

بدأ السمسار الذي اشترى الهضاب لأبي الفاتك، هذه المرة بالبحث عن فتاة طبقاً للمواصفات المطلوبة.ينبغي أن تكون شابة جميلة وبكراً ويجب أن لا تكون يدها قد لمست يد رجل. وفوق ذلك يجب أن تكون بريئة للغاية.

طبعاً ليس من السهولة إيجاد فتاة بهذه الشروط في استنبول، وفي هذه الأيام بالذات.ولكن هذا الأمر ليس صعباً على أبي الفاتك، لابد أنه سيجد طلبه، لأنه يملكالمال الكثير. لنترك السماسرة يبحثون عن الفتاة، ولنعد نحن إلى أبي الفاتك الذي بدأ يتعلم اللغة التركية ليستطيع أن يتلاءم ويتناقش مع زوجته التركية في المستقبل القريب. على الأقل كلمات قليلة مثل... نامي.. انهضي.. تمددي.. دوري إلى ما هنالك من الكلمات المتداولة..

أحضروا لأبي الفاتك فتيات كثيرات، إلا أنه رفضهنَّ لعدم إعجابه بهن. كانت رغبته الحصول على فتاة بشرتها بيضاء كالحليب، وجسمها طري كالمعجون، وحوضها عريض، ناعمة كقطعة الراحة اللذيذة.

في النهاية أعجبته إحدى الفتيات، ومن هنا تمت معرفتنا به.

جميع الصفات التي طلبها أبو الفاتك: عمرها سبعة عشر عاماً. تخرجت من دورة لتعليم القرآن... بيضاء اللون.. حوضها نافر من الجانبين. ومن ناحية البراءة فهي بريئة حتى الحماقة أو أكثر. وإذا رأيتم أبو الفاتك هذا فإن شفاهكم سترتجف من الخوف. إنه قبيح بشكل يدعو للاشمئزاز ثم أن عمره أكبر من عمر والد الفتاة بكثير. وقد اندهش أحد الذين شاهدوا تمثال القبح هذا اندهاشاً عظيماً. فرفع يده على صدره وضربها بشدة، وهو يقول: ((أيها الإله الذي أقدم نفسي قرباناً له. إنك على كل شيءٍ قدير))، وبما أن عدد نسائه غير معروف، فإنه لم يسجل هذه الفتاة رسمياً على اسمه، بل تزوجها بعقد نكاح خارجي المهم في الأمر أنه تزوجها والسلام.

لقد أصبحت الفتاة البريئة سعيدة في منزلها الجديد، لأنها خرجت من عائلة فقيرة.. محرومة، لم تعرف من نعيم الحياة شيئاً في بيت أبيها. وعندما تزوجت الحياة الجديدة. أحست بالسعادة تملأ كيانها.

وبما أن اسم زوجها أبو الفاتك المشكي طويل وصعب، فإن أسرتها اختصرت من اسمه وأصبحت تناديه السيد فاتك. وهكذا احتفظوا بجزء من اسمه إلى حدٍ ما.

وكان للفتاة شقيق يصغرها بستة أعوام. أصبح ينادي صهره دائماً عمو /فتيق/ لأنه لا يستطيع لفظ كلمة فاتك فحوَّرها إلى /فتيق/. كان عمو فتيق قد اشترى شقة كبيرة وجميلة في حي /نيشان طاشي/ سجلها باسم زوجته

الصغيرة. وقد ذهبنا أنا وزوجتي لزيارتهم مرتين هناك. وتعرفنا على عمو /فتيق/ في منزله أثناء الزيارة. ومرت أيام. ولكنَّ ما حصل بعد ذلك قصَّته عليَّ زوجتي. وهي بدورها سمعته عن لسان زوجة فتيق الشابة شخصياً.

كان عمو فتيق يغار كثيراً على زوجته الصغيرة والجميلة، حيث منعها من زيارة منازل أقربائه. وأرغمها على الخروج من المنزل بالعباءة والشرشف، كل هذا حسن، ولكن الفتاة كانت تشعر بالملل عندما يكون عمو فتيق خارجِ المنزل. ولكي يعطي للناس صورة حسنة عن شخصيته، كان يحاول جاهداً على عدم إظهار الأمر، وكأنه نوع من السجن للفتاة، وأنه يثق بزوجته كسائر الأزواج. وانطلاقاً من هذا المبدأ الذي أظهره للناس ولنفسه وحيث أنه سيغيب عن منزله يومين كاملين. فقد سمح لزوجته الشابة الخروج للسوق لشراء الأغراض لمنزلها. شرط أن لا تبتعد عن المنزل. فرحت الفتاة الشابة كثيراً. ولكنها ماذا ستفعل وحدها في الخارج. سألت زوجها إذا كان باستطاعتها الدخول إلى السينما. عندها فكر عمو فتيق طويلاً. فإعطاء القرار ليس سهلاً.

إذا قال لها لا تذهبي.. عندها تفسِّر موقفه بأنه نوع من الضغط عليها، وفي الوقت نفسه ليس من السهل عليه أيضاً أن يقول لها: اذهبي. ومن غير اللائق الذهاب معها.. في النهاية قال لها: نعم أسمح لك بالذهاب. ولكن يجب أن أشاهد الفيلم قبلك.

جهد عمو فتيق على مشاهدة جميع الأفلام التي كانت تعرض آنذاك في دور السينما القريبة من المنزل. فاختار فيلماً واحداً يلائم زوجته لتراه وهو فيلم محلي بعنوان ((عدالة عمر بن الخطاب)).

قال لزوجته: يمكنك الذهاب إلى السينما يا نجمية (اسم الزوجة الشابة) لمشاهدة الفيلم الذي اخترته لك. بدا عمو فتيق مسروراً جداً لما فعله. وعندما

عاد بعد يومين إلى المنزل، أوه الشكر لله إن نجمية في المنزل.

- نجمية.

- أفندم.

- ماذا فعلت أثناء غيابي؟

تبدأ نجمية بسرد حكايتها بحرارة. آه لا تسألني...

((كيف لا أسألك وأنا أنفجر شوقاً للاستماع)).

- ماذا حصل يا نجمية؟.

- لقد احترت كثيراً بما حصل معي.

- ماذا جرى لك؟

وتقص نجمية ما جرى لها ببراءتها المعهودة. لبست عباءتي وغطائي للذهاب إلى السينما التي سمحت لي بالدخول إليها.

- جميل جداً

- خرجت إلى الشارع.

- نعم...

- وبينما كنت سائرة في طريقي وإذا برجل يقترب مني.

- رجل!؟.

- نعم... أنا أمشي وهو يمشي إلى جانبي.. تابعت المسير وهو يتبعني ... قلت في نفسي لنرى ماذا سيحدث.

ينهار عمو فتيق كلياً. ولكنه يتماسك أعصابه أمام زوجته، ويحاول البقاء طبيعياً ومندهشاً يقول:

- الله.. الله.. أنا أيضاً انتظر سماع ما حدث معك بفارغ الصبر لنرى ماذا سيحدث؟

- تابعت سيري. ففعل هو الآخر نفس الشيء وهو قريب مني أقول في نفسي لنرى ماذا سيحدث؟.

- يا سبحان الله.... لنرى ماذا سيحدث.

- اشتريت بطاقة من كوة دار السينما.. وإذا بالرجل يشتري بطاقة أيضاً. دخلت السينما. وإذا بالرجل يدخل أيضاً.

هنا بدأ عمو فتيق المنهار السؤال قبل زوجته:

- يا للغرابة.. إنه أمر غريب والله.. لنرى ماذا سيحدث... وبعدها

- بعد ذلك جلست على المقعد المخصص لي، وإذا بالرجل يجلس في مقعدٍ بجانبي.

- إنه أمر يحير.. لنرى ماذا سيحدث؟

- انطفأت الأنوار وبدأ الفيلم.

- أي ي ي ي هيا افهميني يا نجمية.

- وإذا بالرجل يمد بيده إلى فخذي وساقي.

- ماذا تقولين؟ عجايب والله...!

- لقد أدخل يده إلى فخذي بعد أن رفع الغطاء عنه. لقد احترت في أمري كثيراً.

- ماذا سيفعل؟

- لا أدري أن الأخرى كنت أنتظر بلهفة نهاية هذا الأمر. بقيت منتظرة وأنا أقول في نفسي لنرى ماذا سيحدث.

- أنا الآخر وا لله أنتظر بفارغ الصبر لنرى ماذا سيحدث؟

- وبدأ الرجل يداعب جسمي وساقيَّ مثلما يريد. لـو كُنـتَ مكـاني أمـا كنت تترقب ماذا سيحصل بعد ذلك؟

بدأ الشرر يتطاير من عيني عمو فتيق.. ولكن براءة زوجتـه غـير الطبيعيـة منحته الصبر وبدا وكأنه يسايرها.

- لنرى ماذا سيحدث يا نجمية.

- ثم انتهى عرض فيلم عدالة عمر. وأشعلت الأنوار، نهضت من مكـاني وإذا بالرجل ينهض أيضاً.

- الرجل نفسه؟.

- نعم...

- أمر عجيب وغريب لنرى ماذا سيحدث؟.

- خرجت من السينما فخرج هو الآخر. مشيت في الشارع ففعل الآخـر ومشى بجانبي.

- آمان نجمية.. إنني أنتظر بفارغ الصبر.. لنرى ماذا سيحدث؟

- أنا الأخرى كنت أنتظر بفارغ الصبر.. وانعطفت عند الناحية

- هل انعطف الرجل أيضاً

- نعم.. لقد فعل

- افهميني بسرعة يا نجمية أنا في حيرة من أمري.

- دخلت من باب عمارتنا فدخل أيضـاً. كنـت في متلهفـة لمـا سـيحصل لنرى ماذا سيحدث؟

غرق عمو فتيق في بحر من العرق.

- وبعدها

- صعدت إلى طابقنا... صعد هو أيضاً.

-واي أيها الرجل واي...!!

- أخرجت مفتاح الشقة من محفظتي وفتحت الباب ودخلت وإذا بالرجل يدخل أيضاً.

- دخل الرجل أيضاً... يا الله...

- نعم.

- لنرى ماذا سيحدث.. هيا قصي علي يا نجمية

- عندما دخلت المنزل.. ذهبت إلى غرفة النوم، من الطبيعي أن أخلع ثيابي... وإذا بالرجل أيضاً يخلع ثيابه.

- ماذا تقولين يا نجمية..؟ لنرى ماذا سيحدث؟

- عندما خلعت ثيابي. صعدت إلى السرير كي أنام وإذا بالرجل يدخل الفراش معي.

عندها صرخ عمو فتيق وكأنه صُفع بسيخ حامٍ.

- أي أي واه... لنرى ماذا سيحدث؟

- أنا الأخرى كنت أنتظر بفارغ الصبر... لأعرف ماذا سيحصل بعد ذلك؟

_ آمان نجمية.. سأنفجر من الانتظار.. هيا تكلمي بسرعة، ماذا حصل بعد ذلك؟

- لا شيء يا روحي لم يحصل شيء يذكر. لقد ضاعت جهودي من الانتظار سدى كنت أحسب أن شيئاً ما سيحصل.

كانت حبات العرق تتصبب من وجه عمو فتيق كاللؤلؤ.

- لا يا هذه... إذن ماذا حصل يا نجمية؟. ماذا فعل معك؟

- لقد فعل كل ما تفعله أنت معي كل ليلة.

ماذا سيفعل الآن عمو فتيق الذي أصابته صدمة قاسية، إن زوجته بريئة لا تعرف ما أصابها من مكروه. ماذا سيفعل؟ إذا ضربها فهذا لايجوز. وإن صرخ في وجهها وشتمها فهي داعٍ لهذا. وإذا طردها ماذا سيقول الناس عنه؟ ولكي يخفي الغبار عن رجولته.وصون كرامة رجولته قال لها:

- آمان نجمية. كنت أظن أن في الأمر شيئاً مهماً. انتظرت بفارغ الصبر طويلاً وأنا أقول: لنرى ماذا سيحدث. لنرى ماذا سيحدث فالأمر ليس بذي بال.

أما العجوز المتقاعد الذي كان يروي القصة فقد ختم كلامه قائلاً:

- هكذا أيها الأصدقاء فإن المرأة الصغيرة. كانت تروي قصتها ببراءة أمام كل من قابلتهم وزوجتي سمعتها من لسانها.

قال أحد المتقاعدين وهو يضع فنجان قهوته على المنضدة بيد مرتجفة:

- أنا لم أفهم شيئاً. لماذا سردت علينا هذه القصة؟

قال العامل المتقاعد: كل يوم تتناقشون وتنتهي مناقشتكم بترديد عبارة:

لنرى ماذا سيحدث... لنرى ماذا سيحدث؟

لقد أردت أن أخلصكم من لهفة الانتظار الطويلة.

وصدرت قهقهة من المقهى.

لكن العامل المتقاعد أضاف: إنه أمر غير مهم أبداً...

- ٣ -

هذا البلد يغرق

جرت الحادثة في حي /باي اوغلوم/ في مقهى قديم.. وكانت أمثاله من المقاهي القديمة قد انقرض، لكن هذا المقهى ظل قائماً في زاوية ميتة كأنه خبأ نفسه وخلصها من الموت المحتم.

كان رواده يعرفون بعضهم جيداً. وكل واحد يعرف هموم الآخر ومسؤولياته. الساعة تقارب العاشرة والنصف صباحاً. الطاولات ملأى بالزبائن. بعضهم يلعب الورق، والبعض الآخر غارق في المناقشات، وبعضهم من يقرأ صحيفة أو مجلة. كان على إحدى الطاولات ثلاثة أشخاص يتحادثون، فيما بينهم أما أعمارهم فتقارب الأربعين وقريباً منهم يجلس شخص ناهز الستين من عمره، يقرأ صحيفة أو يتظاهر بقراءتها. وفي الوقت نفسه يسترق السمع إلى ما يتحدث به الأشخاص الثلاثة.

اقترب منهم شخص قصير القامة، ممتلئ الجسم، يتحدث بصوت أجش. وقبل إلقاء السلام، سحب كرسياً وجلس عليه وبدأ الحديث فوراً قائلا: كنت مسافراً إلى أنقره لأمر هام جداً. استقليت سيارة إلى مكتب الخطوط الجوية، للحصول على بطاقة طائرة، وعندما وصلت إلى هناك وجدت باب المكتب مغلقاً. وقد عُلقت على الواجهة الزجاجية ورقة كتب عليها: ((المكتب مغلق للتصليحات. يمكنكم قطع تذاكركم من مكتبنا الكائن في /اف سراي/. أخذت سيارة أخرى إلى /أف سراي/ وبدأت بالتفتيش عن مكتب الخطوط الجوية التركية، وبعد جهدٍ جهيد عثرت على المكتب، ولكن مع الأسف وجدته مغلقاً أيضاً، وقد تجمع جمهور غفير أمام الباب. ينتظرون

موظف المكتب ليقطعوا تذاكرهم.. طال انتظارنا والموظف لم يحضر، كل واحد يقول للآخر انتظر، الظاهر ما من أحد سيأتي. كان معنا بعض السياح الأجانب فصرخ أحد الواقفين، وكأن الموظف قد حضر وبدأ ببيع التذاكر. لنقف في الصف يا شباب، انتظموا صفاً واحداً.. لا نريد شطارة.

السياح الأجانب قد شكّل فيما بينهم صفاً. بينما نحن، فقد ظل كل في مكانه يريد أن يشكل صفاً ودوراً على كيفه.. ولهذا كنا ننتظر. في النهاية شكلنا صفاً... وانتظرنا... إن لم يكن لديك عملاً انتظر... ما هذا العمل يا ناس؟.

انتظرنا خمساً وأربعين دقيقة يا سيدي الكريم. وعندما طال رتل الصف قال أحد العقلاء منا.. ((لقد طال الرتل كثيراً. وأصبحنا على وشك أن نقطع الشارع لنعمل رتلين جنباً إلى جنب))، فبدأوا على الفور بتشكيل رتل آخر موازٍ لنا. كان من الواضح أن الأرتال ستزداد والباب لن يُفتح أبداً. هذا هو الإنسان يا سيدي. وكما قالوا إنه حيوان ناطق. بدأت التعليقات تصدر من الواقفين، فقالت إحدى النساء:

- مسكين هذا المواطن.. هل وقعت له حادثة يا ترى؟

قال أحد الواقفين في الرتل الآخر متسائلاً:

- عن أي مواطن تقصدين؟.

الموظف الذي سيفتح الباب.

مواطننا دائماً هكذا. إذا طُلب منه أن يتحدث.. يتحدث وكأنه يعطس، وفي الوقت نفسه يظن أنه تحدث. يعني لا يعمل في هذا المكتب الكبير سوى موظف واحد.

انتظرنا مدة طويلة كقطيع غنمٍ كبير. فكرت بيني وبين نفسي، لماذا لا

أُعلم أحد المسؤولين في مطار /يشيل كوي/ عما يحصل في مكاتب شركة الخطوط الجوية.

لم يكن ثمة هاتف قريباً منا. ومكتب البريد بعيد. ولحسن الحظ يوجد مخفر للشرطة قريباً من المكان. ذهبت إليه وقابلت المفتش المسؤول عن الفرع وأعلمته بالأمر. فأجابني:

- إنهم يفعلون هذا دائماً. اتصل بالمسؤولين وأخبرهم بما حصل معك ومع غيرك.

جزاه الله خيراً. لقد ساعدني على إيجاد رقم الشركة من دليل الهاتف. وأدار الأرقام ثم أعطاني السماعة. وبدوري قمت بتوضيح كل شيء. وجاءني الجواب على النحو التالي:

- المعذرة ليس لنا علاقة بهذا الأمر، اتصل بهذا الرقم. وعندما اتصلت بالرقم الجديد. جاءني نفس الجواب:

- إذن من الذي له علاقة بالأمر؟

أعطوني رقماً جديداً فاتصلة عليه ، لا أريد أن أطيل الحديث يا سيدي. المهم في الأمر، أنني استطعت أن أجد المسؤول بعد أربع أو خمس مكالمات هاتفية. وإني إذ أشكر الله على ذلك؟ فرويت له ما يحدث في مكاتب الشركة.

- سيدي الكريم.. لقد ذهبت إلى مكتبكم في /شيش خانه/ فوجدته مغلقاً بسبب التصليحات وقد ألصقت على الواجهة الزجاجية ورقة كتب عليها العبارة التالية: ((تستطيعون أن تقطعوا تذاكركم في مكتبنا الكائن في حي /أف سراي/. أخذت سيارة وذهبت إلى هناك. فوجدت مكتبكم مغلقاً أيضاً. وثمة أناس كثيرون ينتظرون منذ أكثر من ساعة وقد شكلوا رتلين

طويلين. ما زلنا ننتظر يا سيدي ولكن ما من قادم.

سألني أحدهم بصوت غليظ:

- ما هذا اليوم؟

ومع معرفتي بأنه لا علاقة لليوم بقطع تذكرة للطائرة، فقد حسبت من سؤاله أن الرجل قد أضاع اليوم الذي نحن فيه فقلت له:

- اليوم يوم الأربعاء يا سيدي.

فقال: أنا لا أسألك في أي يوم نحن. بل ما هو تاريخ هذا اليوم؟

- الله... الله.. ماذا يريد أن يقول الرجل يا ترى؟ ربما نحن في يوم ضبابي، حيث لا تقوم الطائرات فيه... ولكن قطع التذاكر يبقى سارياً في كل الأجواء... في الأيام الضبابية، والثلجية. وبينما كنت أفكر بسؤاله جاءني الجواب منه.

- إن هذا اليوم هو أكبر يوم في تاريخنا.

بكلامه الغليظ والقاسي عدت بنفسي وكأنني تلميذ كسول في المرحلة الابتدائية بحيث بتُّ لا أفهم شيئاً. ولحسن حظي، أتم توضيحه قائلاً: اليوم هو عيد الجمهورية. أليس لك علم بذلك؟.

- نعم إني أعرف ذلك.

- إذن لابد أن يكون المكتب مغلقاً في هذا اليوم.

وبما إنني أُتهمتُ بالغباء أخذت الأمر بروح الجد قائلا:

- آمنا وصدقنا يا سيدي. ولكن لماذا كتب على الواجهة: تستطيعون شراء تذاكركم من المكان الفلاني. إذا كان الأمر كما قلت.

- ليس من حاجة لهذه الورقة. لأن الجميع يعرفون أن هذا اليوم يوم

KMH

جمهوريتنا.

- يـا سـيدي الجميـع يعرفـون... ولكـن هنـاك أنـاس لا علـم لهـم بذلـك وخاصة الغرباء أي السياح الأجانب.

شعرت بغضب مفاجئ، وكأن اللوم وقع عليَّ وأنا المسؤول، أما هــم فـلا علاقة لهم بما يحدث. فصرخت على الهاتف.

- حسناً ولكن ألا تطير طائراتكم في عيد الجمهورية.

- نعم تطير.

- إذن من أين ستُقطع تذاكراً لطائراتكم التي تطير؟.

- تأتي إلى هنـا إلى /يشـيل كـوي/ أي إلى المطـار حتـى تقطـع تذكرتـك صدقوا أو لا تصدقوا قالها بالحرف الواحـد ((حتـى تقطـع تذكرتـك ولم يقـل حتى تقطعوا تذاكركم)).

أقسم لكم هذا ما حصل معي تماماً. ولم أضف إلى كلامي حرفـاً واحـداً. ولكن المعقول أن يكون خطأ.

- إذن هكذا.. تـأخذ سيارة إلى شيشـلي ومـن هنـاك بالسـيارة إلى /أف سراي/. وبالتاكسي أيضاً إلى مطار يشيل كوي. أليس كذلك؟ لنفـرض أنـي ذهبت إلى /يشيل كوي/ وقالوا لا يوجد أماكن في الطائرات. أجبـت الرجـل الذي يتكلم معي على الهاتف:

- ماذا سنفعل يعني؟ هناك عيد واحد لجمهوريتنا في العـام الواحـد. وهـل من المعقول أن لا تعطل عناصرنا في مثل هذا اليوم؟.

وبعد أن صبَّ الرجل القصير المدعبل ما في أعماقه.. قال بصوت خفيف:

- إنهم يجعلون المرء مجنوناً... أغلقت الهاتف وجئت إلى هنـا مباشـرة. إذا

كانت الخطوط الجوية بهذا الشكل، فكيف حال الخطوط البحرية، أي شيء لم يكن هكذا؟ إذا بقي الأمر كذلك فإن البلد سيغرق وا لله سيغرق... با لله سيغرق....

قال أحد الذين كانوا على الطاولة.

- نعم... نعم سيغرق... وبكل سهولة.. إن ما حصل لك لا يعد شيئاً بالنسبة لما حصل لي.

كنت أقص لهم ذلك قبل مجيئك إلى هنا.

لي حفيد صغير. بدأ يتألم من أسنانه وعندما أخذناه إلى طبيب الأسنان، ادعى: أنه لا يتألم من أسنانه، وإنما من عظمة فكه، وهذا ناتج حسب قول الطبيب من تشوه ولادي لديه. وأن علاجه يحتاج لمدة طويلة. سألناه عن الأجرة: وكم تطلبون أجرة المعالجة يا سيدي؟ فقال تسعمائة ألف ليرة.. أوه تسعمائة ألف ليرة. إذا عصرت عائلتنا من كبيرهم إلى صغيرهم لن يخرج تسعمائة ألف ليرة ولا تسعين ألف ليرة. من جهة أخرى، كان الولد يتألم كثيراً ويبكي، ماذا سنفعل يا إلهي؟.

في نهاية الأمر. أخبرنا أحد المعارف بأن هناك: كلية طب الأسنان تداوي الناس الفقراء مجاناً.. ما أجمل هذا الخبر؟. ليرضى ا لله عن دولتنا.. فما كان منا إلا أن أخذنا الولد بسرعة إلى كلية الأسنان تلك. وصلنا هناك، ولكن من المستحيل أن تجد أحداً تتحدث معه حول الأمر. كل من نقابله ونسأله ينظر إلينا وكأن بيننا عداوة دم ويمشي في حال سبيله. إلا أن أحدهم وربما أشفق علينا... فأعطانا الجواب، ولكن بوجه عابس قائلاً وهو يدخلنا إلى أحد الغرف ((تعالوا معي)) وهناك عرضنا أمرنا للسيد المتواجد خلف الطاولة. و الولد يبكي ويتألم أثناء الحديث. ظهر لنا أن الرجل طبيب

اختصاصي في أمراض القلب فقال لنا وهو يفتح سجلاً كبيراً.

- سأعطيكم موعداً، أحضروا الطفل في ذلك التاريخ إلى هنا ليكشف الطبيب دعونا له بالتوفيق. وقلنا له:

- يا سيدي نرجو أن يكون الموعد قريباً.

فبدأ الرجل يقلب صفحات السجل طويلاً وقال:

- سأعطيكم أقرب تاريخ من الآن.

آه ما أجمل ذلك!؟.. إن الحظ قد ضحك في وجهنا بعد أربعين عاماً.

أخبرنا الرجل بأقرب تاريخ: هل تعلمون متى؟. بعد عامين تماماً، هذا أمر لا يصدق أبداً، أي مريض يستطيع الانتظار عامين؟

كنت على وشك الانفجار كبرميل بارود من الغضب.

خرجت من الغرفة مسرعاً لعلي أجد أحداً من المسؤولين لأشكو الأمر له. دخلت إلى غرفة ثانية وبسرعة... آ آ آ. هل تعلمون من وجدتُ في الغرفة؟ الطبيب الذي طلب مني تسعمائة ألف ليرة. يا لهذا الأمر الغريب. بقيت حائراً ومندهشاً!

وقد علمت بعد ذلك أن كل الأطباء الذي يدرِّسون في الكلية يملكون عيادات خاصة بهم، هل فهمتم المقلب تماماً؟.

با لله عليكم: أي شخص يحتمل ألماً متواصلاً من ضرسه أو عظام فكه مدة عامين من الزمن؟. إنهم يعطون مثل هذه المواعيد الطويلة، وهم يعلمون تماماً بأن المتألم لن يقدر على تحمل الألم والمرض كل هذا الوقت الطويل. فيبادر إلى جمع المال اللازم، بأية طريقة كانت، حتى يتخلص من الألم والمرض.

نعم إن هذا البلد سيغرق... وسيغرق غرقاً عاجلاً.

كان رجل جالس إلى طاولة قريبة يتظاهر بقـراءة الصحيفـة، وفي الوقـت نفسه يصغي إليهم باهتمام، ويبتسم ابتسـامة عريضـة تخفيهـا شـواربه. دخـل شخص آخر إلى المقهى وكأنه دُفع دفعاً من الخلـف واتجـه نحـو تلـك الطاولـة وهو يقول:

- لقد انتهى... لقد انتهى.

قال أحد الجالسين وقد رفع حواجبه فوق نظارته.

- مـا الشـيء الـذي انتهـى؟ سمعتهـم يقولـون أن دواء القلـب فُقـد مـن الأسواق. فهل هناك شيء آخر يا صـاحبي قـد انتهـى؟ أجـاب الرجـل القـادم بعصبية بالغة:

- هذا البلد قد انتهى.. قد انتهى كلياً... لقد أصاب العفـن كـل نواحـي الحياة وفاحت رائحته.

سأله أحد الموجودين. خيراً إنشاء الله، ما الذي حصل؟.

- ماذا سيحصل أكثر من هذا يعني! لي جار في البنايـة الـتي أسـكن فيهـا، بابه مقابل باب شقتي. يملك سيارة خاصة. ليحفظه الله من كل سـوء، كـان يوصلني يومياً إلى مكان عملي لأن طريقه يمر من هناك وكل يوم نتبع الطريـق نفسه. في هذا الصباح وبينما كنا سائرين في أحـد منعطفـات الشـوارع قطـع علينا شرطي المرور الطريق قائلاً:

- المرور من هذا الطريق ممنوع...

يا الله.. نحن نمر كل يوم من هنا. ولم يعترضنـا أحـد؟ لم نكـن الوحيديـن الذين نمر من هنا، بل جميع السيارات تمر أيضاً. قـال صديقـي للشـرطي، بأنـه يمر من هذا المنعطف منذ عامين.

قال له الشرطي: اعتباراً من يوم أمس فقط أصبح ممنوعاً.

- ولكن إذا كان الأمر كذلك فأين لوحة عدم المرور. هل وُضعت ثم أُنزلت ثانية. أم ستوضع بعد ذلك؟.

أجاب الشرطي: نعم شيء من هذا القبيل، لنفرض جدلاً أن كل ما قاله الشرطي صحيح مائة بالمائة، ولكن الشيء الذي أريد أن أفهمه، كيف ظهر هذا الشرطي أمامنا فجأة وصاح قائلاً: قف وعندما نظرنا جيداً.. يا سيدي.. يا الله.. ماذا رأينا؟. وجدنا سيارة الشرطة في زاوية خفية من الشارع حيث أن الشرطة بدأت تنصبُ الأفخاخ يا سيدي.. هل يعقل أن نصل إلى هذا الموقف؟ الشرطة تنصب الفخ للمواطنين؟.

قال جاري الذي يقود السيارة للشرطي: لم نكن نعلم بعدم المرور من هنا يا سيدي.

عفواً لقد أخطأنا.. اعذرونا.. لن نكرر ذلك ثانية. وما شابه ذلك من الكلمات.. ومهما كررها فإن الشرطة لم تصغ له، كان أحد رجال دورية الشرطة يقف جانباً ينظر وبيده دفتر المخالفات، بينما وقف شرطي آخر على بعد أمتار منا ينظر إلينا. نزل جاري من السيارة واتجه نحو الشرطي وسارا معاً جنباً إلى جنب. وكأنهما يتحدثان عن سرٍ عظيم. في النهاية عاد جاري إلى السيارة. وقال: لقد سمحوا لنا بمتابعة السير.

- ليكن ما يكون فقد أنهينا الأمر بسعر زهيد.

سألته: كيف؟

قال: كان سيكتب مخالفة بخمسة آلاف ليرة، وبعد أخذٍ وردّ وضعت في يده خمسمائة ليرة وتخلصنا..

ليس هذا الأمر في مكان واحد أيها الأصدقاء... بل في كل مكان سترون أن هذا البلد سيغرق بأقرب وقت، إذا بقيت الأمور هكذا.

ابتسم الرجل العجوز الجالس على الطاولة الثانية ابتسامة عريضة مستمعاً إليهم وكأن الأمر لا يعنيه أبداً.

قال الرجل البدين الجالس أمام الطاولة:

- لا تقل سيغرق، ولكنه غارق منذ وقت طويل ولا علم لنا بذلك. هذا البلد ليس عبارة من عبَّارات /خورشيد رسين/ حتى ترى غرقه في البحر. ثم إن ما حصل معكم لا يعد شيئاً بالنسبة لما حصل معي. أرسلت ابني الصغير في العام الماضي إلى انكلترة ليكمل تحصيله العلمي، وبعد مرور شهر على سفره. أرسل رسالة يطلب فيها أن نرسل له كتبه المدرسية التركية لحاجته لها في دروسه هناك.

أرسلنا له الكتب بعدة طرود، ولما جاءت العطلة الصيفية رغب الولد العودة إلينا بالطائرة. فإذا أحضر معه كتبه التركية فسيكون الأمر عليه صعباً. بسبب ارتفاع التكاليف. ولهذا السبب فضَّل إرسالهم بالبريد.

وصلنا إشعار من البريد يعلمنا أن هناك طرداً في الجمارك يجب أن نحضر لاستلامه. لقد حسبنا لأول وهلة أن الطرد عبارة عن هدية جاءتنا من بلدٍ بعيد، ولم يخطر ببالنا أن ولدنا يعيد كتبه عن طريق البريد.

عرفت أن قسم الجمارك يقع في حي /السركجي/ ولما ذهبت إلى هناك، وقدمت لهم الورقة، كنت أظن بأنهم سيقولون لي مباشرة تفضلوا لاستلام طردكم. ولكن بدلاً من ذلك، أجابوا: اذهب إلى /توب خانه/ واستلم طردك من مستودعنا هناك.

ولما ذهبت إلى توب خانه، اتضح لي بأن مستودعات الجمارك قد نقلت من توب خانه إلى حي /حلقلي/، وبمقدوري استلام طردي من هناك. وا لله إن هذا الشعب يحس بالسعادة عندما يقوم البعض بتعذيب الآخرين والضغط

عليهم. فسألت عن ذلك المكان المسمى /بالحلقلي/. وكيف يستطيع المرء أن يذهب إليه وبأية واسطة؟.

قالوا: إن الذهاب إلى هناك يتم بالقطار والسفر يستغرق يوماً كاملاً.. المهم في الأمر يا سيدي أخذت إجازة من مكان عملي وركبت القطار.. وقلت أين أنت يا /حلقلي/؟.

لن أتحدث عن الأعطال التي أصابت القطار. حتى لا أطيل الحديث عليكم.. وبعد جهدٍ جهيد.. و سؤال وبحثٍ طويلين، توصلت إلى مستودعات الجمارك في /حلقلي/. إنها مستودعات كبيرة بنيت على صفوف متراصة ومساحات واسعة. بدأت أسأل هنا وهناك. عن المستودع الذي يوجد فيه طردي. وأخيراً والشكر لله وجدته.. نعم وجدت المستودع... ولكن مديره كان غائباً.. لا أحد يعرف مكانه حتى الحارس! غضبت كثيراً وصرخت في وجه الحارس: ألا يجلس مديرك هذا في مكانه؟

فقال الحارس ببرودة أزعجتني كثيراً.

- ومن أين له أن يعرف بتشريفك حتى يستقبلك في الطريق؟

كدت أنفجر من الغيظ.. بحثت عن المدير في كل مكان، ومن حسن الحظ وجدته في النهاية، فحمدت الله كثيراً.

أعطيته الورقة التي جاءتني من البريد. وبعد أن نظر إليها مطولاً قال:

- ولكن لماذا تأخرت هكذا، الطرد موجود في المستودع منذ أكثر من شهر ويجب أن تدفع أجور تخزين.

قلت: تكرم...

- ثم إن إيجاد الطرد في المستودع صعب للغاية..

أعطِ الورقة للرجل الواقف هناك والذي لم أستطع معرفة عمله.. هـل هـو حارس؟ أم عـامل؟.. لسـت أدري... دخلنـا المسـتودع وياله مـن مسـتودع كبير.. مملوء بالطرود الصغيرة والكبيرة، والأكياس والصناديق والعلب المتنوعة والقبانات الضخمة للأكياس الكبيرة. دخل العـامل إلى المسـتودع وعـاد بعـد قليل وهو يقول: من الصعب جداً أن نجد طردك في هذا اليـوم.. اذهـب الآن وارجع في يوم آخر..

لا تفعل ذلك يا أخي أنا قادم من قمة النسر. ولن أستطع أن أحصل علـى إجازة أخرى من مكان عملي.

ظل العامل واقفاً كالصنم بلا حركة. لقد فهمت سـبب وقوفـه.. ومـن لا يفهم أنه يطلب مالاً.. تظاهرت بأنني سأدفع.. عندها قال لي:

- إذاً هيا انتظر خارج المستودع... ريثما أبحث عن طردك. وعندما أجده أُبشرك وتعطيني حقي.

أكيد لست حماراً حتى لا أعطيه.. في النهاية وجد الطرد الذي نبحث عنه وهو عبارة عن علبة لُفت بورق مقوى. ولم أكن أعرف حتى تلك اللحظة أن الطرد يحوي الكتب المدرسية المرسلة من قبل ابني. كنت أقول من يـدري مـن أي دولة جاءت لنا هذه الهدية؟

جميع من في البيت ينتظرون هذا الطرد الهدية. وعندما فتحنا الطرد

وجدنا بداخله الكتب المدرسية التي أرسلناها لولدنا في بداية العام. عندهـا سألني مدير المستودع، هل هذه الكتب للتجارة؟.

- كيف يعني؟

- يعني هل أرسلوها لك كي تبيعها.

- لا يا سيدي.

- إذاً فهي هدية.. ستدفع في هذه الحالة الضريبة الجمركية المقررة. وذكر أمامي رقماً أدهشني كثيراً.. طلب ما يعادل عشرة أضعاف ثمن الكتب المدرسية التي أرسلها والدنا.

ومهما حاولت أن أشرح له قصة هذه الكتب... كيف أرسلناها وكيف أعادها لنا بدوره وأنها كتب دراسية مستعملة ليس إلا.

- كما ترون يا سيدي إنها كتب مدرسية مستعملة وقديمة.

- ليكن. إنها تدخل في نطاق الهدايا. ثم إنك ستدفع أجور التخزين عن مدة شهر.

عندها بدأت أكيل السباب والشتائم لولدي وكأنه المسؤول عن هذا الأمر.

كنت سأترك الطرد عندهم دون استلامه، إلا أنني خشيت من وضع الحجز على أموالي، بعد أن تراكم التخزين مدة طويلة، لذلك دفعت لهم المبلغ الضخم واستلمت الطرد.

طرد كبير يستحيل على إنسان كهل مثلي حمله: فبدأت أبحث عن حمَّالٍ وسيارة. والمهم أني وصلت المنزل في وقت متأخر من الليل.

قال أحد المستمعين: نعم.. نعم صحيح.. هذا البلد سيغرق.

قال الرجل الذي يقص ما جرى له: توقف يا سيدي لم تنته القصة بعد لها تتمة.

بعد استلامي الكتب من الجمارك بأسبوعين أو ثلاثة.. نشرت الصحف خبراً مفاده أن فلاناً من الناس، وهو مدير أحد المستودعات الكائنة في منطقة كذا، قد قبض عليه وهو يقوم بتمرير شاحنتين كبيرتين مملوءتين بالسلاح من الجمارك. ونشروا صورته إلى جانب الخبر. عرفت أن ذلك الشخص هو من

أخذ المال مقابل الكتب. تفضلوا يا سادة.. إذا لم يغرق هذا البلد.. ماذا يحصل له إذاً؟ بالتأكيد يغرق..

علت الابتسامة وجه الإنسان الجالس بالقرب منهم. هذا من جهة، ومن جهة ثانية بدأ أحد الرجال بالصراخ وهو يحمل سماعة الهاتف ويقول:

- منذ ساعة ونصف وأنا أريد الاتصال بمكان ما، ولكن دون جدوى لم أستطع معرفة ذلك الرقم.. ما سبب ذلك؟

لا أدري؟ إما أن تكون الخطوط مشغولة كلها، وإما أن الجهاز معطل.. وربما يخرج لي رقم آخر، أكاد أجن. إنني في عجلة من أمري. إذا بقي الأمر هكذا سيغرق البلد بالتأكيد.

اندفع شخص من بين الجالسين وهو يتنفس بسرعة وقال:

- لم أرَ في حياتي حقارة بهذا الشكل؟

سألوه: ماذا جرى؟

بدأ الرجل بسرج قصته وهو يسحب كرسياً. ليجلس عليه:

- اشتريت منزلاً من تعويض إحالتي على التقاعد ومع ما ادخرته من المال وما استرجعته من الديون.. أحمد الله على ذلك.

لقد صار لي شقة في العمارة التي تضم ثمانية عشر شقة، وأصبحت مالكاً للمنزل. وعندما بدأت بمعاملة تسجيل ملكية البيت على اسمي: قال المتعهد الذي باعني إياه:

- ستقول عند الإفراغ، بأنك اشتريت الشقة بثمانية ملايين ليرة.

وعندما أجبته: وما هو الغرض من ذلك، وقد دفعت لك ثمانية عشر مليوناً، أجاب المتعهد: إذا قلت بثمانية ملايين ليرة. سنكون نحن الاثنين من

الرابحين، لأن الحكومة ستأخذ الضريبة على المبلغ الأقل. وأضاف: لماذا ندفع الضرائب العالية وبإمكاننا دفعها أقل.

- أوه ما أجمل ذلك. سنربح أربعون ألف ليرة... لقد دفعنا الملايين ثمناً لهذه الشقة والآن سنحتال على الحكومة ونقبض أربعون ألف ليرة هذا غير ممكن.

قلت للمتعهد: مستحيل أن نفعل ذلك.

قال: اذهب الآن وفكر لبعض الوقت.. وعندما تغير وجهة نظرك اتصل معي هاتفياً. بدأ الجيران القاطنون في العمارة بزيارة منزلنا. جماعات، جماعات في الليل والنهار. وقال بعضهم: الجيران الذين سبقونا في الفروغ والتمليك، أعلمنا بأنهم اشتروا الشقة بعشرة ملايين ومساحة أكبر. وبما أن شقتي تعد أصغر شقة في البناية، سأقول لهم الحقيقة، بأني اشتريتها بثمانية عشر مليوناً، عندها سيعلم المسؤولون في الدوائر العقارية وسيرسلون لجنة تحقيق حول الأمر. حيث يتم فرض الغرامات الكبيرة في حقهم. ألحَّ بعضهم عليَّ بالسكوت عن الأمر، والبعض الآخر قاطعني، ومعظمهم أدار وجهه عني.. في النهاية قطع الرجل حديثه وتنهَّد طويلاً:

- سأله أحدهم: ماذا حصل في النهاية؟

- لماذا أكذب عليكم في النهاية رضخنا للأمر الواقع.

مثل هذا البلد بالتأكيد سيغرق وسيغرق غرقاً عجيباً.

أخفى الرجل الجالس على الطاولة القريبة رأسه بين صفحتي الجريدة، كي لا يظهر ضحكته للجالسين حوله على الطاولات المجاورة.

في هذا الوقت دخل رجل طويل القامة بين الجالسين وقال:

- هل قرأتم الخبر الفادح في الجريدة؟

سألوه: ماذا حصل؟

- إن العاملين في دار اليتامى، اغتصبوا البنات والصبيان الذين لا تتجاوز أعمارهم الثامنة أو العاشرة... تصوروا حتى الصبيان اغتصبوهم تفوه.. تفوه إن البلد يغرق وسيغرق بكل تأكيد.

وقال رجل آخر: إن موظفاً صغيراً اشترى براتبه الصغير سيارة وانتقل إلى حي آخر مدعياً بأن أخلاق أولاده قد فسدت في الحي الذي يسكن فيه وأضاف: نعم بالتأكيد سيغرق.

عندها قذف الشيخ الجالس بالصحيفة التي في يده، وبدأ يضحك بصوت عال. أتجهت أعين الجميع نحوه مندهشين:

قال الشيخ وهو يضحك: البلد لن يغرق يا سادة لن يغرق.

قال أكثر الغاضبين من بين الجالسين: كيف لا يغرق يا سيدي بالتأكيد سيغرق!

قال الشيخ: لا تهتموا بالأمر.. لن يغرق أبداً..

قال أحدهم: إذاً كيف لن يغرق؟

قال الشيخ: البلد لا يغرق مادام فيه أناساً مثلكم، ويغرق عندما نسكت عن الأخطاء وكأن الوطن غريب...

فسأله أحدهم: المعذرة ومن أنت؟

قال الشيخ مبتسماً كعادته: أنا كاتب هذه القصة.

- ٤ -

أربعون درجة إلى المرحاض

إذا كنتم تنتظرون أو تتأملون شيئاً ما من الإنسان المثقف في بلدنا،فهي كلها موجودة فيه، المثقف شخص تقدمي ديمقراطي إنساني النزعة. ويمكن القول بأنه ليس في هذا خرق للعادة. لكن غير العادي يكمن هنا.

فصاحبي سيصل إلى التسعين من عمره بعد بضعة أعوام. وإنسان في هذا العمر حتى لو لم يكن رجعياً فهو يتساءل دائماً: أين جوزات البلوط التي كانت على أيامنا. هذا التساؤل يعكس تعصبه بالحنين للماضي ولأمر يعتبره طبيعياً. والأمر غير العادي عند صديقي، تقدميته. فهو يضع كثيراً من الشباب في جيبه، عندما يتعلق الحديث بموضوع التقدمية. وهذا هو السبب الحقيقي لصداقتنا.

يسكن هذا الشخص في إحدى الولايات الجنوبية الشرقية للأناضول، ولكنه من سلالة إقطاعية. يعتبر من القلة المثقفين التقدميين في البلد. ومهما حاول البعض توجيه الانتقاد له، فإنه يظل محترماً، ويفرض احترامه على الكثيرين من الناس. خاصة وأنه أصبح في سن متقدمة جداً.. ويجد في نفسه الحق كل الحق في أن يصرخ ويغضب ويأمر الآخرين. وغالبيتهم يعترفون بهذا الحق، فقد اعتادوا على قسوته وشدة غضبه، التي تتزايد يوماً بعد يوم ومع تقدمه في السن.

منذ بضع سنوات. وهو يدعوني لأكون ضيفاً عليه في تلك المدينة الأناضولية، ذات التاريخ العريق والطويل.ويمتعك دائماً بحديثه اللذيذ والشيق عن الأماكن والآثار التاريخية الموجودة فيها. والمليئة بالذكريات والأحداث:

عن الخانات القديمة، والجوامع، والحمامات، والجسور، والآبار القديمة. ويتناولها بالتفصيل والدقة.

كنت اندهش كثيراً لمعرفته الواسعة وأسلوبه الرائع في الوصف.

وفي كل مرة يصادفني فيها في استنبول يجدد دعوتي لزيارته، ويعرب لي باتصاله الهاتفي عن انزعاجه من عدم تلبية دعوته. ومهما حاولت إرضاء صديقي الشيخ الحاد المزاج، لدعواته الرقيقة بوعود حقيقية مني، إلا أنني لم أستطع تلبية دعواته والوفاء بوعدي بالذهاب إليه لكثرة أعمالي وأشغالي.

في أحد الأيام قررت أخيراً وبعد أن سنحت لي الفرصة بزيارة مدينة صديقي الأثرية لأطلع على معالمها التاريخية وآثارها القديمة. وصلت المدينة بعد عناء سفر شديد. إلا أن استقبال صديقي الحار لي. أنساني كل تعب نالني أثناء السفر.

عزمت بالبقاء في تلك المدينة أربعة أيام. وعند لقائنا في المساء، حدَّد صديقي الأماكن التي سنزورها. تلك الأماكن لا مثيل لها في العالم على حد تعبيره. ولكي يراها المرء جيداً فهو يحتاج إلى أربعين عاماً على أقل تقدير. ولكن برنامجنا اقتصر على أربعة أيام.

كان علينا مشاهدة الأماكن التاريخية الأكثر شهرة مثل الجوامع والكنائس، والجسور، والحمامات، والأقبية. وسنزورها جميعها على الطبيعة خلال الأربعة أيام. كان صديقي ينتظر اليوم التالي بفارغ الصبر. ويظل منهمكاً في وضع برنامج اليوم التالي، وما انفك بالحديث عنا لأماكن التي سنذهب لمشاهدتها. و لم يتمالك نفسه عن الحديث والإيضاح، بحيث حفظت عن ظهر قلب أسماء الأماكن المعدة للزيارة ((بناية عمر باشا السلمدار – خان أرستا – الجامع المتقطع – خان السلاسل – قبة الساعة – ضريح زللو بابا –

جسر العيون الثلاثة... وغيرهم.. وغيرهم.

لقد كنت بدوري ازداد هيجاناً وشوقاً لرؤية المزيد من الآثار بسبب ما سمعته من وصف دقيق عنها.

في صباح اليوم التالي، تناولنا طعام الفطور. وكنت أتلهف لرؤية كل ذلك قبل أن أخطو خطوة واحدة. بعد الانتهاء من الفطور. ركبنا السيارة التي كانت تنتظرنا قرب الباب. أمر مضيفي السائق بلهجته الآمرة والنابعة من عادةٍ ورثها من سلالته الإقطاعية منذ زمن طويل. قالها كعادته بوجه عابس. في الطريق توجه صديقي بالحديث إلي. وبعد أن غير لهجته الجافة عن /خان آراسات/ الذي سيكون أول محطة أثرية سنمر بها قال:

إن العثمانيين بنوا هذا الخان قبل أربعمائة عام، على أنقاض مجموعة من الهياكل والمعابد التي بناها البيزنطيون. لكن ملك الساسانيين /حوسرت الثاني/ حطَّم وهدَّم كل ما بناه البيزنطيون إلى أن جاء العباسيون... يا لها من معلومات دقيقة وتفصيلات تاريخية رائعة. لقد كان صديقي يروي بدقة متناهية عدد الغرف والمخازن والمخطوطات، وكل ما يتعلق بتاريخ /خان آراسات/ الذي سنراه لاحقاً. وخاصة ذلك النبع الذي بني فوق البئر الموجود داخله. إنه من أعظم الأعمال الفنية. ولا يقدر قيمته إلا الفنانين الحقيقين.. ورواد الفن من سياح أمريكا وأوروبا ليأخذوا صوراً تذكارية عنه.

أوقف السائق السيارة.. ونزلنا وسط جمع كبير من الناس، وكأننا دخلنا وسط مستنقع ضحل يصعب على المرء التخلص منه بسهولة.

أدار صديقي بصره نحو الزوايا الأربع بدهشة و استغراب، وكأن المكان... غريب عنه لا يعرفه و لم يراه أبداً. وتمتم بكلمات بينه وبين نفسه:

- آ آ آ.. أين هذا المكان؟ هذا المكان أين؟ ذلك يا ناس؟!! كان

الازدحام يدفعنا نحو اليمين والشمال... وإلى الأمام والخلف كحصى الشاطئ عندما تدفعها الأمواج مداً وتسحبها جذراً. وهذا ما كان يزعج صديقي على الأقل لأني كنت ضيفاً عليه.. صرخ في وجه السائق قائلاً:

- يا بني: أين خان اراسات؟

أجابه السائق بتساؤل وهو ينظر إليه دون أن يفهم شيئاً.

- ماذا قلت يا عمي؟

فقال له مضيفي بصوت عال:

- خان آراسات يا ابني. خان أراسات؟

- لا أدري يا عمي؟.

عندما قطع الأمل من السائق، قبض على ذراع أحد المارة، وقال له بنبرة حادة:

- أين ذهب خان أراستا يا آغا؟.

- ماذا...؟

لم يترك أحداً من الباعة المتجولين والمحلات والمخازن إلا وسألهم. وكأنهم جميعاً مجبرون على معرفة /خان أراسات/:

- ماذا جرى لخان أراسات؟. أين ذهب خان أرستا؟

وكان الجواب يأتيه من الجميع متشابهاً وعلى نمط واحد:

- ماذا...؟

- هيه

- خان ماذا؟.

- أين قلت أين؟...

قطع صديقي الأمل في العثور على خان أراسات.. وفهم أن الجميع وليس هو وحده يستطيع العثور عليه.. كان خان أراسات قد ضاع منذ زمن طويل. حيث كان في يوم من الأيام مفخرة المدن والآثار جميعاً بشهرته الواسعة وفنه الأصيل.

اختفى رأسه حزناً وخجلاً لأنه وصف الخان لضيفه وصفاً أوصله لعنان السماء. ولكن دون أن يراه على الطبيعة..

- آي واه.. إذن هدموا ذلك الخان العملاق... لتنطفىء مواقدهم.

كانت نبرات صوته قد ضعفت وضاعت.. فقال بهدوء:

- هيا لنذهب إلى عمارة /عمر السلحدار/.. هيا نركب السيارة..

وأمر السائق بصوته المعهود:

- هيا توجه بنا إلى العمارة.

أجابه السائق وهو يتلعثم من الخوف.

- ماذا أمرت يا عمي؟ هل أمرتني بالذهاب إلى العمارة؟ إلى العمارة أليس كذلك؟ إلى العمارة.. أين تقع هذه العمارة يا عمي؟..

بدأت حواجب صديقي بالحركة.

- ألا تخجل من نفسك ولا.. تفوه عليك، وتعتبر نفسك ابن هذه المدينة.. هل من المعقول... أن لا تعرف العمارة... تلك العمارة العملاقة.. إذا سألت طفلاً صغيراً.. كم عمارة يوجد عندنا... واحدة طبعاً: عمارة الباشا عمر السلحدار.

ثم أرشد السائق إلى كيفية الوصول إليها.

أخرج السائق السيارة من مستنقع البشر وهويضغط على الزمور طويلاً.

وبدأ صديقي العزيز يصف العمارة وصفاً دقيقاً غير عادي، حتى أن صاحب العمارة شخصياً لا يستطيع وصفها بهذه الدقة. ربما كان ذلك نابعاً من شدة خجله.. وردة فعل منه. لعدم رؤية /خان أراسات/.. كانت العمارة سابقاً، تطعم كل يوم أكثر من ألف مسكين وفقير. وتقدم يومياً ثلاث وجبات كاملة وبأنواع مختلفة من الطعام.

كانت واردات العمارة تأتي من المحلات التجارية التي بناها عمر باشا. ويعد سوقه المغلقة الصغيرة، من أهم وأجمل الأسواق المغلقة في الشرق عامة: على حد تعبير خبراء الآثار العالميين. وكلما أطال الوصف، كانت نبرات صوته تزداد شدة وقوة. وكان من المفروض أن نشاهد السوق المغلق بعد العمارة وفجأة صرخ في السائق وهو يصف العمارة...

- إلى أين؟ توقف قليلاً... يجب أن تكون العمارة هنا؟.

أوقف السائق السيارة فجأة من الخوف فأصابنا رد فعل عكسي شديد.. بعد أن نزلنا من السيارة. نظر صديقي مطولاً إلى مشغل كبير ثم رفع رأسه نحو الأعلى ماسكاً قبعته بيديه كي لا تقع على الأرض. وبقي على هذه الحال. رافعاً رأسه نحو الأعلى وكأنه لن ينزله أبداً. وفجأة مسك من يد أحد المارة وقال له صارخاً:

- أين عمارة عمر باشا يا هذا؟. أو يا ولا /بالعامية/ فقال له ذلك الإنسان القروي البسيط. وكأنه المسؤول المباشر عن هذا السؤال وبلهجة عربية عادية.

- والله وبالله.. لم أرَ ذلك الباشا ولم أسمع عنه أبداً؟"

ثم دخل أحد المحال الموجودة تحت ذلك المشغل. وسأل من هو بمثابة

صاحبه بنفس اللهجة الغاضبة.

- أين صارت عمارة عمر باشا؟.

سأل الرجل أحد الموجودين داخل الغرفة الزجاجية.

- إنهم يسألون عن عمر باشا. هل لديك معلومات؟

- ماذا تقول.. عمر باشا.. ربما سمعت شيئاً عن ذلك القبيل قبل عشرة أعوام من الآن.

أسبل صديقي يداه إلى جانب جسمه. وهو في حالة شديدة من الاكتئاب الشديد... فقال لي دون أن ينتظر نهاية الحديث.

- هيا نذهب من هنا.

كان الخجل على وشك أن يلقيه أرضاً من شدة القهر.. لماذا؟ لأنه دعاني إلى هنا مرات عديدة لأشاهد الأماكن الأثرية والتذكارية. فقلت له مخففاً عنه شيئاً من وطأة الخجل.

- يكفي ما فعلناه اليوم... لقد انهكنا التعب .. إذا كنت تريد البحث... نبحث غداً.

بعد أن دقق النظر في وجهي من تحت حاجبيه ليرى... هل أسخر منه؟ أم ماذا؟ ثم قال:

- لا... لا... ماذا شاهدنا حتى الآن كي نذهب... يجب أن نشاهد الجامع /الملتف/.. وركبنا السيارة.

سألني: هل تعرف الجامع الملتف؟.

أكدت له بعدم معرفتي للجامع المذكور.

من الشائع جداً. أن كل شخصٍ يزور هذه المدينة ويغادرها دون زيارة

الجامع الملتف. فلا يكون شاهد شيئاً من المدينة. لأن هذا الجامع يُعد من أهم جوامع المنطقة جمالاً وفناً.

ثم سأل السائق: الظاهر يا ابني أنك لا تعرف أي مكان في المدينة، فهل تعرف الجامع الملتف؟.

قال السائق: أعرف مكانه يا عمي.

- كنت سأريك الكثير إذا قلت لا أعرف مكانه.

في النهاية أحس ببعض الراحة... لأنه وجد ما أشاهده ثم بدأ بوصف الجامع الملتف: سمي الجامع ملتفاً. لأن في داخل مئذنته ثلاث درجات ملتفة حول بعضها البعض. وكلها تصل في نهايتها إلى شرفات المئذنة. وقد نقشت على جدران الجامع، رسوم وكتابات نافرة ملتفة حول بعضها. حتى أن المؤذنين الثلاثة الذين كانوا يصعدون المئذنة لا يرون بعضهم أبداً. ولكن لا تنحصر قيمة هذا الجامع بدرجاته الملتفة حول بعضها فقط. بل بقيمتة الفنية التي تكمن بواجهته المرمرية النافرة. وتعد تلك الزينات المرمرية من أروع فنون العمارة التابعة للعهد السلجوقي.

حتى أن خبراء كثيرون من أمريكا وأوروبا حضروا إلى هنا و بحثوا وحلّلوا ماهية النقوش والرسوم النافرة. إنه فن لا يشبع المرء من رؤيته ومشاهدته.

- ستراه الآن على أكمل وجه.

كان السائق قد أوقف السيارة.

- آه لقد وصلنا يا عمي.

سأله صديقي قبل أن ينزل من السيارة:

- أين وصلنا؟

KMH

- إلى الجامع الملتف يا عمي؟

- ولا.... أين الجامع؟.. ماذا حصل للجامع؟.

- الجامع يا عمي بقي هناك.. في الوسط، وراء هذه العمارة وورش التشغيل.

نزلنا من السيارة، وأخيراً وجدنا الجامع الملتف بعد البحث والتدقيق /ربك حميد كان الجامع جاثماً في مكانه/ وسررنا لأننا وجدنا ما تصبو إليه نفوسنا. على الأقل واحد من الكل. كان صديقي في حالة مرضية إلى حدٍ ما... كان لا يزال يتحدث عن الواجهة المرمرية للجامع واصفاً إياها بالروعة والبهاء. ولكن عندما وصلنا باب الجامع توقف فجأة عن الحديث والمسير. وتجمد في مكانه لفترة من الزمن.

والحقيقة إنني خفت عليه كثيراً.. خفت أن يُصاب بمكروه حاولت تأبط ذراعه، إلا أنه أبعد ذراعي بشدة عنه. فما كان منه إلا أن مسك بذراع أحد الداخلين إلى الجامع. والظاهر أنه توضأ لتوه قبل الدخول. حيث ما زال الرجل ينزل أكمام قميصه. فصرخ فيه فجأة.

- ماذا حدث للمرمر الذي كان على الباب؟.

سأله وهو يضع يده فوق المكان الذي يجب أن تكون فيه النقوش المرمريةحيث أثر لها ولا للوحات المرمر في المكان الذي أشار إليه بيده، عدا طبقات كثيفة من اللون الأخضر.

في هذه المرة لم ينطق البتة، و لم يصدر عنه أي ردُّ فعل، لكن وجهه أصبح كالرماد، وكأنه شخصياً المسبب والفاعل الرئيسي لكل هذه الانتهاكات اللاحضارية. ودون أن نتحدث، ركبنا السيارة وقال للسائق: هيا اسحب إلى مزار زللو بابا.

وعندما سأله السائق: وهذا أين يقع يا عمي؟.

بمجرد سؤال السائق: نطق مضيفي... الإنسان الناعم الذواق.. بكلمة فاضحة ومعبرة وبما معناه (في مكان خروجك من أمك) لم أستطع أن أتمالك نفسي من الضحك.... فضحكت كثيراً. بينما مضيفي في حالة يرثى لها. وكنت أحاول إخفاء ابتسامتي، فقلت له:

- الظاهر أنك لم تأت إلى هنا منذ زمن طويل؟

- نعم هذا صحيح. لم أتشرف بزيارة المدينة منذ خمسة عشر عاماً وأكثر لأن الشيخوخة غرست من لبها في قوتنا.

ثم أوضح للسائق مكان المزار... مزار /زللو بابا/ فاتجه نحوه بسرعة، وعندما نزلنا من السيارة، نظر مضيفي إلى ما حوله مدققاً ومفتشاً وسائلاً المارة وأصحاب المحلات التجارية. وأخيراً ظهر إنسان يعرف مكان المزار وقادنا إليه، كان المزار قد أصبح أحد أقبية عمارة تتألف من أربعة طوابق. ولم يبق سوى مجموعة من الجدران الحجرية في زواياه الأربع. وقد أولج بابه بعصا حديدية. وهناك بقايا آثار احتراق شمعة. كما رُبطت على المرتاج لحديدي أقمشة قديمة وقطعاً من الجنفيص.

كان صديقي قد شعر في داخله بأنه أصبح شاهداً على الحقيقة عينها.

قال: هيا... هيا لنرجع.

لقد خجل كثيراً. ومع هذا رفض اقتراحي بالعودة إلى المنزل، وأصرَّ وبإلحاح كبير أنه سيأخذني لمشاهدة تاريخ وذكرى مدينته الجميلة، وفي الوقت نفسه يريد أن يثبت لي صدق كلامه: كنت أشعر: أن مضيفي قد أحس بداخله بتأنيب الضمير وشعر بأنه خدعني أو كذب علي. والحقيقة كنت دائما على الاستعداد للظهور بمظاهر الفرح والدهشة والسرور. حتى

ولو رأيت جداراً قديماً، مهما كان نوعه وتاريخه... قال للسائق:

- هيا لنذهب إلى صهريج (خزان) /غورانيز/.

وكما في كل مرة لم يعرف السائق مكان الصهريج... ولكنه لم يسأل سؤاله المعتاد (أين يقع ذلك يا عمي؟) خوفاً من أن تصاب أمه ثانية ببعض السباب والشتائم. فمن كان من صديقي إلا أن أعطاه العنوان من تلقاء. ونحن في الطريق وكالعادة بدأ بوصف الخزان وصفاً دقيقاً: الخزان من آثار البيزنطيين. يأتيه الماء بأقنية من جميع الجهات. يخزن كميات كبيرة من الماء وتصل أطرافه إلى أسفل قلعة المدينة.

- عندما ستشاهده ستصاب بالزهول. إنه مُشيَّد فوق عددٍ لا يحصى من الأعمدة المرمرية وداخله شديد الرطوبة ومياهه لا تنضب أبداً. عندما وصلنا إلى المكان المطلوب.. كانت دهشتنا عظيمة للغاية. أولاً لا أحد يعرف مكان الخزان وثانياً: فقد بُنيت فوقه عمارة كبيرة من ثمانية طوابق. وأحاطت به المحلات التجارية. محلات لبيع اللحمة بالعجين، وبيع، الخرداوات ونادي ليلي: أي أنه لم يبق للخزان أثر على الإطلاق.

لم يأخذ صديقي باقتراحاتي التي طلبت فيها منه العودة إلى المنزل. لا يمكن إلا أن يجمعني بأثر تاريخي وحضاري حتى يرتاح ضميره بعض الشيء.

كنت من جهتي أبحث في هذه المدينة الغريبة والتي أزورها لأول مرة.. عن أي شيء قديم حتى أقدم لصديقي باقة من البهجة والفرح.. ولكن أين ذلك الشيء الذي أبحث عنه.

كان الهدف بعد ذلك، جسر /كارابا والعيون الثلاث/ بحثنا عنه ساعة كاملة بالسيارة. إلا أن بحثنا ذهب سدى. لم نجد أثراً لا للجسر ولا لمجرى الماء.

كان غضب صديقي يزداد شيئاً فشيئاً.

- هيا اسحب إلى /دير أباناس/.

وفي الطريق إلى الدير بدأ يصفه لي كعادته: ((لقد تناوب على الدير أربع حضارات: هي حضارة الهلينيين والبرسليين والرومانيين والبيزنطيين. ولكن الآثار البيزنطية لها طعم خاص، لأن الموزاييك فيها أشبه بكتلة من الأحاسيس غير الواضحة تتحرك في أعماقي.

إذا لم نجد الدير صديقي سيحزن كثيراً، فإن وما خشيت منه هو أن أسقط أرضاً، لأن الرياح كانت تذر الرماد في مكان وجود الدير.

- ماذا حصل للدير؟.. ماذا فعلتم بالدير؟..

هذه الأسئلة كانت تترك في وجوه المسؤولين إشارات استفهام كبيرة ودهشة عظيمة: لجميع هذه الأسباب لم أستطع أن أتمالك نفسي عن الضحك.. محاولاً إخفاء ذلك عن صديقي بقدر ما أستطيع، لكن صديقي كان يفهم من ملامحي ويغضب علي ضمنياً. ولا يستطيع أن يرفع صوته عليَّ كوني ضيفاً عنده.

- والآن سنذهب إلى الحمام.

عندما قال ذلك.. ضحكت عالياً، لأنني حسبت أنه يُقدِّم اقتراحاً لنيل قسطاً من الراحة والاستجمام بعد ما أصابنا التعب. فقلت له: شكراً لكم.. أنا شخصياً لا أريد أن استحم.

- لا لن نذهب إلى الحمام لذلك الغرض. إنه حمام عثماني قديم يستحق المشاهدة. وكعادته، وبينما كنا في طريقنا إلى الحمام بدأ بالوصف. ((إنه حمام يقوم على ثلاث قبب صغيرة وقبة كبيرة في داخله، مع منفذ للمياه الباردة، ومنفذين للمياه الساخنة وغرفتين للخلاء، الغرفتان مرصوفتان بالمرمر

وبـالألوان الفاتحـة والأسـود والأبيـض. وأمامـه حديقـة صغـيرة تحتـوي علـى مجموعة من الأشجار المثمرة. وقد بُني الحمام بالأحجار المنحوتة بالأيدي)).

المهم.. وصلنا إلى حمام //ايفنلي//... ما معنى وصلنا إلى الحمام؟...

لا أثر للحمام ولا أحد يعرف مكانـه.. وصديقـي يسـأل الجميـع كعادتـه دون كلل أو ملل.

- أين حمام /إيفنلي/؟ ماذا فعلتم بالحمام الكبير؟.

ومهما حاولت إقناعه بالعودة إلى المنزل. لكنـه كـان يرفـض الفكـرة مـن أساسها، ويصر بعناد شديد على زيارة الشواهد التاريخية والأثرية.

قال: هيا لنشاهد خندق القلعة.

كانت القلعة وخندقها بمثابة الأمل الأخير له. من المسـتحيل إزالـة القلعـة وطمس معالمها وخندقها من الوجود. وأنا شخصياً كنت امل ذلك.

وكعادته بدأ بوصف القلعة وخندقها.

((يبلغ طول الخندق المحيط بالقلعة ألف وثلاثمائة خطوة وعرضـه أربعـون خطوة، وعمقه ثلاثة أذرع. وقد حفر بالصخر القاسي. إنه الخنـدق الوحيـد في العالم المحفور في الصخر. يمـلأ الخنـدق بالمـاء لمنـع العـدو مـن الدخـول إلى القلعة.

- إين خندق القلعة؟

آه: لقد حدثت القيامة الكبـيرة هنـاك!... وفـور نزولنـا مـن السـيارة بـدأ صديقي يصرخ صراخاً مدوياً...

- ولا... أين خندق هذه القلعة.. ماذا فعلتم بالخندق؟ يـا للأسـف كـان الخندق قد سُوِّيَ بـالأرض وأصبـح سـوقاً تجاريـاً وامتـلأ بالباعـة، والمشـترين،

والحمالين، والأكياس المختلفة، والصناديق، والعربات، والأباريق والكاسات، والتنك والخضروات والفواكه، وأصوات الباعة. لقد امتلأت أرضه بالطين،أيضاً، وكان صديقي يسأل كل من يصادفه دون تمييز بين البائع والشاري وبين الرجل والمرأة.

- ولِكْ... ماذا فعلتم بخندق القلعة؟

وهم يجيبون بدهشة وحيرة:

- ماذا تقول يا أغا.؟.. عن أي خندق تتحدث؟ أي خندق؟ خندق من؟.. ماذا حصل للخندق؟..

كان قد مضى وقت طويل على موعد طعام الغذاء.. ولم يبق لصديقي أي أمل في مشاهدة الخندق. ولكنه أبى أن يخرج من الميدان خاسراً دون مشاهدة أي أثر تاريخي وحضاري. مهما كلفه الأمر.

قال وهو يزرع الأمل الأخير في أعماقه: قبل أن نرجع يجب أن نشاهد جامع /سوفانلي/ ركبنا السيارة.. حيث بدأ صديقي كعادته بالوصف:

- ((الجامع الذي سنشاهده. ليس له قيمة معمارية كبيرة. لكن قيمته تكمن في المرحاض الذي يحويه. إنه مرحاض لا مثيل له في العالم. حتى إن المهندس الألماني المشهور /جانس غالب/ أصيب بالدهشة لدى مشاهدته. وقال لرئيس البلدية الذي كان يرافقه آنذاك: ((إياكم من إزالة وتخريب هذا الأثر.. أرجوكم.. ها)).

وتأتي القيمة المعمارية لهذا الأثر.. في أن العثمانيين جهدوا فكرهم باختراع طريقة تهوية جيدة. بحيث أن الداخل إلى المرحاض لا يشمُ أية رائحة. وهو جالس فيه. حتى أن المعماري /جانس غالب/ أصبح على وشك أن يفقد شيئاً من عقله.

إن النزول إلى المرحاض يبدأ من ساحة الجامع بواسطة أربعين درجة (فيما صديقي يتحدث، كنت أفكر بحالة ذلك الإنسان المحشوك. كيف يستطيع أن يصبر وهو ينزل الدرجات الأربعين تلك، فيعمل تحته وبدأت بالضحك). وعندما يصل الإنسان إلى المراحيض بعد نزول الأربعين درجة، يسير داخل نفق كبير قرب المراحيض هذا الطريق أو النفق لم يره شخصياً ولكنه سمع بأن فارساً ممتطياً صهوة جواده، استطاع المرور فيه بسهولة. حتى أن /جانس غالب/ عمل مخططاً للمراحيض واستغرب فكرة العثمانيين، بالقضاء على الروائح في المراحيض بهذه الطريقة: لاشك أنه عندما يذهب إلى ألمانيا سيقول: كيف عرف العثمانيون هذا منذ زمن طويل؟

أما أنا بدوري فقط كنت سعيداً، لأننا سنعود إلى المنزل بعد زيارتنا للجامع /سوفانلي/ حتى أن صديقي وضع أمله الأخير في هذا الجامع ومراحيضه ذوات الأربعين درجة.

ذهبنا إلى الجامع وما إن دخلنا ساحته حتى فوجئنا بالروائح الكريهة التي لا يستطيع المرء تحملها. وعلى أطراف الساحة يجلس أُناس بتكاسل مطلق. هنا... وهناك يتشمسون. نظر صديقي الشيخ حوله باحثاً عن المراحيض، وعندما لم يجد طلبه، نظر نحو السماء وصرخ بأعلى صوته.

- ولك أين المراحيض.. التي كانت قائمة هنا؟.

أشار واحد من محبي الخير إلى مرحاض يقع في أحد أطراف الساحة، لقد ألصقت ورقة كتب عليها بخط رديء للغاية الوضوء الصغير بـ ١٠٠ ليرة تركية والوضوء الكبير بـ ١٥٠ ليرة تركية. أي أجرة استعمال المرحاض. وقد وضعت على أرض المرحاض تنكات صدئة مملوءة بالماء، ووُضعت فوقها علب معدنية فارغة. نظرت إلى وجه صديقي، فوجدته مصفراً كوجوه الأموات، وكنت أخشى أن يؤثر هذا الاصفرار على قلبه فيقع على الأرض.

دفع صديقي أحدهم من رقبته وهو جالس أمام الصنبور يتوضأ ويتمتم بالدعاء. وصرخ فيه: أين المراحيض ذات الأربعين درجة أين؟.

رفع الرجل رأسه ونظر إليه باستغراب وعاد ثانية إلى وضوئه وهو يهز رأسه يميناً وشمالاً.

في هذه المرة قبض بذراع أحدهم كان قد أنهى وضوءه وهو يلبس القبقاب وسأله قائلاً: ماذا فعلتم بالمراحيض ذات الأربعين درجة ولك؟ ماذا فعلتم به؟.

أما أنا فكنت خائفاً على نفسي من كثرة الضحك.. وقد وضعت يديَّ على خاصرتي أشد بهما على بطني. كي لا أسقط على الأرض من كثرة الضحك. حتى أن الدموع انهمرت من عيني. وكلما نظر صديقي إليَّ كنت أدير الطرف عنه باتجاه معاكس كي لا يراني. ثم أبتعدت عنه حتى لا يسمع ضحكتي وكل من كان يسأله ينظر إليه بدهشة وحيرة.

اقترب مني.. وهو يتنفس من أنفه بصعوبة بالغة والنار تخرج من عينيه، لأن آماله كلها ضاعت هباء منثوراً. وقال لي:

– هيا نذهب.. لنأكل بعض /البقلاوة/ على أقل تقدير، لأن بقلاوتنا من أحسن الحلويات..

كدت أسقط على الأرض من كثرة الضحك. تمسكتُ بالجدارِ لأن جسدي كان ينتفض بكامله من الضحك.

ركبنا السيارة.. ولزمت الصمت طويلاً.. كنتُ أعرفُ أني إذا بدأت بالكلام فإن الضحك سوف يسيء إلى صديقي وأنا ضيف عليه.

وصلنا المنزل عند حلول الظلام. فقال لي صديقي الشيخ العزيز:

– هيا نجلس لنشرب:

جلسنا على مائدة الشرب. ولست هنا بصدد تعداد /المازوات/ ولكن يجب عليَّ أن أذكر البقلاوة. وأني أجد نفسي مضطراً لذكرها.

- يا الله هذه هي البقلاوة إذاً.. إن كل ما أكلته من البقلاوة حتى الآن لم تكن هي ذاتها إنما شيء يشبهها.. ولم أكن أعلم ذلك. في تلك الليلة أكلت منها ما يعادل ما أكلته طيلة عمري. كان من المفروض أن أمكث في تلك المدينة ثلاثة أيام حسب البرنامج الذي وضعه صديقي، لزيارة الأماكن الأثرية والتاريخية فيها.

والآن.. بعد إلغاء البرنامج الذي وضعناه من أساسه. ماذا يجب علي أن أفعل طيلة ثلاثة أيام في تلك المدينة.

ماذا تظنون أني فاعل؟: ببساطة أكلت البقلاوة فقط. وعندما غادرت مضافته حملت معي ثلاثة علب كبيرة منها.

بادرني صديقي وهو يودعني قائلاً:

- صدقاً. هل سبق لك وأكلت بقلاوة بمثل هذا الطعم اللذيذ من قبل؟
أجبته: أُقسمُ.. أني لم أذق أطيب منها في حياتي.. ويكفي أن تكون البقلاوة سبباً مباشراً لزيارة هذه المدينة.

عدت إلى استنبول ووجدت أن وزني قد زاد أربعة كيلو غرام ونصف. وقلت في نفسي سأقوم بزيارة لتلك المدينة، عندما تسمح لي الظروف من أجل تناول البقلاوة التاريخية.

- ٥ -

العدالة الإلهية

ملاحظة: المقطع الأول من هذه الصفحة عبارة عن بعض الحكم والأمثال الشعبية الدالة بنفس شاعري مقفى إلى حدٍ ما.

المترجم

الموجود لمن يصل. والمكسور للكاسر. ليتني الكاسر الذي يقطع الرؤوس. الكيس الفارغ لا صوت له ولا يسمعه أحد.. الزاعلانون أعدادهم كثيرة. الغيمة الثقيلة تمطر على الآخرين. والذي ينسم للعالمين. لن نطول بالحديث.. مهما كلف الأمر.. الأمر ليس لك ولا لي ولا للآخر الأمر للمنسم والزاعلان والمغذي.. الأمر للخزانة. الطاولة للشانق. الذابح من يقطع حبل صرة الولد..

آمان توقفوا.. ذلك الزمان أي زمان.. والمكان أي مكان؟ لأن نقول ذلك يجب أن يكون قلبنا كالمنقل (الجرأة والشجاعة)

المترجم

وهذا القلب لا أنت تملكه يا ابن البلد ولا أنا أيها الأخ. أفضل شيء. نحن الخائفون. نسمع الحكايات ونرويها والخوف ينتظر الجبال. والفارة شجاعة في وكرها. ولكي تخوف الآخرين تكتب على مدخنتها ((أي زمان ذلك الزمان.. وأي مكان ذلك المكان.. كل زمان وكل مكان.

ما يحصل في كل زمان ومكان، يقع على رأس كل إنسان. أن مات إنسان في أحد الأزمنة والأمكنة. فلا شيء غير عادي عند موت الإنسان. فالإنسان يولد ويعيش ثم يموت. بعضهم يموت ويحسب أنه عاش. والبعض

الآخر يموت وقد عاش حقيقة، وبعضهم يموت دون أن يعيش. وبما أن كل إنسان مرغم على الموت. فيجب أن يكون موت إنسان ما في أي زمان ومكان أمراً عادياً. ولكن ذلك الإنسان يجب أن لا يكون مثلنا.. //آمان ما هذا العيب// وإذا كان ذلك الإنسان ليس كالبشر العاديين فيجب أن لا يكون موته عادياً.

لقد جرت حادثة عادية وكانت فعلاً من الأحداث غير العادية. قصة إنسان ولد وعاش وترعرع ومات، كان من ثلاثة غنياء موجودين في بلده - ولم تقتصر شهرة غناه في وطنه بل تعدَّى ذلك ليصبح ضمن الأربعين غنياً في العالم. الغنى لدى البعض لا يعد أمراً هاماً، لكن الإنسان موضوع حديثنا كان نوعاً آخر من الأغنياء. له ميزات فوق العادة. كان يدفع أكبر رقم من الضريبة لخزينة بلده، محباً للخير، ومحباً للمساعدة. بنى سبع مدن جامعية في سبع مدن في بلده للطلاب الفقراء. وبنى عدة مشافٍ لمرضى العمال الفقراء. ومنح العمال المنتجين حوافز قيمة مقابل جدهم ونشاطهم، وبنى أعداداً كبيرة من المدارس. وفتح دورات خاصة للطلبة الفقراء الأذكياء المجدين والذين يتمتعون بمواهب عالية. وقدَّم أموالاً طائلة لترميم الأماكن والأبنية الأثرية القديمة. كما ساهم إلى حدٍ بعيد وبشكل كبير وواضح في تقديم الإعانات المالية للجمعيات الخيرية.

المتوفي كان ذلك الإنسان المحسن الكبير. وموته بطبيعة الحال لن يكون كموت أحد منا ولا كموت أي إنسان آخر مهما تعددت جوانبه الإنسانية والاجتماعية. وطبعاً لن يستطيع أحد ملء الفراغ الذي تركه. ولهذا السبب كان موته غير عادي وغير طبيعي. فقد تحدثت عنه الجرائد اليومية على صدر صفحاتها وامتلأت بالإعلانات. الصغيرة والنعوات التي تقطع القلوب وتقتلع النفوس بكلماتها الحارة. آلاف برقيات التعازي وردت من /الهولدينغ/

والمصارف الـتي يملكهـا. وشـركاته المتعـددة. ومصانعـه، وشـركاته التجاريـة والصناعية المشتركة. وجميع العـاملين في هـذه الشـركات، وشـركات أخـرى كثيرة إضافة إلى برقيات وردت من شخصيات لا تعد ولا تحصى. جميع هـذه البرقيات نشرت على صفحات الجرائد بأطر سـوداء. وجميعهـا تمجـد بـالفقيد الراحل وتعدد مزاياه الإنسانية والاجتماعية الرائعة. وتطلب مـن ا لله أن يغفـر له جميع ذنوبه وخطاياه. وكانت عبارات البرقيات طويلة أحياناً بحيـث يُذكـر فيها الأقرباء والأصدقاء والمقربون منه. وكثرة أقرباء المتوفي كانت تضفي على وفاته أهمية كبيرة. وكان مرسلو البرقيات يحاولون بشتى الوسائل عدم نسيان اسم من أسمـاء أقربـاء المتـوفي والذيـن لهـم سـلطة مثـل كبـيرة أزواج وأولاده وبناته. وأحفاده الذين ولدوا من مـدة قصـيرة.. ومـع ذلـك كـانت البرقيـات تغفل بعض الأسماء.. مما يؤدي إلى حـزن أصحابهـا مـن مراسـليها. إن ذكـر إنسان مقرب منه أو غير مقرب في البرقية، له صدى كبـير ونجـاح عظيـم في أعماله التجاريـة والصناعيـة. وأمـا الذيـن لم توضـع أسماؤهم علـى البرقيـات المغرية، فقد فتحـوا جـدالاً ونقاشـاً كبـيراً حـول أحقيتهـم مـن أولئـك الذيـن وضعت أسماؤهم في البرقيات. لأنهم كانوا أقرب إلى المرحوم منهم.

لم تكتف الجرائد بنشر برقيات التعازي، بل نشرت خبر موته على صـدر صفحاتها الأولى بعناوين كبيرة، وصور كثيرة للمرحوم.

وإلى جانب الجرائد اليومية، بدأت الإذاعات ومحطـات التلفـزة الحكوميـة، ببث برامج خاصة للرأي العام، تعرض فيها مزايا المرحـوم الإنسـانية والخيريـة والاجتماعية وحبه للوطن وللشعب.

ولو علـم كـل واحـد أن موتـه سـيكون كمـوت هـذا الإنسـان واهتمـام الشعب بكل فئاته، لطلب الموت كل يوم. وربمـا انتحـر أو قتـل نفسـه عمـداً لينال هذا الشرف العظيم. أما مراسيم الجنازة فكانت ضرباً من الخيال. كـأن

الأرض أفلتت من نصابها والسماء نزلت على أعقابها. حتى أن بعض الأحياء أو الذين يحسبون أنفسهم أحياء حسدوا المرحوم على هذه الجنازة التي لم يشاهدوا مثلها في حياتهم.

ورغم ما نقلته الإعلانات من طلبات للمواطنين الكرام، راجية منهم عدم إرسال أكاليل الزهور إلى مراسم الجنازة والتبرع بالمال إلى بعض الجمعيات الخيرية. فإن أكاليل الزهور المرسلة كانت كثيرة لا حصر لها، حيث تمَّ نقلها بشاحنةٍ كبيرة إلى قبر المرحوم مشكلة جبلاً فوق قبره.

أما الشركات والمصانع التي غمرت أكاليلها، جبل الزهور فقد شعرت بأنها قليلة لعدم ظهور أسمائهما للعيان. أما الشركات والمصانع والدوائر التي بقيت باقاتها على رأس الجبل، فقد شكرت الله لأن أسماءها بدت واضحة وبهذا يكون المال الذي دفعوه بعادل أجور الإعلان والدعاية لهم. كانت الجنازة مزدحمة، فقد أغلقت طرق المدينة ذهاباً وإياباً سبع ساعات متواصلة.

كما أصبح هذا الإنسان المحب للخير محبوباً. فقد وفاه شعب مدينته أطيب الوفاء حين اندفع يودعه إلى مثواه الأخير. وانبرى الخطباء والشعراء أمام قبره، مغدقين عليه الرحمة، ورافعين به إلى مصاف الأبطال بكلمات مليئة بالأسى وتترك في النفس شعوراً بالأمان والسكينة، وبالقلوب رعشة الموت، وحب المرحوم.

انتهى كل شيء بانتهاء مراسم الجنازة. المتزوج عاد إلى منزله، ومن لا يملك منزلاً دخل جحر الفئران. أما جثمان ذلك الإنسان الطيب فقد ظل وحيداً تحت التراب، يلتهمه الدود والنمل وأم الأربع والأربعين. والعقارب والأفاعي، والخلج، والفئران، والجرذان، وقرة فطمة (نوع من الحشرات). وحشرات النسيج والبراز. تلك الحشرات أعدت نفسها لتلتهم جسد ذلك الإنسان الطيب الذي ترك لوحده. أما روحه الخالدة فقد غادرت جسده

أيضاً وانطلقت نحو السماء. وظلت الروح على مرأى من الجثمان.

في اليوم التالي الذي مات فيه ذلك الإنسان الطيب. كان قد توفي في بلده ستمائة وأربعة من المواطنين. وفي العالم أكثر من مليون وفاة. جميع أرواح هؤلاء الموتى غادرت أجساد أصحابها، وتخلصت من جاذبية الأرض وبدأت بالطيران في الفضاء، تتنفس الحرية الكاملة. كانت الأجساد عارية. ذكور وإناث وهي أكثر عرياً من نوادي العراة المعروفة في العالم، كما ولدتهم أمهاتهم. وبما أنهم أصبحوا في العالم الآخر، فقد تغير نظام التدفئة هناك حيث لم يعد مجال للخطر من الأمراض على الأرواح. كالإصابة بالبرد والتهاب القصبات، الجميع يتفاهمون مع بعضهم، وكأنهم جميعاً من لسان واحد. كانت السعادة تملأ أرواحهم، والدهشة تعصف بهم، وهم يتساءلون كيف عاشوا تلك المدة من حياتهم في الشقاء والعذاب.

كانت جميع الأرواح تملك الأمل الكبير بالذهاب إلى الجنة، كيف لا. فالمجرمون والمذنبون الذين ما زالوا على قيد الحياة. بقي الأمل عندهم بالذهاب إلى الجنة أمثال. قليلي الشرف والناموس، والخونة، والمخبرون، والسارقون، والمهربون، والمستعمرون، والغاصبون، وظالموا الشعوب، جميع أصحاب هذه الذنوب كانوا يأملون بالجنة. وكانت الأرواح المتطايرة في الجو والتي تخلصت من قوالبها المتعفنة تجاوز عددها المليون جميعها كانت تأمل بالجنة. ولم يكن هناك روح واحدة تملك الشك بأنها ستلقى في النار أي في جهنم.

وبينما كانت الأرواح العارية تتطاير في الجو هنا وهناك تهنأ بنعيم حريتها، وإذا بصوت هادر صادر من زوايا العالم الأربع، صوت جعل السحب تهتز، والنجوم ترتعش، وشعر الأرواح يقف كالأشواك على أجسادها يقول: ((في الصباح، ستنعقد المحكمة الكبرى، وأسماء جميع الأرواح مسجلة في قوائم ملصقة على الأبواب، وفي أي محكمة إلهية سيتحاكم. جميع

الأرواح ستمثل أمام الديان الأعلى، لينظر ما قدمت في حياتها من أعمال. ستأخذ العدالة الإلهية مجراها، وستحاكم كل روح بمقتضى أعمالها وما قدمته في حياتها الدنيوية. وعندها سيذهب الصالحون إلى الجنة والأشرار سيلقون في نار جهنم. أما الآن وإلى أن تقام المحكمة الإلهية فالأرواح مخيرة بالذهاب إلى الجنة أو إلى جهنم والانتظار حتى صباح الغد. ستقوم المكاتب الإعلامية الموجودة على أبواب الجنة وجهنم بإعطاء الداخل والخارج بيانات ومعلومات حول كل الأمور، واعتباراً من الآن فُتحت أبواب الجنة والنار)).

وبينما كان الصوت الخارق الهادر الذي هزَّ السحب، وارجف النجوم وأوقف شعر الأرواح كالشوك على أجسادها. يهدر بآخر كلماته. كانت جميع الأرواح قد هرعت نحو باب الجنة. فحصل صدام كبير بينها. الدفش، والرفس، والضرب والمصارعة. وعمَّت الفوضى أمام أبواب الجنة أضعاف ما كانت عليه الحياة الدنيا. ولحسن الحظ، كانت الأرواح دون أجسادها، لذلك لم تصب أي روح بأذى. لا جروح ولا دماء ولا كسور وخدوش. اندفعت الأرواح كمياه الطوفان إلى الجنة.

أما باب جهنم، فكان خاوياً لم تقف أمامه أية روح. الجميع كانوا يعتقدون بأنهم أناس طيبون وأنهم سيدخلون الجنة. والشيء المهم الآن هو الحصول على أفضل مكان في الجنة والمحافظة عليه.

أما الأشخاص الطيبون محبوا الخير، والذين نتحدث عنهم، فإن غالبيتهم يعملون جاهدين في حياتهم الدنيوية أن لايتركوا شيئاً من أوامر الله.. ويرفضون التمسك، بالدنيا الفانية.. كانوا يقومون بتأدية فريضة الصلاة، وصيام رمضان، وتأدية مناسك الحج. كان أحد هؤلاء المحبين للخير: قد ذهب إلى الجامع في صلاة العيد. واستمع إلى خطبة الإمام:

- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث قدسي شريف.

في أحد الأيام، شاهدت رب العالمين في حلمي حيث قال لي:

- لقد مرضتُ يا عبدي لماذا لم تأتِ إلى زيارتي؟

- وعندما سألته: آمان يا ربي وهل مثلك من يمرض.. قال لي:

- في المكان الفلاني مرض عبدي الفلاني.. لو زرته.. لكنت قد رضيتني كثيراً.

وأضاف الإمام هذه الكلمات:

- أي إنسان يساعد المرضى يسجل له الله حسناته في سجله ويكون له قصوراً في الجنة. أما إذا لم تساعدوهم فتبقى سجلات الأمل فارغة. بعد سماعه لهذا الوعظ. بدأ محب الخير هذا في بناء مشفاً كبيراً للفقراء والمساكين.

فإذا كان يُخصص لزائر مريض واحد قصراً في الجنة، فكيف بمن يبني مشفاً كبيراً للفقراء والمحتاجين والمساكين؟ على هذا القياس سيكون له جمعية كبيرة من القصور في الجنة وأحياء كاملة باسمه.

مات هذا الإنسان المحب للخير في أحد الأزمنة. وقد غاصت روحه مع الأرواح في الجنة، بعد عناء شديد وقف مندهشاً جامداً أمام هذا المنظر السحري الفريد. الجمال يفوق كل جمال دنيوي يعجز عنه الوصف، روائح الورود العبقة، الخضرة الزاهية، اللون السماوي الأزرق كالزجاج. السحب بألوان مائلة إلى الإصفرار. وقد كتبت فوق كل سحابة عبارة ((المشاورة)) بأحرف من النجوم. وفي وسطها فتحة تقف فيها فتاة جميلة بابتسامة ملائكية. الفتيات عاريات كما خلقهن الله موزعات في كل مكان في الجنة، أما روح ذلك الإنسان المحب للخير والمساعدة فقد راحت تتجول حول المشاورة وهي تمسح بيدها اللعاب الذي يسيل من فمها. ويقف أمام كل سحابة مشاورة ملاك لا يستطيع أن يقرر من هو الملاك الذي سيقدم

مشورته، لأن الملائكة كلها متشابهة الجمال. وأخيراً دخل وبحياء شديد أمام ملاك شعرها ذهبي اللون. وبدأ بالتعريف عن نفسه. وإذا بالملاك تضحك بنعومة قائلة: - نحن نعرفك جيداً.

طفح وجه ذلك الإنسان المحب للخير والمساعدة إلى أذنيه من الفرح لاشك أن صيته وشهرته قد وصلا الجنة.

سألته الملاك: هل تريدون دليلاً من أحد الملائكة في زيارتكم للجنة؟

قالت روح ذلك الإنسان الطيب: نعم.. أريد وأرجوك.

سألته الملاك: وكيف تريدها.

احتارت روح ذلك الإنسان الطيب فيما ستقول فوضعت الملاك أمامه /ألبوماً/. اختاروا من تعجبكم؟.

قلّبت الروح الألبوم.. والشيء الحسن في الأمر أنها روح ليس إلا. لو كانت تلك الروح في جسدها الذي يتعفن تحت التراب. موجودة وهو يشاهد الفتيات الجميلات من صورهن الملونة لجُنّ جنونه. فإلى جانب كل صورة وُضعت مقاييس الفتاة وعمرها.

كانت أعمارهن أي ملائكة /الدليل/ بين ١٦ - ٢٥ عاماً.

وبما أن كل فتيات الجنة ملائكة، المرشدات، والأدلاء، فجميعهن جميلات بشكل مثير، ارتبكت الروح في اختيار الصورة لتكون دليلاً في زيارته إلى الجنة. ومع هذا وضع يده فوق إحدى الصور. وإذا بتلك الملاك تقف فوق رأسه.

- أنا تحت أمرتكم. أنا دليلتكم..

فبدأ الاثنان تارة بالطيران وطوراً وبالمشي والتجوال وسط الجنة.

سألته الملاك: هل هناك مكان خاص تحب أن تراه وتزوره؟

قال : روح ذلك الإنسان الطيب: أريد أن أرى أجمل وأحسن أماكن الجنة؟ يجب أن أشاهد مكاني الخاص. بعد المحاكمة الكبيرة التي ستقام غداً أمام الربان الأعلى يجب أن أحدِّد من الآن المكان الذي يعجبني أكثر.

قالت الملائكة: أنت لا تستطع تحديد ذلك، غداً تُعقد المحاكمة وبعدها ستأخذ من الأمكنة حسب أعمالك في الدنيا. أما ألان لا تستطيع أن تعرف مكانك.

بدأت روح ذلك الإنسان الطيب تقص على الملاك الأعمال الحسنة التي قدمتها لأبناء شعبها ووطنها وأنه بتواضعها تسبق الجميع في هذه الحسنات.

قالت الملاك: في هذه الحال تستطيع أن تأخذ قطعتين أو ثلاثة من الجنة.

قال: هنا أيضاً يتم تقطيع الأراضي كما عليه في الدنيا؟

قالت الملاك: طبعاً طبعاً. ولكن العطاء هنا على حسب الثواب.

وهناك الكثيرون يأخذون العديد من القطع.

- ما هي مساحة كل قطعة؟

- خمسمائة متراً مربعاً.

- صغيرة.

- إذا كانت حسناتكم كثيرة ستأخذون مساحة ألف متر مربع.

- هل أستطيع أن أخذ قطعاً من أرض الجنة في أماكن متفرقة.

- طبعاً فهذا عائد إلى مقدار حسناتك.

راحت روح ذلك الإنسان تفتش في الجنة عن أجمل الأماكن.

بدأت الملاك والروح بالسير في دروب تحت أشجار وارفة الظلال وغابة لا

نهاية لها، وتغريد الطيور يملأ الأذان.

قالت روح الإنسان الطيب.

- أحب الغابات، ولكن أحب أن يكون منزلي على شـاطئ بحر في الجنـة قالت الملاك الدليل: الحياة هنا لا تشبه الحياة الدنيا.. هنا تستطيع أن ترى كل شيء في الوقت الذي تريده أو تتمناه، الآن أنت في غابة. وكما تراها أشـجار وظلال. ولكن إذا أردت أن ترى شاطئ البحر تستطيع أن تراه أيضاً.

نظرت الروح الطيبة إلى الغابة، شـاهدت في وسـطها اليـنابيع والشـلالات والبحيرات الصغيرة، وعلى كل بحيرة، مجموعـة مـن فتيـات الجنـة الجميـلات، كلهن عاريات ناصعات. يضحكن ويمرحن ويرقصن على أنغام الموسيقى.

- إذا أخذت هـذه المنطقـة علـى شـاطئ البحـر فمـاذا سـيحدث لأولئـك الفتيات الموجودات هناك.

قالت: ستجد هناك أيضاً أمثالهن.

تخيل الروح الطيب بينه وبين نفسه شاطئ البحـر. وإذ بـه يجـد نفسـه مـع دليلته على شاطئ بحر، بين المروج والحشائش والأمواج الناعمة التي تقبل على الشاطئ الرملي مداً وجذراً، وهناك بعض فتيات الملائكة يلعبن في مياه البحر، مطلقين ضحكات ناعمة من الفرح والسعادة.وبعضهـن مسـتلق علـى الرمـال المشمسة، وهن يرددن بعض الأغاني الخفيفة.

وبينما كان يفكر بموقع منزله، وأنه لو كان على شاطئ بحيرة. وفي لحظـة بصر يختفي المنظر أمامه. وإذا بهما أمام بحـيرة عظيمـة.. لونهـا الفضـي مـائل للبياض . يتأملان الشمس التي أشرفت على المغيب، وقـد رسمـت علـى الأفـق خطوطاً حمراء مـن وسـط عيـدان القصـب الطويلـة المتماوجـة علـى أطـراف البحيرة. وفي كل مكان كانت حوريات البحر يلعبن ويمرحن في غنج ودلال.

KMH

- هل يحق لي في الجنة منزلاً صيفياً وآخر شتوياً؟

- هذا عائد إلى مقدار حسناتك في الدنيا... هناك أناس كثيرون يملكون القصور والفيلات والعمارات وبأعداد كبيرة، لأنهم نالوا من الثواب والحسنات الشيء الكثير.

كانت الروح الطيب لا تستطيع أن تفكر أول الأمر كونها عملت حسنات كثيرة.

وبينما هو يفكر في منزل شتوي بين الثلوج وإذ به يجد نفسه على سفح جبل. كانت أزهار الثلج تتكسر تحت أقدامهما العارية وهما يسيران فوق الثلج و لم يشعرا بالبرد أبداً... مجموعات... مجموعات من الملائكة يتقاذفن الثلج فيما بينهن. وبعضهن منهمكات في صنع هياكل آدمية منه.

- هل تعرفين كيف يجب أن تكون قطعة الأرض التي سأملكها.؟

- كيف؟

وكما يشرح الشاري للسمسار بدأت الروح تشرح وتوضح ماهية القطع التي يجب أن تملكها ومواصفاتها.

- يجب أن يكون المنزل الذي سأسكن فيه. يملك دائماً ميزات ومواصفات كثيرة مثل أن يكون منظره جميلاً، ومطلاً على البحرة، حديقته واسعة مكشوفة. قريباً من السوق والمواصلات.

أما باقي حدائق منازلي، فأحب أن يكون لي مزرعة كبيرة.

لقد تحدث وبالتفصيل عن كل ما يدور في أعماقه.

قالت الملاك: كل ما تقوله سيتحدد بعد محاكمتك غداً.

بما أن الروح الطيب كان مندهشاً من الحالة التي هو فيها، وهي رؤيته

العادية لكل ما يدور في مخيلته. حيث قال للملاك:

- هل أراك أيضاً كما أراك وأتصورك في مخيلتي؟

قال الملاك: بكل تأكيد، إذا كنت تريدني أن أظهر لك سمراء فيحصل لك وإذا تخيلت شعري أسوداً تراني كما تتخيله، وإذا أردت أن تراني بيضاء أكون لك، إن كنت تريد شعري رملي اللون أكون. تستطيع أن تراني كما تريد بدينة ونحيفة قصيرة وطويلة..

الشيء الذي أعجبه أكثر في الجنة هو هذه الناحية.. نظر إلى حلمتا ثديي الدليلة اللتان تشبهان إلى حد ما طرفي ليمون حامض. أحس بشعور غريب بدأ يدور في أعماقه ومخيلته... وبينما هو يفكر لماذا يجب أن تكون هاتان الحلمتان فقط. يجب أن يكون أكثر من اثنتين. وإذ به يجد الدليلة أمامه وقد تحولت كعنقود عنب كبير وكثيف الحبات. كل جسمها من رأسها إلى أخمص قدمها أصبحت أثداءَ وحلمات، أي أنها أصبحت عنقوداً كبيراً من الأثداء والحلمات. وكم كان منظرها مقرفاً وقبيحاً جداً. عادت الدليلة الملاك ثانية إلى شكلها الطبيعي. في تلك اللحظة انتقل ببصره إلى ما بين فخذيها.. آه نعم هناك.. إن تعريف ذلك الجمال الذي لا يشبع منه قد وقع تحت الاختبار حتى في الجنة..

في الوقت الذي كانت فيه الروح الطيب تفكر في تلك المنطقة. أي بين فخذيها. وإذا بالملاك تتحول إلى شكل /فرج/ أنثوي أي أنها أصبحت على شكل عنقودٍ كبير من الفرج. كل جسمها رأسها عيونها، أنفها، أذنيها، كانت قد أصبحت على شكل فرج. عندما شاهد الروح الطيب هذا المنظر المقرف جداً. فكر وآمن بأن الله يعرف جيداً ما يخلقه. ويعرف لماذا يخلق بعض الأعضاء أزواجاً ولماذا يخلق بعض الأعضاء آحاداً. عادت الدليلة مرة ثانية إلى ملاك جميل.. سارت الروح الطيبة في المقدمة وفكرت بينها وبين

نفسها إذا ما رأته، الملاك على شكل عنقود كبير من عضوه التناسلي لو كان قبل عشرين عاماً، مهما كان الأمر.. والآن أيضاً. هزَّ رأسه عدة مرات وهو يريد إزاحة وطرح الأفكار السيئة من رأسه.

بقي الروح الطيب مع الملاك الدليل في زيارة الجنة حتى الصباح موعد المحاكمة. كان قد شاهد في إحدى اللوحات أين ستتم محاكمته. أمام المحكمة الإلهية الأولى. وفي الوقت المحدد في التاسعة صباحاً ذهب إلى المحكمة. حيث ستعقد جلساتها. كانت الساعة قد أصبحت العاشرة ولم يناد أحد على اسمه ولما انزعج من الفوضى المسيطرة في الجنة كما في الحياة الدنيا... كانت الأرواح الأخرى قد وقفت في الدور أيضاً مشكلة رتلاً كبيراً، نادى البواب على اسمه بصوت خارق. دخل صالون المحكمة وهو واثق من نفسه كل الثقة. منظر من نوع خاص. كانت قبة قاعة المحكمة مشكلة من السحب وجدرانها من ستائر المطر. ومكان رئيس القاعة فارغاً في منتصفه، أما القضاة الآخرون فقد أخذوا أماكنهم بينما جلس النائب العام إلى يمينهم. وفي الجانب الأيمن من الصالون مجموعة من الملائكة المجنحين. وإلى يساره ثلاثة من الشياطين يحملون العصي الغليظة والمدببة في أيديهم. وفي الوسط مجموعة من حراس جهنم. وقد علقت لوحة كبير خلف رئيس القضاة كتب عليها العبارة التالية:

((العدالة هي أمل أمك، وعمل الإنسان، وأساس أبيك)).

إلى الجانب الأيمن من كراسي القضاة امرأة في مقتبل العمر تحمل ميزاناً في يدها. كانت طويلة القامة. شعرها الطويل يغطي صدرها. باهرة الجمال، وقد غطت عيناها بمنديل من الحرير. تعرَّفت عليها الروح الطيب. إنها رمز العدالة في الحياة الدنيا.

اقترب من الروح الطيبة رجل عار تماماً وقال لها. أنا محامي دفاعكم.

قالت الروح الطيبة: وكيف حصل ذلك. لم ألتق معك ولا مرة. ولم نجتمع للتشاور قال المحامي: لا تخافي المحامون يجري تعيينهم من قبل رئيس المحكمة. لقد دققت وبحثت ملفاتك جيداً فاطمئني.

ثم أشار إلى سجلين سميكين عن يمينه وشماله وقال له:

- انظر الآن جيداً، جميع حسناتك في سجل اليمين وسيئاتك في دفتر اليسار.

كانت سماكة دفتر الحسنات لا تتعدى سماكة ثلاثة أو أربعة أصابع، أما سماكة دفتر الذنوب فكان سماكته أكبر بثلاثة أو أربعة أضعاف. وقد وضعا فوق بعضهما البعض. وربما هذه الدفاتر لأناس آخرين. ثم عُرِّف بالروح الطيب بأصله وفصله واسمه واسم أبيه. ولكن عندما ظهر في نهاية اسمه شك بين حرف /إت/ و/إد/ أرسل إلى منطقة قيده للاستفسار عن ذلك.

ظهر من خلف اللوحة التي كتبت عليها العدالة هي: أمل أمك، وعملك وأساس أبيك. صوت قوي هز القلوب وأرجف الجوارح. كلام صوت رئيس القضاة الذي كان غير منظور قائلاً:

- قبل كل شيء افتحوا دفتر حسناته. ولنقرأ كل حسنة واحدة إثر أخرى. ولتوزن كل حسنة لوحدها. ليعرف ما درجة كل حسنة من حسناته. أعطوه من هدايا الجنة حسب حسناته.

تحركت الملائكة التابعة للحسنات بسرعة نحو الدفتر وبدأت بفتحه من جلده السميك إلى كل ورقة فيه. وبدأ محامي الروح الطيبة بقراءة كل حسنة على دفتره وبصوت عال. تعجب الروح الطيبة عندما سمع. بأن أصغر حسنة كانت مسجلة حتى بعض التي لا تحسب حسنات تم تسجيلها حسنات. وعند قراءة كل حسنة كانت ملاك العدالة المغلقة العين.. تأخذ

الأرقام من اللوحة المسجلة خلفها وتضعها على كفة الميزان وتضع في الكفة الثانية مقدار الهدايا التي تستحقه الروح الطيبة عن تلك الحسنة أو غيرها.

كان المحامي يتحدث وفق قراءة ملائكة حسنات دفتر موكله.

- لقد بنى موكلي في بلده سبعة مدن جامعية في سبع مدن مختلفة وتلك حسنة كبيرة، وفي الوقت ذاته يضيف ملاك العدالة الأوزان على كفة الميزان في النهاية قالت ملاك العدالة:

- أربع وعشرون كيلو وثمانية عشر غراماً وأربعة ملغ من الحسنات. كان وزن الحسنات دقيق جداً. بحيث أن العدالة الإلهية تأخذ الأمور بكل جدية. وتعطي كل ذي حق حقه.

- بنى موكلي ستة عشر مدرسة ابتدائية وتسعة مدارس ثانوية... وملاك العدالة يزن..

- سبعة كيلو وأربعمائة وخمسة عشر غراماً واثنان من الميليغرامات. بدت حسنات الروح الطيبة كثيرة وكأنها لا تنتهي.

- أشاد أربعة مستشفيات للفقراء والمحتاجين.

- ثلاثون كيلو وسبعمائة وثلاث عشرة من الغرامات.

- افتتح خمسة مطاعم كبيرة للمحتاجين. ومكتبتين عامتين كبيرتين وثلاثة مراكز للفنون.. ومتحفاً واحداً.

- مائة كيلو غرام..

- خمسة كيلو غرام... عشرة كيلو غرام.. كان الميزان قد توقف من كثرة الحسنات.. واضطروا لوضع أوزان إضافية ثانية كالقبان.

- بدأت حسنات الروح الطيبة توزن بالقبان.

- ثلاثة أطنان وخمسمائة وثلاثون كيلو غراماً وخمسون غراماً وثلاث من الميليغرامات من الحسنات.

- أربعة أطنان ونصف ومئتان كيلو غرام وثمانية من عشرة ميلغرام.

لقد انتهت قراءة الصفحات الكبيرة، فاقترب المحامي من الروح الطيبة وهمس في أذنه قائلاً:

- بهذه الحسنات الكثيرة نستطيع أن تأخذ الجنة كلها.

في تلك اللحظة طالبت النيابة العامة بفتح سجل ذنوبه.

بدأت الملائكة المتخصصة في تسجيل الذنوب. بقراءة ذنوب الروح الطيبة: أما النائب العام فبدأ بالادعاء الشخصي بعد قراءة الذنوب.

- إن الداعي قد عمل من الذنوب الكثيرة بحيث أنه يصعب عليه التخلص منها. وكما عمل في الدنيا فهو مرغم على التنازل عن بعض قطع الأرض من الجنة. نعم لقد عمل من الحسنات في الدنيا الشيء الكثير بنى المشافي والمدارس ودور الفن وإلى ما هنالك. ولكنه في الوقت نفسه له من الذنوب المسجلة في سجله لقتله الكثير من الناس. من نقص التغذية، أو ثقل العمل الموكل إليهم ومن الحوادث الكثيرة التي سببها، ولأسباب أخرى. كل هذه الذنوب تبدو واضحة في سجله. قبل كل شيء قتل الكثير من العمال. وتسبب في موت العديد منهم نتيجة الأمراض التي أصابتهم. ثم إنه بنى تلك المشافي للعمال الذين يعملون لديه. أما بشأن المدن الجامعية التي بناها. فقد استغل العمال والموظفين و لم يترك لهم مجالاً لإرسال أولادهم إلى التعليم و لم يعطهم فرصة للذهاب إلى المدارس. كل هذه الذنوب يجب أن تظهر في دفتره، وتقدم كأدلة وشواهد.

كانت النيابة العامة قد اتهمت الروح الطيب باتهامات كبيرة. فقامت

بشرح جميع الحسنات التي كان يتستر بها وكشف الذنوب الكبيرة التي كان يقوم بها، كجرائم السرقات والنصب والاحتيال. والاستغلال. كل هذه الأعمال أظهرتها في دفتره نقطة نقطة. وكما أن الحسنات كانت مسجلة بدقة. كذلك السيئات كانت مسجلة بكل تفاصيلها ودقتها.

كم من الأشخاص أصبحوا بسببه: سارقين، سفلة، منحطين. وكم فتاة اضطرت بسببه إلى بيع نفسها وشرفها..

كل ذلك كان مسجلاً وبالتفصيل..

ومع أن ملاك العدالة بدأت بوزن ذنوب الروح الطيب. إلا أن الميزان من أول وزنة لم يتحرك.. فوضعوا الذنوب على مقياس القنطار حتى يزنوا ذنوبه.

- إن ذنب تعطيل مائة فتاة، والتسبب في خروجهن عن الطريق القويم مئتا طن وتسعمائة كيلو غرام وأربعمائة غرام واثنان وأربعون وثلاث من عشرة ميليغرام.

- إن التسبب في إصابة العمال بالأمراض كان سببه نقص التغذية. هو طن.. كيلو.. غرام... ميليغرام ميلي ميلغرام من الذنوب.

أصبحت الذنوب كالجبال، وطرحت الحسنات من الذنوب. ومن أجل أن يكون الحساب دقيقاً. استخدمت في العملية الحسابية آلة الكترونية حساسة. إضافة إلى الحساب الذهني وبالأيدي ودوى صوت رئيس القضاة مزلزلاً قائلاً: بسبب ذنوبه الكبيرة فقط يهبط إلى جهنم خالداً وليس إلى جهنم فقط بل إلى أسفل السافلين فيها.

جاء الزبانية وقالوا له:

- هيا احمل ذنوبك وتعالى معنا.

عندما حمل الروح الطيب ذنوبه.. أصبح من ثقل الذنوب مستوياً مع

الأرض في حالة لا يشبه الإنسان.. قيده الزبانية الشياطين وساقوه أمامهم إلى جهنم لينال القصاص العادل.

وكما تعرفون أيها القراء الأعزاء. إن أكثر الحكايات تروى لتنويم الكبار والصغار. ولهذا السبب. فإن ما يحصل في الكثير من دول العالم. وخاصة لدى رجال الدولة والحكومة. والسياسة. والشخصيات البارزة. هو أنهم ينومون الشعب بهذه الحكايات وغيرها.

ما سردته لكم ليست إلا حكاية من تلك الحكايات التي تنوم الشعوب والأولاد. وبما أنني لا أعرف عن وجود حياة آخرة، أو أن أحداً رآها. وأنكم تعتقدون بوجود حياة الآخرة. فإن احترامي كبير جداً لمن يعتقدون أو لا يعتقدون بذلك. وحتى لو لم أملك اليقين والاعتقاد.. فيكفي يقينكم واعتقادكم، ولكن أريد منكم أن تعرفوا شيئاً واحداً.. ليس هناك فرقاً بين حياة الدنيا والآخرة. من يملك أجمل وأكبر العقارات والأراضي والقصور في هذه الدنيا. سيمتلكها في الآخرة أيضاً. لأن فعل الخير منوط بهم على الأرض.

أما المساكين والفقراء والمحتاجين، فكيف سيفعلون الخير في هذه الدنيا حتى ينالوا شيئاً من نعيم الآخرة، المستعمرون لم يتركوا حتى فعل الخير للفقراء. الأغنياء والمستعمرون وحدهم الأحق والأقدر على فعل الخير والشر على السواء. الحكاية تنتهي هنا.

((لا لي.. ولا لك. ولا لحسن. ثلاث تفاحات سقطن من السماء: لسن لي، ولسن لك، ولسن لحسن)).

- ٦ -

إنساننا الذي هناك

يختلف الناس بين منطقة وأخرى، فهم لا يشبهون بعضهم أبداً.. الناس هناك يختلفون عن غيرهم وهم لايشبهون أمثالهم في تلك المنطقة.. لم أكن أعرف الشيء الذي لاحظته ولمسته عن كثب عند خروجي من قريتي حتى وصولي إلى استنبول، تساءلت: أليس الناس أنفسهم في جميع أنحاء العالم يشبهون بعضهم. كنت أحسب أن سكان قريتنا مثل سائر الناس في كل مكان متشابهون. ولكن عندما أنهيت الثانوية وسافرت إلى استنبول لأدرس في جامعتها. أصبح لدي اليقين الكامل بأن سكان قريتنا يختلفون عن غيرهم أنا لا أعرف أبي.. وأمي ماتت قبل أن تلدني. لم يكن موتها طبيعياً. فالموت الطبيعي في تلك الأيام كان نادراً جداً في منطقتنا. فغالبيتهم يقتلون بعضهم بعضاً.

كنا نملك في قريتنا حقلاً مجاوراً لمزرعة البندق، نزرعه بالذرة، كان والدي قد أصلح الحقل بعد قطع أشجاره. وقام برسم حدوده بوضع عدة أحجار بيضاء بينه وبين حقل جارنا، وبذلك تبقى الحدود بين الحقلين معروفةً وغير قابلة للتبديل أبداً.

كان الصيف أشبه بسباق بين والدي وجارنا صاحب الحقل المتاخم. كل واحد منهم يحاول الحضور للحقل باكراً جداً قبل الآخر، حتى يزيح الأحجار البيضاء إلى الطرف الثاني عدة أمتار ليربح قطعة صغيرة على حساب جاره. كان والدي رحمه الله وكما يعرفون عنه، إنساناً عملياً ونشيطاً. فقد استيقظ في أحد الأيام باكراً قبل شروق الشمس بوقت طويل. وقبل صدور أصوات

الحيوانات، كالطيور والوحوش، واتجه مسرحاً نحو الحقل وبدأ يدفع الأحجار البيضاء نحو حقل جارنا بخطوة ونصف بحيث لا يشعر جارنا بتبديل الحدود.

ولكن جارنا هو من النوع الكسول وقليل النشاط، لا يستيقظ إلا متأخراً. عندها بدأت أرض جارنا تتقلص يوماً بعد يوم حتى وصل الأمر إلى خمسة أو ستة أمتار. عندها بدأ جارنا بالاستيقاظ باكراً وبدأ بإعادة الأحجار الحدودية إلى مكانها شبرًا شبراً كما فعل والدي قبل ذلك. وكانت والدتي تساعد والدي بتحريك الأحجار البيضاء من مكان إلى آخر وهي في ثياب النوم، حاملة الفانوس الذي يستعمله الصيادون في البحر. أي أنها كانت تشارك زوجها في سرقة الأراضي.

استمر هذا الوضع لسنوات طويلة.. مرة يتسع حقلنا على حساب الحقل الآخر، وتارة يتسع حقل الجيران على حساب حقلنا. وبما أن الجارين متخاصمين من عهد أجدادنا الأوائل، فإنهما لم يتعظا بالجفاء والقطيعة القديمة. عدد السكان في منطقتنا كبير والأراضي قليلة ومهما تكن الأراضي قليلة.. لماذا ينقلون الأحجار دائماً ويبدلون الحدود. هل هم مجانين حتى يفعلوا ذلك. عندما بلغت سن الرشد سألت والدتي. ((وقلت لها: لابد وأنه سيأتي يوم يموت فيه أحدهما.. والشيء المحير أن أحدهما كان ينتظر موت الآخر بفارغ الصبر. وعندها سيكون الحدث عيداً للآخر يستطيع بعدها رسم حدوده ووضع أحجاره كما يريد رابحاً بضعة أمتار من الأرض. وطبقاً لما روته أمي فإن أكثر من نصف حقل الجيران كان ملكاً لنا. لكن والد جارنا مثل أبي، كان يستيقظ باكراً ويبدأ بتحريك الأحجار نحو حقلنا.. واستمر هذا الأمر طويلاً حتى تم الاستيلاء على أكثر من نصف حقلنا وضمه إلى حقله. مقابل ذلك كله كان جدي قد استيقظ في أحد الأيام باكراً. وذهب إلى الحقل وإذا بجاره يحمل حجراً كبيراً من أحجار حدوده، تناول جدي

البندقية وأطلق النار عليه فأرداه قتيلاً. وبما أن جدي قتل جده. فلا بدَّ من الأخذ بالثأر، فالرجل سيقتل أبي عاجلاً أم آجلاً، وهذا أمر مفروغ منه. لكن جارنا أصيب بالمرض فجأة. لخوفه من الموت.. وتفكيره بأن أبي سيأخذ من حقله كيفما شاء بعد موته. وفي صباح أحد الأيام، تحرك الرجل المريض من فراشه وهو في حالة شديدة من الإعياء والحرارة الشديدة، ومتحاملاً على نفسه حتى وصل الحقل.. وعندما وجد أبي يحمل حجراً كبيراً رماه بعيار ناري فأراده قتيلاً. وظل قاتل والدي حياً حتى مات بشكل طبيعي، ولكنهم ما لبثوا أن قتلوا قاتل والدي بعيار ناري أيضاً. وكان لجارنا ثلاثة أولاد قتل اثنان منهما وظل الثالث حياً.

ومن الواجب عليَّ أن أقتله دون تردد. تلك هي العادات وحتى يعرف الجميع أيضاً أني القاتل.. إن قتله لامفرَّ منه وواجب مقدس، ولكن يجب الانتظار حتى يكبر الولد بعض الشيء. كانت أمي امرأة عاقلة.. لم تدعني أقتل ذلك الولد، بل كانت تقول لي: ((انظر يا ولدي.. إن نقل الأحجار من هنا إلى هناك نوع من الجنون، لقد ذهب الماضي منذ زمن بعيد يا بني.. أنت لن تنقل الأحجار البيضاء إلى الحقل المجاور. وستنقل بدلاً من الأحجار البيضاء.. الكتب المجلدة بالأسود.

كانت أمي تريد مني إعادة حقلنا عن طريق القانون وليس بالقوة كما كانوا يفعلون سابقاً. ولهذا السبب وحده كانت تريد مني أن أتعلم وأصبح محامياً كبيراً. أقنعتني أمي بأن المحاماة وبقوة القانون يستطيع أن يتملك ليس حقلاً فقط وإنما داراً كبيراً وقصراً وخاناً ودكاناً من يد صاحبه وهو ينظر إليه أي يستطيع أن يتلاعب بالقانون كما يريد. كانت أمي ترى أن زمن المسدس والبندقية والخنجر والسكين قد ولى منذ زمن بعيد. الزمن الآن هو زمن الكتب المغلفة باللون الأسود. لقد أخذ القانون مكان البندقية والمسدس

والسكين. يكفي أن تدرس تلك الكتب جيداً وتحفظها عن ظهر قلبك. كنت أقول في نفسي: لو حفظت تلك الكتب القانونية جيداً. سنصبح مالكين ليس حقل جارنا فقط وإنما أملاك القرية كلها. لأن الحكومة أيضاً طرفاً في هذه الكتب القانونية السوداء.

كانت أمي تريد أن تجعل مني رجل قانون.. وكانت في طلبها هذا متطرفة ومدمنة جداً. بحيث كانت تطعمني ولا تأكل.. تسقيني ولا تشرب.. تكسيني ولا تلبس. كانت تعمل وحيدة، ترعى الأبقار وتجني البندق وتحرث الأرض. أي أنها لا تطلب مني شيئاً سوى أن أدرس. وكانت تقول على الدوام: /أنت اقرأ.. عليك بالقراءة فقط/ اقرأ وتعلم جيداً الكتب السوداء حتى لا يظل دم أبيك على الأرض. ولكثرة ما سمعت هذه الكلمات من أمي. صار عندي اليقين الكامل بأن كل من يحفظ كتب القانون سيستطيع أن يفعل كل شيء ويحصل على كل شيء، أنهيت دراستي الثانوية. وكان علي السفر إلى استنبول وإلى جامعتها بالذات لأدرس فيها الحقوق. بذلت والدتي جهداً شخصياً وأنهت كل أوراقي مع أنها لم تكن تخرج من البيت إلا نادراً جداً مرتين أو ثلاث مرات ذهبت فيها إلى محافظتنا أو قريتنا. ذهبت إلى استنبول وفتحت لي طريق الحياة فيها على أكمل وجه. جّهزت مكان إقامتي ودراستي والأماكن التي سأذهب إليها. أي أنها جهزت كل شيء في استنبول.. لأعيش وأدرس هناك دون مشاكل أو ملل.

وأخيراً اتضح لي طريق استنبول.. يجب أن أذهب. وأمي تنصحني دائماً قائلة: ((هيا يا بني اذهب.. اذهب وتعلم القانون هناك)) يجب أن أذهب اليوم قبل الغد لأكون محامياً في المستقبل. وأعيد أراضينا من الجيران.. أنا أعرف ذلك.. ولكن ثمة شيطان في أعماقي يدعوني بعدم الذهاب إلى استنبول. وإذا سألتني لماذا.. لأن هناك مباراة قوية لفريق قريتنا.. وأمي ترى في تأخري كل

يوم حتى وكل ساعة ضرراً يلحق بنا.

أصبح لدي الآن اليقين الكامل بأن حقل جارنا سيكون لنا.. أما أن نستملك جميع أراضي القرية.. فهذا لم أقتنع به أبداً. وفي كل مرة عندما أقول ذلك لأمي.. كانت تنفجر غضباً.. القوانين الموجودة في الكتب السوداء هي بالنسبة لأمي عبارة عن كتب دعاء.. وسحر. طلسم أو أشياء من هذا القبيل. وكما أن هذه الكتب السحرية تغرِّق بين الأزواج وتقضي على ذكورة الرجال وتصيب العدو بالأمراض الفتاكة. هكذا... إذا حفظتُ عن ظهر القلب الأماكن الموجودة في الكتب السوداء والتي تقضي بإعادة الحقول.. كانت حقول القرية كلها ستكون لنا. وستصبح لنا..

كانت أمي تدفعني بالذهاب إلى استنبول... قبل يوم.. حتى قبل ساعة وهي تقول ((هيا أيها الشاب لا تزحف برجليك، إن تأخير كل ساعة هي ضرر بالغ علينا)).

سأنتظر لغاية يوم الأحد وتنطلق مباراة القرية. وبعدها لن أبق ساعة واحدة في القرية!

كان في القرية بعض الشباب من أمثالي يرغبون بالذهاب معي ليكملوا تحصيلهم في استنبول وسنذهب جميعا بعد المباراة. ومهما يحصل فنحن عشرة من المجانين.. وسنظل كذلك حتى المباراة.. حيث سنهتف ونصرخ ونفرح... آه إن مباراة قريتنا لا تشبه مباراة أية منطقة على الإطلاق. في كل مباراة في قريتنا، يجب أن يوضع شرطي إلى جانب كل متفرج ولاعب وإلا تقوم القيامة. هل يترك الفريق ويذهب إلى استنبول؟ هذا غير وارد مطلقاً. لم أستطع البوح، بهذا الشيء لأمي. ولكني كنت أفتش عن حجج واهية لأتأخر في الذهاب إلى وقت المباراة.

البلـدة كلهـا.. مـن شـيبها إلى شـبابها إلى موظفيهـا وحرفييهـا، كبيرهـا وصغيرها، كانت تجهز نفسها لهذه المباراة. وكذلك القرى والبلدان المجاورة.

بدأنـا بالاسـتعداد لمواجهـة أي مشـكلة /وبالتـأكيد سـتظهر/.. جهزنـا زجاجـات الكـازوز والأحجـار والمقـلاع. ولكـن الأشـياء الأخـرى الحـادة كالسـكاكين والخنـاجر، فقـد أعطيناهـا قبـل شـهر لشـخص يدعـى /كـور خورشيد/ /خورشيد الأعمى/. ليقـوم بصقلهـا وتركيـب أنصالها وتحضيرهـا على أكمل وجه.

بعضنا كان يحمل المسننات، والبعض الآخر عصب الفيل إضافة إلى عصـي المطارق والجواكيش التي توضع داخل سترات الألبسة، أصبحت البلـدة خاليـة من سكانها يوم المباراة، وهذا واضح جداً للعيان.

فقد انتقل الجميع من بلدتنا إلى البلدة التي ستقام المباراة فيها، بالسـيارات، والشاحنات، والعربات، والباصات، وانطلقت الهتافات لتصل عنـان السـماء. وبما أن شرطة تلك البلدة لم تعد تكفي لضبط الأمن.. فقد جاءت نجـدة مـن الشرطة والجندرمة من القرى والبلدات المجـاورة. حتـى شـرطة بلدتنـا كـانت حاضرة، وكانوا يصرخون علينا مقدمين الدعم والثقة /أي الشرطة/.. /تحملوا أيها الشباب نحن من ورائكم لا تخافوا/ المهم يا سيدي.. أكلنا ثلاثة أهداف، وجرح أربعة عشر منا جرحاً خفيفـاً وإحـدى وعشـرين مصابـاً تمَّ نقلهـم إلى المشفى وثلاثون شخصاً عولجوا فوراً، وضاع الكثيرون. وهـرب المئـات طلبـاً للنجاة والإفلات من الشرطة. يعني أننا أصبنـا بخسـارة كبيرة أمـا أنـا لحسـن حظي.. لم أخسر سوى حذائي الذي خرج من قدمي وأنا أحاول الهرب مـن المعمعة. وفقدت عصب الفيل الذي كنت أضعه داخل سير بنطالي. وأظن أنـه سقط مني أثناء الهرب. أمـا الفريـق المقـابل. فـلا نعـرف عـدد الأهـداف الـتي أكلها. الحكم يقول أدخلنا عليهم هدفـين، أمـا تقديراتنـا نحـن فقـد هزمنـاهم

بأكثر من خمسة أهداف. لكنهم يدعون أنهم خسروا هدفاً واحداً. أما أكثرية المتفرجين. فكانوا يقولون أنهم كسبوا أكثر من ثلاثة أهداف.

خلعنا من رؤوسنا مباراة المصيبة، وحضرنا إلى استنبول.

في تلك الأيام.. خصصت الدولة لشباب منطقتنا ثلاث مدن جامعية صغيرة. حصلت على مقعد لي في إحداها. فقد بنيت هذه المدينة لتتسع لمائة وعشرين طالباً. ولكننا كنا أكثر من ثلاثمائة طالب مستقرين فيها. وكي لا يكون كذباً مني.. لست أدري في أي يوم كنا في الثالث أو الرابع بعد وصولنا إلى استنبول. الوقت مساء. سمعنا أحدهم يصيح بأعلى صوته في الممشى. أسرعوا يا شباب.. هيا... مدوا من خطواتكم.. إنهم يقتلون علياً. واحد من الثلاثة الذين استقروا في المدينة الجامعية اسمه علي.

من هو علي هذا ليقتلوه. وكان كل من يسمع هذا النداء. يسرع بالخروج من الغرفة ويطير كالبرق نحو مصدر الصوت وإلى الشارع.. من هو علي هذا؟ ومن يقتله؟. ولماذا؟ لم أعرف شيئاً، ولكني كالآخرين، أسرعت بالخروج من الغرفة لا لشيء، بل أسوة برفاقي الذين قذفوا بأنفسهم إلى الشارع، بعضهم بالثياب الداخلية وبعضهم دون نعال وحذاء.. ركضت معهم إلى الشارع.. أما بالنسبة لي ومع أنني لبست الحذاء! فلم يكن لدي الوقت الكافي لأرتدي القميص والسترة. ولم أكن ارتدي سوى اللباس الداخلي الشفاف من الفانيلا.

بعد أن ركضت يميناً وشمالاً لبعض الوقت وجدنا علياً وثلاثة من الأشخاص الذين يضربونه. فرَّ اثنان منهما ونجيا بنفسيهما. أما الثالث فقد وقع بين أيدينا.. وانهال عليه /أولاد البلد/ من كل الجهات بالضرب واللكم قائلين بتأكل /ولا ما بتاكل/ اضرب.. اضرب.. كان عددنا كبيراً بحيث لم يبقى للشاطر ضربة. أما الولد فقد سقط على الأرض وبدأ يزحف عليها

والدم يسيل من أنفه وفمه... كان الموجودون في المؤخرة يطلبون من عناصر المقدمة منهم فرصة الضرب والقتل.. ((خذ يسارك بعض الشيء أرجوك)) من هذا القبيل.

أما أنا فبقيت واقفاً مستنداً إلى عمود الكهرباء كعمود صغير لأنني لم أعرف شيئاً عما يجري وفجأة حضر الولد زاحفاً نحوي. ورمى بنفسه على قدمي.. هل جُن الولد يا ترى. ربما شاهدني واقفاً لا أضربه فمد يديه متعلقاً بثيابي يطلب مساعدة مني لأخلصه من يد المجموعة. وبما أنني لم أكن أود مساعدته.. وأريد التخلص منه. دفعته بقوة وإذا بثوبي الداخلي تتمزق نصفين. ويظل النصف الثاني في يد الولد. عندها أصبح قسمي العلوي عارياً.. شعرت أنهم ينتظرون هذا التصرف مني، فما كان منهم إلا أن أحاطوا بي وحملوني على أكتافهم. وأصبحت بفضل ثيابي الممزقة بطلاً عظيماً وبدأوا بالدوران، و هم يحملونني على أكتافهم. ويهتفون لقوتي وعصبيتي ومغامراتي... الله... الله.. حملوني إلى المدينة الجامعية الثانية مسافة خمسين إلى ستين خطوة.

بعد هذه الحادثة، ذاع صيتي وشهرتي في المدينة الجامعية. وأنا أعترف لهم بأن الولد هو من شق (قميصي) عندما دفعته.. بعد هذه الحادثة أصبحت مرجعاً للمشاكل في الطابق الذي أسكنه. أقوم بحلها والجميع يأخذون رأيي عند الوقوع في أزمة.

بعد الحادثة بأسبوعين تقريباً. وفي إحدى الليالي بينما كنا نائمين. وإذا بهم يوقظونني ويقولون إنك مطلوب على الهاتف. أسرعت إلى الهاتف ورفعت السماعة وعرفت من كان يطلبني ومكان وجوده، وبادرني بلهفة قائلاً: هيا خذ شباب المدينة وتعالوا إليَّ حالاً إنهم يقتلون ((جابوفالي مرسل)).

لقد وقعت في حماقة كبيرة واعتقدت أنها من تأثير النوم.. عندما أجبته.

- ومن هو /جايوفالي مرسل/ هذا؟

وبما أنني لم أعرف جايوفالي مرسل هذا.. فقد شتمني ونهرني بقوة وأغلق السماعة في وجهي.

عرفت من الصوت واللهجة أن صاحبه /ابن بلد/، أي واحد من منطقتنا.. نظرت إلى الساعة فهي تقارب الثالثة صباحاً.. والفجر على وشك أن يطلع.. صرخت بأعلى صوتي. هيا استيقظوا أيها الأخوة.. إنهم يقتلون /جايوفالي مرسل/ هيا لا تتوقفوا.. أسرعوا.

وإذا بالشباب يتطايرون.. نحو الهدف. وعندما وصلنا إلى المكان المحدد وجدنا الطلاب أبناء بلدنا أو منطقتنا من المدينتين الجامعيتين. قد وصلوا إلى هناك قبلنا. كان ذلك المحل /باراً/ وفي أعلاه فندقاً، ولأول مرة في حياتي أشاهد ذلك المكان المسمى بالبار.

لم نترك في ذلك المكان أحداً إلا وقتلناه وضربناه حتى صاحب البار والعمال والزبائن، وكل من كان موجوداً ثم دخلنا الصالون وصعدنا المسرح ودخلنا المطبخ.. لم نترك شيئاً إلا وكسرناه وحطمناه.

حتى الفنانات والراقصات نزلنا بهن ضرباً وقتلاً وفتكاً. ثم صعدنا إلى الفندق لم نترك أحداً من الزبائن إلا وطرحناه أرضاً. وقذفنا بالسرائر والمقاعد والكراسي والطاولات من النوافذ إلى الشارع. كنا قد أنهينا مهمتنا قبل مجيء البوليس. وقال رئيسنا الذي جمعنا: هيا لنرجع إلى المدينة أيها الأخوة.

كانت استنبول آنذاك، استنبول حافلات الترام. وفي تلك الساعة لا يوجد باص ولا مواصلات ولا حافلات ترام أي لا يوجد أية واسطة نقل. والطريق بعيدة تقدر بحوالي عشرة كيلو مترات، ولا نملك من المال لنستقل سيارة

أجرة. وبدأنا السير مشياً على الأقدام بمجموعات.. كل مجموعة من عشرة إلى عشرين شخصاً خلف بعضنا البعض.. وكل مجموعة تتحدث وتتناقش في نفس الموضوع ونفس الحركات. /هل كان جايوفالي مرسل على حق/؟ أم عليه الحق؟ كل ذلك كان يُناقش بالتفصيل. وبأصوات عالية بحيث كان كل من يسمعنا، يفتح بابه أو نافذته ليرى مصدر هذه الضوضاء. ويتساءل: وما الذي يحصل في مثل هذا الوقت في استنبول؟

ومع أنني لم أكن أريد الدخول في المناقشات فقد قلت للأصدقاء الموجودين في مجموعتي.

- إن كان على حق أو غير حق... فنحن فعلنا الشيء الذي يجب أن نفعله. لقد جعلنا الجو مسطحاً. لم نترك شيئاً إلا وحطمناه. ولم نترك إنساناً إلا وطرحناه أرضاً من القتل. فما الداعي للنقاش والمجادلة. هل كان مرسل على حق أو غير حق.

قالوا: نحن نتجادل كي نعرف الخطأ من الصواب ليس إلا.

استمرت هذه المناقشات ساعات طويلة وعلى طول الطريق. وعند وصولنا إلى المدينة الجامعية كانت المجموعات قد وصلت إلى قرار وبشكل جماعي. أن مرسل لم يكن على حق. إن إنساننا الذي هناك لا يشبه الناس الآخرين هل تعرفون لماذا؟... لأننا نفرق بين الحق والباطل. ولا نهضم لصاحب حق حقه. ولا نعطي الحق لابن بلدنا لكونه صديقنا. لقد عشنا في تلك المدن الجامعية الثلاث، وضربنا رقماً في التعاون البلدي: أنهيت كلية الحقوق بعد أربع سنوات. وعدت إلى بلدي لأعمل في إحدى المكاتب، وأحصل على شهادة المحاماة الحقيقية ولأفرق بين صاحب الحق والباطل..

آه: إنه إنساننا هناك.

- ٧ -

آه يا ضناي آه

كنت سأبدأ كلامي بهذه العبارة (لقد كنت في تلك الأيام مرافقاً كالموس الصغير) ولكني تراجعت عن هذه الفكرة. لأنني كنت مرافقاً ليس كالموس بل في أسوأ الأحوال كقلم حبر. ربما هذا التشبيه أفضل ما يمكن أن أقوله.

عندما كنت مرافقاً كقلم. أليس من الطبيعي أن يكون لي أصدقاء من الفتيات. جميعهن من عائلات ساقطات، لم تكن بينهن واحدة من عائلة شريفة ذات حسب ونسب. وربما لم يرضعن نقطة حليب واحدة بالحلال مساكين بنات العائلات المحترمة لأنني لم أقم علاقة مع أية واحدة من بناتهن. عيب علي أن أقولها صراحة. في تلك السنوات، لم ينتقل أولئك الفتيات الصديقات إلى بيت الدعارة. وجميعهن يجدن لأنفسهن ماضياً نظيفاً جميلاً وحياة كلها شرف وكبرياء. ومن كثرة ما يتحدثن بهذا الأمر مع كل شخص يجتمعن به، مع إضافات جديدة.

مثلاً... كانت هناك فتاة تدعى /برسان/. آه يا ضناي آه. تعرفت عليها وهي في السابعة عشر من عمرها.. بعد ذلك بدلت اسمها وأصبحت تدعى /ندرة/ تعاقدت للعمل مع محل عام في شارع /آبانوز/ ثم أصبحت مدمنة على تعاطي المخدرات. أظن أنها ماتت منذ وقت طويل!! آه يا ضناي آه. كانت /برسان/ كما ادعت وأقنعت نفسها بأنها ابنة لمدرس كبير.

هناك أيضاً /صباحات الثامنة والثمانون/. لأن حاجبيها كانا على شكل /٨٨/ من لغتنا القديمة /العثمانية/. ولذلك كانت تسمى /صباحات ٨٨/. لم ألتق في حياتي كلها بفتاة تجيد رقصة /الجفتاتللي/ (رقصة تركية مشهورة

على أنغام البزق).

آه يا ضناي آه... تدَّعي بأنها ابنة ضابط كبير. وكم تصدق نفسها وهي تقص ذلك... وتبكي من شدة الانفعال. آه يا ضناي آه.

هناك أيضاً صباحات ثانية، نلقبها /صباحات الرجل/ وهي الأخرى كانت تكذب على نفسها وتدعي بأنها أقامت أول علاقة جنس مع والدها. كانت بالحقيقة فتاة قوية كالرجال.. لا أستطيع أن أنسى ما كانت تردده على مسامعي.

/وسميحة الأرز جنلي/ آه يا ضناي آه... كانت المسكينة مسلولة.

/وبريهان الأرناؤوطية/ لم أر مثلها تهب نفسها للحب حتى الموت.

آه يا ضناي آه.

ومهما كان الأمر.. أنا لا أريد أن أعرض أمامكم بضاعتي. أنما أردت أن أقص عليكم باختصار حكاية فتاة من اولئك الفتيات. الحادثة لم تحدث في شبابي، بل في كهولتي.

كانت ليلة حالكة السواد بالنسبة لنفسيتي المريضة. لا أستطيع أن أذكر السبب لأنها تخصني شخصياً. كانت الوحدة قد غرست سهامها في صدري كخنجر مسموم، و لم أستطيع نزع هذا الخنجر غير المرئي وأنا قابض بيدي على نصابه الفضي. كم أحسست عندها أني بحاجة إلى فتاة تحكي لي ماضيها كما في أيام شبابي. اندفعت إلى الشارع في ساعة متأخرة من تلك الليلة. ويعرف جميع سكان استنبول أن أرصفة الشارع الواصل بين حي /التقسيم/ وحي /نيشان طاشي/ يمتلىء بهذا النوع من النساء اللواتي يتبخترن زرافات ووحدانا. وأقول صراحة اليوم، بأنه كانت لدي نوايا جادة في البحث عن فتاة تسرد لي ماضيها.. وليس شيئاً آخر.

لم أجد صعوبة في البحث عن تلك الفتاة، وكما قال السيد رئيس الوزراء

KMH

شخصياً بأننا والحمد لله نجد في بلدنا كل مانطلبه ونرغبه. لا تقنين لأي مادة من المواد كما في الأيام الماضية والشكر لله.

جئتُ بالفتاة إلى البيت، وسارت الأمور كما خططت لها. وبما أني أشفقت على هذا النوع من الفتيات. وأقول لهن. آه يا ضناي آه.. وعندما أقول لها آه يا ضناي آه... تغضب وتُعصِّب.

– ماذا في كلامي حتى تغضبين هكذا؟

– لو تعرفون ما حصل معي.. لعرفتم سبب غضبي.. هذه الكلمة تذكرني بحياتي الماضية.

قصت عليَّ ماضي حياتها.... أنقله بدوري لكم حرفياً:

ركبت الفتاة الشابة باصاً للنقل الداخلي من ساحة /اوسكيدار المينار/ متجهة إلى /بفلر باشي/. وبما أنها كانت أول من ركب الباص فقد جلست إلى جانب السائق. وكان الجو حاراً ولباسها شفافاً.. مخايلاً يرتفع فوق ركبتها، وجهها وخداها متوردان. وكان السائق كلباً على شكل صورة إنسان كسر قيوده وتوجه إلى استنبول... وقد علقت أمام السائق لوحة ألصقت على الزجاج كتب عليها /كل ما يقوله ا لله يصير/.

نظر السائق إلى ركبة الفتاة التي لم تستطع أن تسترها. وبحركة وكأنه يمسك ذراع السرعة أمسك ساق الفتاة. وكلمح البصر انتقلت يده إلى مفتاح التشغيل.. وأداره بسرعة وضغط على البنزين.

سألت الفتاة: أليست هذه السيارة سيارة نقل عام؟

قال: نعم إنها سيارة نقل عام.. وبما أنه لا يوجد ركاب، فيمكن أن نأخذهم من الطريق.

من المستحيل على سيارة أن تقف وتأخذ الركاب وهي تسير بهذه السرعة. وكادة الفتاة تسقط على السائق في كل منعطف، ولكي لا تترك

مجالاً له، كانت تمسك باللوحة المكتوبة /كل ما يقوله الله يصير/. عندما وصلوا إلى /بفلر باشي/ زاد السائق من سرعة السيارة.. فخرجت عن الطريق ودخلت وسط العليق والأحراش حيث غابت عن الطريق ولن يستطيع أحد رؤيتها.

كانت الفتاة تصرخ: إلى أين؟

- إلى هنا يا ضناي.

ضغط على زر الباب، واندفع فوق الفتاة يريد اغتصابها، حاولت الفتاة التخلص بالمصارعة والدفع والشد. وعندما شعرت بعدم قدرتها على إبعاده عنها بدأت تترجاه وتتوسل إليه وتبكي قائلة:

- لا تفعل.. با لله عليك.. أنا فتاة عذراء.

قال السائق: آه يا ضناي آه... هل نحن قليلوا الوجدان إلى هذا الحد. لا تهتمي بالأمر ولا تخافي.. لن أصيب عذريتك بأي ضرر أبداً.

بكت الفتاة وبدأت تضرب نفسها.. قاومت بشدة ولكنها تعبت عن المقاومة وفقدت قوتها.

حمل السائق الفتاة وهي بنصف غيبوبة ووضعها على الأرض.

وإذا برجلين يركضان نحو مكان الحادث.. ربما سمعا بكاء الفتاة، أو أنهما كانا يراقبان الموقف عن بعد. ابتعدت السيارة بسرعة قبل وصولهما. اقترب الرجلان من الفتاة التي كانت تبكي.. ومن طيبة قلبيهما وشفقة عليها قالا لها: آه يا ضناي آه.

عندما أحست الفتاة بشفقة الرجلين طلبت منهما سيارة، كان لباسها ممزقاً وتالفاً من جراء الدفع والشد والمصارعة مع السائق.. وجسدها مكشوف حتى ظهرها.

حمل أحد الرجلين الفتاة وأسند ظهرها إلى جذع شجرة وجلس إلى

جانبها.

قال الجالس إلى اليسار: آه يا ضناي آه.

والفتاة ما زالت تبكي. قال الجالس إلى يمينها: لا تبك أرجوك: إن قلبي يتحرق.. الحمد لله.. لقد تخلصت لا تهتمي بالأمر.. آه يا ضناي آه.

كان الرجلان قد تألما كثيراً لحالة هذه الفتاة المسكينة. وكأنما يشتمان السائق على قلبه القاسي وعمله اللاإنساني.. ويقومان بمسح وتمسيد جسد الفتاة من اليمين إلى الشمال دون توقف. في البداية كان يمسِّدان شعرها ثم نزلا إلى كتفها. وظهرها.. ويمسحان عينيها الدامعتين وإذا بأيديهما تنزل رويداً رويداً إلى أسفل ظهرها وهما يقبلان خديها.

تحرك الرجل الأول ووقف بعيداً عنها عدة خطوات، أما الرجل فقد ظل يمسح دموعها وجسدها ويقبلها بين الفينة والأخرى و يقول لها /آه يا ضناي آه/.. عندما فهمت الفتاة نية مخلصها بدأت تترجاه... قال لها الرجل:

- أنا لا أريد أن أغتصابك كالسائق الواطي. كل شيء بملء إرادة كل واحد منا. ولكن إذا لم تقبليني فسيكون لي حساب آخر معكِ.

مهما حاولت الفتاة في منع الرجل من اغتصابها فلم تستطع.. وظل الرجل يردد آه يا ضناي آه.. ثم عاد الرجل الواقف على بعد خطوات نحو الفتاة وركع على ركبتيه أمامها. وبدأ يردد آه يا ضناي آه..

في تلك اللحظة سمعا أصوات أقدام تقترب منهما بسرعة.. عندها بدأت الفتاة تبكي بصوت عالٍ بعد أن صار لديها بصيص من الأمل. كان بعضهم يقترب من المكان.. هرًب الرجلان كانت أقدامهما تلامس ظهرهما من سرعة الهرب.

وصل إلى المكان خمسة رجال.. صرخ أحدهم.. يا قليلي الناموس

والوجدان يا أعداء العرض. واي أيها السفلة... وركض خلف الرجلين الهاربين وهو يصرخ ويشتم... ولكنه عاد بعد برهة، بعد أن فقد الأمل باللحاق بهما. تجمع الرجال حول الفتاة النصف العارية الباكية. كانوا واقفين على أرجلهم، وكل واحد منهم يبتلع لعابه بين الفينة والأخرى وهو ينظر إليها. وبين وقت وآخر كان تخرج من أحدهم عبارة آه يا ضناي آه.. ومن شدة تأثرهم وإشفاقهم على الفتاة... قال أحدهم: إيها الأصدقاء حرام أن تبق هذه الفتاة هنا ملقاة (مرمية) على الأرض..يجب أن ننقلها إلى أحد المنازل.

وقال آخر: ما رأيكم لو نأخذها إلى ورشتنا...؟.

فرحت الفتاة بعد أن أصبح لديها أمل بالخلاص، أمسكوا يديها وحملوها عن الأرض، لأنها لم تكن تملك القدرة على السير. كان الرجل الذي حمل الفتاة طويلاً وعريضاً أشبه بالعريس الذي يحمل عروسه ويدخلها إلى مخدعهما. في ليلة الدخلة. وسار الأربعة خلفهما وهم يخرجان أصوات بلع اللعاب من أفواههم ويقولون /آه يا ضناي آه/ بدأت أصواتهم تتحول إلى أصوات كورس المغنين، والمنشدين الأناشيد الدينية. كان هذا المنظر يشبه إلى حدٍ ما حفلة كبيرة عظيمة. استمرت هذه المسيرة الاحتفالية مدة من الزمن. ووصلوا إلى أول البلد، وأدخلوا الفتاة بناية كبيرة، نصفها مسقوف وبدون جدران. هؤلاء المخلصون الخمسة هم عمال في هذه الورشة. كان في البناية غرفة واحدة يتيمة لها نوافذ وزجاج وباب. ينام العمال فيها، ولكل واحد منهم فراش أرضي من الإسفنج.. وضع الرجل الفتاة على الفرشات. كانت الفتاة تبكي. بلا دموع لأن الدمع جف في ما فيها. بدأ الرجل الطويل العريض بتقبيل خدي الفتاة الرطبتين وهو يقول /آه يا ضناي آه/

أقدم الرجال الخمسة على اغتصاب الفتاة كانوا يشفقون على المسكينة ويتألمون من أجلها.. ويقولون... آه يا ضناي آه... تركوا الفتاة في الغرفة

وذهب كل واحد إلى جهة وهو: يقول آه يا ضناي أه.

أصاب النعاس الفتاة، غفت وهي متمددة فوق ذلك الفراش القذر.. فتحت عيناها ثانية من جراء صوت سمعته فإذا برجل في مقتبل العمر يقف فوق رأسها.. نظرت الفتاة بخوف وهلع إلى الرجل. وقد فهم ما أصاب الفتاة من هيئتها وثيابها فقال لها: سآخذك إلى منزلي. ارتاحي قليلاً.. واجمعي ثيابك ومنظرك. ثم تذهبين إلى المكان الذي تريدينه.

أحست الفتاة بالثقة من الرجل لأنه لم يقل لها آه يا ضناي آه.

نقل الرجل الفتاة إلى منزله القريب ... حيث كان يعيش وحيداً. و قدَّم لها عناية جيدة.. حتى أن الفتاة أخذت حماماً ساخناً في ذلك البيت.. وإذا بشفقة الرجل بعد الحمام تنفجر فجأة ويقول: آه يا ضناي آه. حاولت الفتاة الهرب لكن الرجل أغلق الباب بسرعة وخبأ الفتاة داخل غرفة في منزله. تألم الرجل للفتاة مدة أسبوع كامل وهو يقول لها آه يا ضناي آه. بعد أسبوع حضر إلى المنزل شاب له من الوجدان والناموس الشيء الكثير.

عندما سمع ما أصاب الفتاة قرر أن يخلصها... وكان للشاب امرأة عجوز من أقربائه قرَّر أن يضعها عندها ويعتني بها.

هرب الشاب مع الفتاة إلى منزل تلك الخالة العجوز. وبقيا هناك ما يقارب عشرة أيام. كان الشاب يتألم بعض الأحيان من أجل الفتاة ويشفق عليها وهو يردد بين وقت وآخر آه يا ضناي آه. كانت الفتاة لا تعارض الشاب في ألمه وعمله. ولكن بعد مدة من الزمن. أصبح الشاب لا يحضر إلى المنزل. ويرسل عوضا عنه بعض الضيوف من الرجال. في كل ليلة ضيوف جدد وكلهم يشفقون على الفتاة ويضمونها إلى صدورهم آه يا ضناي آه. ومن بين الرجال رجل يبكي بينما كان يضمها إلى صدره (آه يا ضناي آه).

بعد زمن طويل هربت الفتاة من منزل تلك الخالة البشوش. وعاشت

بمفردها /ابني مدرستك لوحدك/ ضعي موقدك لوحدك/ اطهي بنفسك وتناولي طعامك بنفسك/.. كان على الفتاة أن تعمل في تلك المرحلة لتعيش. لم تبك عندما يقول لها الرجل آه يا ضناي آه ولكنها كانت تغضب منه ثم قالت: هل فهمت الآن لماذا غضبت.. قل لي ما تريد ولكن لا تقل آه يا ضناي آه. هذا جميل ولكنني بقدر ما أشفق على هؤلاء النسوة الساقطات لا أستطيع أن أفعل شيئاً دون أن أردد هذه العبارة.

الحادثة لم تنته هنا.

هل كانت الحادثة التي قصتها الفتاة، حقيقة أم أنها نسج خيالها، أمثال النساء اللواتي قبل خمسين عاماً من الآن.. ربما تكون القصة حقيقية.. وربما من الخيال؟... لقد أمسكت طرف الحبل الذي يقودني لكونها قصت لي هذه الحكاية من خيالها... ومن الصواب أن أذكرها مهما كان عيباً في ذلك. عندما بدأت الاقتراب منها وأنا أردد آه يا ضناي آه... وإذا بها رجل على هيئة امرأة.. في تلك اللحظة قفز الدم إلى دماغي، وصرخت في وجهه.

- وِلَك، ولِك بنتي كيف أقنعتني منذ ساعة من الآن بقصة حياتك. قص علي وهو يقسم على كل شيء غال ورخيص لديه.. أن كل ما قاله صحيح ليس فيه زيادة بل نقصان.. وأنه خجل كثيراً من كونه رجلاً ونسج القصة وكأنها تحدث مع فتاة.

إن تصديق هذا الشيء أو عدم تصديقه تابع بعد الآن لي ولكم.

ودعت الفتاة أو الشاب الذي على هيئة فتاة دون إهانة.

في اليوم التالي كنت أقرأ الصحف. وكان الخبر الرئيسي والهام على صفحات الجرائد هو: صدور قانون منع نشر الفضائح.. هذا جميل.. جميل وجميل جداً... ولكن هل يمنع هذا القانون الفتيات اللواتي يملأن الشوارع، ويشفق عليهن الآخرون بعبارة آه يا ضناي آه.

- ٨ -

قبل أربعين عاماً

جرت هذه الحادثة في إحدى نواحي مدينة /سيواس/. لن أذكر اسم الناحية، لأن بطلها يعرفه الجميع هناك.

لا ضرورة للتعرف على /سيواس/ ومن لا يعرفها؟

وعلى ذمة الراوي، لا نعرف ما إذا كانت هذه القصة أو الحادثة جرت حقيقة أم أنها من نسج الخيال... لكن الشاهد الأساسي والحقيقي عليها هوكما رواها بالضبط المحامي /ايبو/ تدليل كلمة إبراهيم. وأريد القول هنا أنه مهما كانت القصة حقيقية فإنني أشك في كذب المحامي ايبو.

يقولون أن مكان ولادة البرد هو مدينة /أرخروم/، ولكن المكان الذي يتوزع منه هو مدينة /سيواس/. إذا كانت هذه المقولة صحيحة، فإن أهلنا وأصدقاءنا في سيواس يجب أن يكونوا قد احتكروا ثلاثة أرباع البرد عندهم، ولهذا السبب... لا برد فوق برد /سيواس/ إلابرد سيبيريا أليس كذلك؟ انتقل يا سيدي.. نعم سيبيريا فيها البرد... ولكن ليس كبرد سيواس الذي يشبه موساً للحلاقة يقطع الإنسان إلى قطع صغيرة، فما هو سبب حرارة دم السيواسيين وأرواحهم. ربما نابع من شدة البرد الذي يلفهم من الخارج.

مهما كان الأمر.. لنرجع إلى الحادثة التي قصها /ايبو/.

كان البرد القارس قد سقط فجأة على سيواس، ذلك البرد الذي لا آمان منه ولا إيمان، الثلج تراكم فوق البيوت إلى ارتفاع أكثر من مترين، وهذا الثلج كما هو معلوم أشبه بالقطن المندوف... يزداد وزنه كلما تراكم أكثر واستمر لمدة أطول. لقد هبطت أسقف منازل كثيرة فوق أصحابها.. ولهذا

لابدَّ من إزالة هذه الثلوج تباعاً ودون تأخير بالرفش كلما بدأ بالتراكم.الرجل الذي لا نعرف اسمه صعد إلى سطح منزله لإزالة الثلج بالرفش وكان عمره يناهز الستين. حتماً ستقولون /وَلِكَ عمي أليس له من أقارب لإعانته على إزالة الثلج عن سطح المنزل؟/

إذا لم يفعل ذلك بنفسه، فمن سيساعده؟ كان ابنه الصغير يخدم الوطن أي /عسكري/ وابنه البكر في ديار الغربة. أما ابنته فقد سافرت مع زوجها إلى ألمانيا، والمصائب تحيط به من كل جانب. وإذا سألتني أين زوجته؟ تلك الفضلة/ المتبقية من الزمن والتي يحوي جسدها سبعين علة في سبعة أماكن.

فهمنا.. فهمنا يجب عليه أن يزيل الثلج بنفسه، ولكن لماذا لم يزله في النهار وانتظر حتى حلول الظلام.. ولكن يا أخي أنت تتكلم بما لا تعرفه ولا تشعر به.. هل هذا العمل حسب إرادته؟ لم ينقطع هطول الثلج في النهار و لم يتوقف إلا قليلاً في الليل.. وكان القمر قد بدأ يرسل نوره أيضاً. ما أجمل هذه الليلة؟ شيء آخر. الرياح كانت هادئة جداً، والطبيعة بيضاء كأنها تتلقى أشعة الشمس. كل شيء يبهج النظر.

وكما قلنا لا الريح تصفر ولا الجليد يكنس، كل شيء على ما يرام. حسن جداً.. سنقول ولماذا لا ينتظر حتى الصباح؟ وكيف سينتظر.. والعمود الذي يحمل السقف بدأ يميل من منتصف النهار. هل تريد أن يقع السقف عليهم في أنصاف الليالي وهم يغطون في نوم عميق. هكذا صعد صاحبنا إلى السطح وبدأ ينزح الثلج الأبيض الذي انعكست عليه أشعة القمر الفضية و تبدو كأنها أزالت كل عفونة وقذارة هذا المكان. وآه عليك أيتها الطبيعة الملعونة، قلنا أنت جميلة.. ولكن لم نقل لك كوني جميلة إلى هذا الحد. وتحت تأثير هذا الجمال الخلاب، شعر الرجل بسعادة غامرة، فقذف الرفش الذي في يده. وأشعل سيجارة ووضعها في مشرب وهو على سطح المنزل في

سيواس، رافعاً رأسه نحو السماء يتأمل جمال السماء والليل نافخاً دخان لفافته نحو القمر. كانت السعادة تغمره من كل جانب. ونسي أنه على سطح المنزل، و نسي آلاف الهموم التي يحملها هذا المنزل. كانت ذكريات الماضي تمر أمامه، وفي تلك اللحظة انطلق صراخ. في تلك اللحظات القليلة، وماحدث عويل وأنين يشق هدوء الليل. ((النجدة أيها الجيران.. آمان الحقوني.. آمان لقد انتهيت.. آمان لقد احترقت.. هيا أسرعوا... أسرعوا... تعالوا آمان أيها الجيران آمان اوف)).

هرع الجيران من منازلهم في هذه الساعة المتأخرة من الليل نحو مصدر الصوت. واجتمعوا حول الرجل. والذي سقط عن السطح. وتمدد على الأرض يئن ويتوجع. إذا لمسته يصرخ آه، من الواضح أن بعض عظامه تكسرت نتيجة السقوط.

في تلك اللحظة اسرع ((ايبو)) الذي روى لنا هذه الحادثة. باستدعاء طبيب الناحية إلى مكان الحادث، وعندما وصل الطبيب ألقى نظرة فاحصة على الرجل فوجد أن ساقيه قد أصبحتا عكس جسمه من جراء الكسر. وإذا ما التحمت العظام على هذا الشكل فستكون قدماه عكس رأسه. كيف سيمشي هذا المسكين؟!

من الواضح أن نصيبه لم ينقطع من هذه الحياة. هناك خبز يجب أن يأكله وماء يجب أن يشربه. وضعوه داخل كيس كمجموعة من العظام المكسرة. يتأرجح داخله يميناً ويساراً.. أي.. ماذا سيحصل؟ يجب أن يؤخذ إلى مشفى سيواس. الساعة منتصف الليل، والطقس مثلج..! والطرق مقطوعة ومغلقة بسبب تراكم الثلوج! من سيأخذه؟ وبأية واسطة نقل..

كل واحد منا يتخيل موقفاً ويضخمه على هواه.. ولكن مهما حصل. حمل (ايبو) كومة العظام المكسرة ونقلها إلى سيواس بواسطة غير معروفة

سيارة، عربةٍ، دابة وأي وسيلة أخرى. المهم أنه أوصله إلى مشفى سيواس مساء اليوم التالي.

نظر الطبيب المختص إلى الرجل.. آمان ما هذا الكسر؟ فاحتار في أمر هذا النوع من الكسور التي أصيب بها.. ((أنا طبيب أخصائي منذ أربعين عاماً لم أرَ حالة على هذا الشكل)).

المهم يا سيدي.. أنهم أجروا له عملية استمرت وقت طويلاً. وبعدها تم نقله إلى السرير بوضعية يمكن لساقيه أن تعودا إلى وضعهما الطبيعي.. وتساءل الطبيب المختص.. كيف حصل هذا الكسر؟. كان يريد أن يفهم ذلك. بدأت آلام الرجل تتضاءل يومياً إلى حد ما... فكان الطبيب يراقب مريضه باستمرار ويسأله.. كيف كسرت رجلك بهذا الشكل؟ يجيب الرجل.. هذا أمر عادي ولكن ليس بهذا الشكل؟.. كيف فعلها الرجل؟ كان الطبيب يريد أن يعرف هذا.

لكن صاحبنا.. رفض الاعتراف بما حصل له.. إنه يئن ويتوجع ولكنه لا يتكلم. أخيراً أقتنع الرجل تحت إصرار. وبدأ الكلام قائلاً: طيب.. أنا سأقول كل شيء ولكن لي رجاء عندك هو أن لا تنقل ما تسمعه لغيرك.

بدأ الرجل بالكلام، بعد أن أخذ من الطبيب وعداً قاطعاً على ذلك.

- قبل أربعين عاماً من الآن يا سيدي؟.

غضب الطبيب عندما بدأ الرجل قبل أربعين عاماً.

- توقف قليلاً.. اترك الأربعين عاماً التي مضت جانباً وارجع إلى الليلة الماضية وقص لي ما جرى لك.. وكيف وقعت عن السطح.

مرة ثانية بدأ صاحبنا. قبل أربعين عاماً من الآن.

- اترك الأربعين عاماً التي مضت أيها الرجل.. ماذا فعلت حتى كسرت رجليك على هذا الشكل.. هيا تكلم.

– أنا أريد أن أقص لك هذا يا سيدي الطبيب؟ كان ذلك قبل أربعين عاماً من الآن..

– اترك ما قبل أربعين عاماً /ولك يا رجل/ أنت لم تكسر رجليك قبل أربعين عاماً؟ حتى تبدأ من أربعين عاماً، من الذي سيسمع قصة حياتك منذ أربعين عاماً؟

– إذا لم أقص لك ما جرى معي قبل أربعين عاماً لن تستطيع فهم كيف كسرت رجلي.

شعر الطبيب المختص بإحباط من تصرف الرجل وأذعن للأمر بالواقع.

– يب... اذكر لي ما جرى لك قبل أربعين عاماً من الآن.

بدأ الرجل المعلق من قدميه بالسقف رواية ما حدث له.

كان ذلك قبل أربعين عاماً.. كنت آنذاك في الثامنة عشر من عمري. حيث بدأ الشعر ينمو على شاربي قبل وقت قصير. لم أكن عندها أفكر بالنساء أبداً. ولكني كنت مغرماً بالصيد إلى حد كبير. كنت أحمل بندقيتي وجعبة صيدي واصعد إلى الجبل والغابة. ماذا تتمنى من أنواع الصيد؟ العنزة البرية، الغزال، الدب، الخنزير، الأرنب البري، الحجل كل ذلك اصطاد منه وأضعه في الكيس وأعود مثقلا بالحمل إلى المنزل.

كان الشتاء في تلك الأيام قاسياً كالشتاء الآن، وقد زاد ارتفاع الثلج قامة الإنسان.. في ذلك اليوم خرجت إلى الصيد. وكانت الطرق والآثار غير واضحة وتوجهت نحو الجبل والغابة. كان الصيد وفيراً آنذاك.. ملأت كيسي بالأرانب والطيور.. ومسكت الغزال من قرنيه ونقلته فوق الثلج إلى المنزل.. ومن شدة البرد تحول الثلج إلى جليد ثم تحول الجو إلى ضباب كثيف، بحيث لم أعد أرى أمامي. لا أعرف الأرض من السماء كان يطلق على هذا النوع من الضباب اسم /خانق الذئاب/، لا يستطيع المرء أن يرى أمامه وحوله.

واختلط الجليد بهواء الضباب الناعم، ولم أستطيع التنفس. كنت سأختنق لا محالة وأسقط على الأرض كتلة جامدة. قبل الاختناق كان احتمال سقوطي في الأودية كبيراً جداً وأتحطم شر تحطيم. وبينما كنت أفكر بهذا وأمشي بحذر شديد أتلمس الطريق برؤوس أصابعي كي لا أتدحرج وأنزل إلى الهاوية. وإذ بي أدخل إحدى الغابات... كانت الغابة تحد من قوة الجليد بعض الشيء.. ولكن الظلمة هنا شديدة للغاية ومن جميع الجهات.. إذا لم أمت مختنقاً من الجليد أو متجمداً من البرد فإن الذئاب والوحوش الكاسرة سوف تلتهمني.. كنت أتمتم دائماً قل هو الله أحد/ وأكرر شهادة لا إله إلا الله. وإذا بي يا سيدي أشاهد ضوءاً خافتاً وسط ذلك الظلام الدامس والعتمة الحقيرة. آمان يا سيدي.. يجب أن يكون هناك إنسان ما.. لابدَّ أن الضوء ينبعث من أحد الأكواخ.. يجب أن يكون هناك منزلاً. وبدأت بالمسير نحو الضوء... امشي.. وامشي.. وكما تعلم فإن تحديد مسافة الضوء في الظلام صعب للغاية. أحياناً تحسب الضوء نجمة وأحياناً أخرى، يخبو هذا الضوء ليصبح كشمعة تتمايل أشعتها من الهواء.. وتحسب أيضاً في بعض الأحيان أنك بعيد عنه مسيرة يوم كامل.. مشيت بسرعة بقدر ما أستطيع.. وفي النهاية وجدت نفسي واقفاً أمام باب المنزل الذي ينبعث الضوء من نافذته. ورميت بجسدي المنهك أمام الباب حيث لم تعد لدي القدرة على طرقه. كنت أطلق الآهات. والأنين وأتألم من الوجع. انظر حال الإنسان يا سيدي.. حتى تلك اللحظة لم أترك قرن الغزال من يدي، وأنا في حالة أصارع فيه الموت. عندما وقعت على عتبة الباب صدر صوت قوي عن سقوطي وأصوات أنيني وألمي... وإذا بالباب يفتح فجأة وبسرعة. ماذا رأيت.. امرأة فائقة الجمال تستطيع أن تقول عنها أنها ملكة جمال العالم. بل هي ملكة جمال الملكات. واقفة في وسط الباب المفتوح قليلاً كلوحة جميلة. أما أنا

فكنت مرمياً على الأرض قرب الغـزال.ولمـا شـاهدت المـرأة حبسـت أنيـني.. ولكني لم استطع الوقوف على قدماي.. وعندما رأتني ملكةِ جمال العالم ملقـى على الأرض كبساط مهترىء، أخذنـي مـن يـدي وسـاعدتني على الوقـوف، وهي تقول: واه أيها الشاب القوي واه... هيا حاول الوقوف.. واستند علـى ذراعي وادخل. مددت يداً للمرأة والأخرى بقيت ماسكة قرن الغزال. وجوُّ الغرفة مليء بالدفء وحرارة الحياة.

قالت لي ملكة جمال العـالم للمـرة الثانيـة: آمـان يـا فتـاي القـوي.. لقـد أصابك البرد تماماً وابتلت ثيابك هيا اخلـع ثيـابك قبـل كـل شـيء. وجفـف جسدك وثيابك جيداً وها هي المنشفة وارتدي هذه الثياب.....

تركت ما في يديها وانزوت في زاوية الغرفة..

فعلتً كما طلبـت مـني... تعريـت تمامـاً كمـا ولدتـني أمـي... ونشـفت جسمي جيداً.. ولبست الملابس الداخلية التي تركتها المرأة أمامي، ثم لبسـت بنطالاً من الجوخ وقميصاً وسترة. واستلقيت على كرسـيٍ كبـيرٍ مقـابل النـار المشتعلة. وفي لمح البصـر أصبحـت أفنديـاً أو بـالأحرى /واحـداً مـن بكـوات الأفندية/. بعد قليل جاءت المرأة.. وسألتني كيف أصبحت؟ فشكرتها وقلـت لها، أصبحت على ما يرام. ثم أحضرت لي كأساً حاراً من الشاي. وقالت:

- اشرب حتى تدفئ أعماقك.

شربت الشاي وأنا أراقب النار التي تشـتعل في الموقـد وقـد امتـدت ألسـنة لهبها، نحو المدخنة بشكل جميل. أحسست بالدفء يغزو جسمي مـن الداخـل والخارج.. و يطفح بنعيـم الحـرارة. عندهـا بـدأت أفكـر فجـأة بـالمرأة.. مـن تكون؟.. وماذا تفعل هنا؟.. ابنة من؟ وزوجة من؟ مـن خـلال حديثـي معهـا عرفـت أنهـا سـتظل اليـوم بمفردهـا في هـذا المـنزل النـائي. وليـس مـن أحـدٍ سيزورها، وما من منزل قريب مـن منزلهـا في هـذه الغابـة. بعـد وقـت قصـير

أحضرت مائدة لا تقل عن مائدة الملوك. أكثر من عشرة أنواع من الأطعمة والحلويات. لم أستطع أن أتمالك نفسي... تناولت الطعام بشراهة حتى الانتفاخ. كنت منهكاً من التعب ومتمدداً من الحرارة، وقد أخذ النعاس مني مأخذه، وذبلت عيناي فجأة .. شعرت بأن جسماً ثقيلاً مربوطاً إلى أجفاني ويشدهما نحو الأسفل، كان رأسي ينزل بين وقت وآخر على صدري. عندما رأتني على هذه الحال قالت:

- داهمك النعاس؟ هيا انهض إذا كنت تريد النوم.

سارت أمامي وأدخلتني غرفة النوم.. ثم أوصدت الباب علي وذهبت. خلعت ثيابي وتواريت داخل السرير الذي تعلوه فرشتان كبيرتان ناعمتان.. أزحت الستارة من فوق رأسي ونظرت من خلال النافذة خارجاً: شيء مذهل.. لقد توارى الجليد والضباب وتركا مكان لضوء القمر ليعكس نوره فوق الثلوج الهاطلة.. كل شيء كان مغطى بالثلج، الأشجار، والصخور والأراضي. أشعة القمر الفضية تنشر نورها الذهبي فوق الثلوج.. جمال يذهل الإنسان. ولا يرتوي المرء من النظر لهذه اللوحة التي تأخذ الأبصار. لم أستطع تحويل نظري عن منظر الطبيعة الخلاب تحت ضوء القمر. كنت على وشك إطفاء الضوء وأنام. وإذا بالباب يفتح شيئاً فشيئاً، كانت واقفة أمام الباب وبما أن ضوء الغرفة أخف من ضوء الخارج. فإن جسم المرأة وثيابها الداخلية كانا ظاهرين تماماً للعين. كانت ثيابها الداخلية من الحرير الأبيض تلمع لمعاناً بشكل مثير. لم تكن ترتدي ثيابها الداخلية صدرها وكتفاها عاريان تماماً. وشعرها تسدل على كتفيها، وقد انعكست أشعة القمر الفضية على الأماكن العارية من جسدها. وقفت برهة من الزمن أمام الباب. وعندما لم يصدر مني أي صوت أو حركة، سألتني بصوت ملائكي خافت: هل من حاجة تطلبها مني؟

ماذا كان بودي أن أطلب من هذه المرأة الطيبة القلب. لقد خلصتني من الموت المحتم بالتجمد. أدخلتني بيتها، أطعمتني، سقتني.. ادفأتني.. أعطتني ثياباً جديدة، أجلستني أمام الموقد.. ماذا أطلب منها أكثر من هذا.. الأب لا يقدم كل هذه الخدمة والعمل الجيد حتى لولده.

قلت لها: أدامك الله.. لا أستطيع أن أطلب منك أكثر من هذا، ليرضى الله عنك... كل شيء تمام.. أطلب لك الصحة والعافية.

قالت مرة ثانية: إذن ليس من شيء تطلبه مني أليس كذلك؟.

مرة ثانية دعوت لها أن يمد الله بعمرها ويحفظها، ولا أريد منها شيئاً. قالت المرأة وهي توصد الباب بهدوء يا يا يا.. و لم افهم قصدها بهذه الياء. وقفت المرأة برهة ثم انسحبت بسرعة، وتوارت عن ناظري: وضعت الغطاء على رأسي ونمت نوماً عميقاً وجميلاً.

استيقظت صباح اليوم التالي على أشعة الشمس وهي تضرب عيوني، كان النهار على وشك الانتصاف، لبست ثيابي القديمة. وفكرت بأن أقدم للمرأة الغزال والأرانب كهدية مقابل معروفها معي.. ولكنها لم تقبل وطلبت مني أن أعود إلى منزلي مع غنائم الصيد. مسكت ثانية قرن الغزال وخرجت إلى الطريق.

كانت الثلوج المتراكمة تلمع من جراء أشعة الشمس. أخيراً وصلت منزلي يا سيدي. هذه هي الحادثة، ومرت السنون وأنا لم أتوصل. إلى فهم تصرف المرأة معي في غرفة نومها وقولها لي يا يايا/ حتى تلك الليلة التي صعدت فيها إلى سطح المنزل لأزيل الثلج عنه... كل تلك الأعوام الطويلة مرت ووصل عمري إلى الثانية والستين.. حيث لم يبق لي القدرة على فعل أي شيء. عندها صعدت إلى سطح المنزل بصعوبة بالغة، وبدأت بإزالة الثلج عن السطح ولما تعبت، قلت في نفسي لأرتاح بعض الوقت. وأشعلت سيجارة.

نظرت فجأ إلى القمر.. آه أي قمر هذا القمر.. كيفما اتجهت أرى القمر. الدنيا كلها أصبحت أقماراً. لقد جعل من الثلوج المتراكمة جبالاً من الفضة. وفجأة تذكرت تلك الليلة البعيدة. قبل أربعين عاماً. رميت الرفش من يدي، ورحت أسبح في ظلال الذكريات وأنا أراقب القمر.

لماذا مدَّت المرأة الياء الطويلة في تلك الليلة؟ وبينما كنت غارقاً في التفكير وإذا بي أتوصل بيني وبين نفسي إلى معنى تصرف المرأة معي وماهي نواياها، وماذا كانت تطلب مني. آه على هذا الرأس الذي يحويه جسدي.. تبّاً لك أيها الرأس اليابس. مرت أربعون عاماً وقد فقدتُ القوة تماماً. ماذا كان ضرَّني لو بقيت معي تلك المرأة. نعم كانت بحاجة إلى شيء فطلبته مني آه.. آه.. واهٍ أي واهٍ.. في تلك اللحظة.. كنت أتأوه وأضرب رأسي المتحجر، إنه رأس جحش. وفي تلك اللحظة وجدت نفسي مرمياً على الأرض.

أما الباقي فأنت تعرفه يا سيدي الطبيب. وهكذا انكسرت ساقاي وليس لهما ذنب أبداً كان يجب أن ينكسر رأسي الفج .. ومهما كان الأمر حتى ولو انكسرت ساقاي. حتى ولو دام الأمر أربعين عاماً.. يكفي أنني فهمت تصرف المرأة. وإذا متُ دون أن أفهم مغزى طلبها، عندها كنت سأموت غماً.

قال (ايبو) كان صاحبنا معلقاً بساقيه في السقف.. وكان يروي قصته وهو على وشك أن يقع من السرير عدة مرات من الاندفاع والهيجان. قال الطبيب لصاحبنا وهو يضحك.: كان يجب أن ينكسر رأسك هذا.. ويتحطم حتى تعيدك آهات تلك المرأة المسكينة إلى رشدك.

وبما أن ايبو وعد الرجل بأن لايروي الحادثة لأحد. لذلك لم يبق أحد في سيواس إلا وعلم بها. وحاول ايبو أن يأخذ مني وعداً قاطعاً حتى لا أخبر أحداً... آمان يا أخي لا تخبر أحد.. اوعا ها. ليعلم العالم كله بهذه القصة..

- ٩ -

عشبة الحب

عشرون عاماً مضت على إحالتي على التقاعد، هل تعرفون أني مدين لمظهري الخارجي الذي يعطي صورة أصغر من عمري الحقيقي. أتذكر مقابلات كثيرة أجراها الصحفيون مع معمرين تجاوزت أعمارهم المائة عام.

يسأل الصحفي:

- بماذا أنت مدين لهذا العمر الطويل؟

يقول البعض أني مدين إلى اللبن وآخرون للثوم، ويقول البعض أيضاً بأني أمضيت معظم حياتي في احتساء الخمور. من جهتي لم أتجاوز الثامنة والثمانين ومع ذلك يقولون أن عمري بين الستين أو الخمسين. لا أدري لمن أنا مدين بهذه الصحة والقوة والعافية. هل لتعاملي الكثير مع التراب... أم على مزاحي وضحكي الدائمين. على ذكر التراب فأنا لا أملك مزرعة ولا حقلاً. كل ما أملكه هو بستان صغير يحيط بمنزلي المؤلف من طابقين بمساحة دونمين فقط.. نعم إنه بستان صغير، ولكن يجب أن لا أقلل من قيمته فهو يأخذ الكثير من وقتي في الصيف والشتاء. أزرع فيه جميع أنواع الخضروات والأزهار والورود.

تقول ابنتي التي تعيش معي، أن هذه الخضروات والأزهار ليست لنا بل للمزارع الذي يزرعها ويعتني بها. كما تقول ابنتي الكبرى لو اشتريت الأزهار والخضراوات من السوق. لكنت الرابح. إنك تستخدم عمالاً للزراعة يقومون بحراثة الأرض وتسميدها والعناية بها، وهم يعملون يومين في

الأسبوع. وهناك ناحية مهمة أيضاً وهي: أن طعم الخضار التي تزرعها في أرضك تختلف كلياً عن طعم تلك التي تشتريها من السوق، وأن رائحة أزهار أرضك تختلف أيضاً عن رائحة الأزهار التي تشتريها من السوق.

كنت ألتقي مع زملاء الدراسة في منزلي عدة مرات في العام. وكنا في القديم نلتقي في صالون أحد الفنادق أو الملاهي والمطاعم. في ذلك الزمن كان عددنا كبيراً بحيث لم تكن البيوت تتسع لنا. وفي كل عام ينقص اثنان أو ثلاثة وأخيراً وصلنا إلى أربع عشر شخصاً. كانت اجتماعاتنا في البيت تسودها الحرية.. نهتف ونصرخ ونمضي ساعات حلوة مسلية. ونحاول جاهدين الابتعاد عن الهموم والأحزان، عندما نذكر الأصدقاء القدامى الذين تركونا. نكتفي بشرب نخب أرواح الموتى منهم.

هل بقي واحد منا و لم يستعمل طقم أسنان في فمه. لا أظن أما أنا فقد بقي لي ثمانية أسنان أساسية والباقي كما تعلمون. كنت أعرض الأزهار والخضار التي أزرعها في بستاني أمام أصدقائي، وأتفاخر بعملي الذي أنتجه من عرق جبيني. ولكن في هذا العام ظهرت نبتة خلف منزلي وفي أفضل وأحسن مكان في البستان.. حسبتها مصيبة.. بلاء ليس إلا.. ما هي هذه العشبة؟.. ما اسمها؟ ما صفتها لم أعرف عنها شيئاً حتى ولا العامل الزراعي عرف كنهها. و لم أجد أحداً يعرف عنها شيئاً.

يقولون أن عشبة /التيِّين/ جاءت إلى حقل مزروع بالقمح وتوسلت لسنابل القمح قائلة: ماذا يحصل لو أعطيتموني مكاناً صغيراً حتى أضع جذوري فيه. لن يحصل لكم شيء... مكان صغير لجذر صغير في حقل كبير..

قالت سنابل القمح بعد أن أحست بالشفقة على هذه العشبة.

- ضعي جذورك هنا...

بدأت عشبة التيين التي لاحياء فيها ولا إيمان والقادرة على تحمل ظروف الطبيعة القاسية، تمد جذورها تحت التربة في جميع الاتجاهات وبشكل كثيف.

امتدت جذور هذه العشبة بشكل مذهل في أرجاء الحقل طولاً وعرضاً.. بحيث لم يبق لحبة القمح مكاناً تضع فيه جذورها في العام المقبل.

هذه العشبة التي نبتت في بستاننا تعدُّ أكثر انتشار وهمجية من عشبة /التيين/ بألف مرة.. فقد احتلت المكان الخصب من بستاني. ويالها من عشبة حقيرة واطئة. لم تترك مجالاً لأية عشبة أو نبتة تنبت في تلك المنطقة، كما أنها لم تعط حق الحياة للنباتات الأخرى. قضت على معظم الأزهار الجميلة التي زرعتها ورعيتها وسقيتها، يا لجذرها القوي إنه ينغرس إلى أبعد نقطة في التربة. طلب من العمال انتزاعها وإزالتها من جذورها، وإذا بها تخرج في اليوم التالي أقوى وأمتن وأكثر إنتشاراً من ذي قبل. أنتزعها من التربة بالفأس وأقول في نفسي: أوه لقد تخلصت منها. لكنها في اليوم التالي تفرع من جذورها ثلاثة أو أربعة براعم دفعة واحدة.

أرسلوا لي مبيداً زراعياً ساماً قاتلاً قوياً.. بحيث إذا نزلت منه نقطة واحدة على جذر شجرة عمرها مائة عام تقضي عليها خلال لحظات. أخذت علبتين من ذلك المبيد، وبدأت أسكبهما على جذور تلك العشبة الحقيرة، قليلة الحياء.. كنت أحس بنشوة الانتصار وفرح الانتقام من تلك العشبة عندما أسكب المبيد عليها. يا للأسف لم يدم فرحي طويلاً.. فما أن انتهيت من رش المبيد على جذورها، وبينما كنت أغسل يدي لأزيل عنهما آثار السم، وإذا بالعشبة تتكاثر وتتكاثف أكثر فأكثر. على الأقل انتظري حتى الصباح أيتها المصيبة إنها تكبر على مرأى مني وتنتشر بشكل مذهل، وكما نرى في أفلام الطبيعة العلمية كيف تنفلق الحبة وتظهر من التراب؟.. وكيف تمتد

الأغصان.. وتتفتح أزهارها... كل ذلك نراه في دقيقتين أو ثلاثة دقائق. وهذه العشبة تكبر وتنتشر أمامي وأراها وبكل وضوح.. وكأن هذه الحقيرة تعاندني كلما أسكب عليها قليلاً من السم، تكبر أكثر. فكرت في نفسي ربما ستجف بعد قليل وتموت ولكن ماذا أشاهد في اليوم التالي؟ رأيتها قد غطت البستان طولاً وعرضاً مثل شعر الفرشاة.

هجمت عليها من شدة غضبي لأزيلها بيدي، أضربها، أشتمها.. في نفس اللحظة لم أجد نفسي إلا وأنا أنهزم خوفاً وهلعاً. لم أكن أعلم أن أوراقها تتسلق على جلد الإنسان. إنها تفعل بالإنسان أكثر ما تفعله نبتة القراص. عندما أمسكت العشبة لأنتشلها من الأرض. بدأ جلدي بالإحتراق والتخريش أولاً، ثم انتفخ الجلد على شكل حبات كبيرة ثانياً، وبعدها بدأ حك شديد /ا لله لا يصيب به أحد/. إنها مصيبة لم يرها و لم يسمع بها أحد. إذا انتشلتها.. لا تستطيع الاقتراب منها وإذا وضعت لها السم تزداد نمواً، وإذا حفرت حول جذرها تزداد انتشاراً وإذا قطعتها تزداد قساوة.

حصل لقائي الأخير مع أصدقاء الدراسة في منزلي، أثناء تلك الأيام العصيبة التي كنت أعيشها مع تلك العشبة الحقيرة.

في ذلك الصباح، وصل أصدقائي إلى المنزل، بعضهم بسيارته الخاصة وبعضهم بالباصات.. والبعض الآخر بسيارات الأجرة.. على مجموعات مؤلفة من ثلاثة عشرة صديقاً.. تسعة منهم جاؤوا مع زوجاتهم.

بعد دقائق قليلة من مجيئهم. وكما يفرض علينا العمر والسن عدنا بأدراجنا إلى ما قبل خمسين أو ستين عاماً إلى أيام طفولتنا الأولى.. المزاح، والسخرية.. حتى المزاح الثقيل كنا نستعمله فيما بيننا، المزح بالأيدي.. عندما نبدأ بالحديث عن طفولتنا كانت النساء، يبتعدن ويجدن لأنفسهن مكاناً ما في البيت.. ونتحدث عن طفولتنا كما نريد ونشتهي.

KMH

عندما ابتعدت مجموعة النساء عنا. أحسسنا بشيء من الراحة وبدأت أحاديثنا تأخذ شكلها العامي المتضمن /ولك.. ولو.../ واتجه موضوع حديثنا كما هي العادة في كل مرة حول موضوع الجنس. ما من أحد كان يقبل انتهاء حياته الجنسية. /اترك القبول على جنب/ عندما تحين لكل واحد منا فرصة مناسبة للكلام، كان يحاول وبشتى الوسائل عرض عضلاته ومغامراته الجنسية غير المعقولة... والتي لم نكن نصدقها. ومع هذا كنا نصغي باهتمام إلى كذب المتحدث ومغامراته التي ينسجها من بنات خياله. مع أنهم جميعاً يجدون (.....) بصعوبة عندما يشعرون بالتبول. وأنهم كانوا يبولون داخل ألبستهم.

في المرحلة الدراسية، كان /عساف/ يظهر أصغرنا سناً. أما الآن فمنظره يوحي بأنه أكبرنا على الإطلاق. فالتجاعيد تغطي كل مكان في جسمه.

أما أكرم الذي أصبح عالماً مشهوراً في اختصاصه، ونال شهرة عالمية واسعة.. فقد أهلكه الرجفان الشديد وأقعده كما أصابنا جميعاً ولكن بدرجة متفاوتة.. جميع أجزاء جسده كانت ترتجف، حتى أن فنجان القهوة يصل بصعوبة إلى فمه من فوق الطاولة، وينسكب على الأرض أو ثيابه.

أما /مظهر/ الرياضي الأول بيننا فقد قصرت خطواته إلى درجة كبيرة وأصبحت تقاس بالسنتمتر.

أما /أحمد/ فكان يتكلم وكأنه يلحس مربى التفاح. فقد أرسل بدوره طقم أسنانه إلى طبيب الأسنان لإصلاحه.

و/شينازي/ أصبح قزماً صغيراً.. يزداد جسمه قصراً كل يوم وأوشك أن يضيع بيننا.

أما كمال.. فكان أطول واحد بيننا.. ولكن جسمه انحنى إلى الأمام وأصبح كزاوية قائمة.

عندما كانت مناقشاتنا تتجه إلى الجنس، بدأ كـل واحـد منـا يتكلـم يمينـاً وشمالاً وكأن الجن أكل لسانه.

كان باكير أكبر المتكلمين وهو يرتجف:

- إذا كنتم تريدون الحق... لم يبق لي حيل ولا قوة.

دهشنا جميعاً.. كيف يخرج منه هذا الاعتراف الفاضح.

قال مصطفى الذي يرمي خطواته بالسنتيم. قل لنا أولاً..

قال باكير: إن المخطط البياني في هبوط مستمر.

قال أحد الأصدقاء وهو لا يسمع كثيراً: ماذا قلت.. ماذا قلت؟.

كرر باكير الرقم ثانية.

قال مظفر الذي أصبح كالطفل الرضيع في المهد. لا ترم الكلام جذافاً.

اقترب أكرم المرتجف وهمس في أذني وهو يرتجف:

- إنه يرمي كلامه أليس كذلك؟ أظن أنه مخادع مراوغ.

تحدث محمد بلا أسنان وهو يمص الكلمات مصاً. عارضـاً نكتـة مشـهورة أنهاها بهذه الكلمات ((من المعلوم يا ابـني السـيد.. أن هـذا الشـيء لا يشـبه ذاك)) وصدرت منا الجميع قهقهة كبيرة.

أما أكرم فذهب إلى أبعـد مـن هـذا... حينمـا قـص كيـف تـرك عشـيقته الصغيرة والتي لا يتجاوز عمرها السادسـة والعشـرين.. وكيـف سـرها وزرع فيها السعادة .

أما كمال الذي أصبح جسمه علـى شـكل زاويـة قائمـة. وتكلـم دون أن يرفع رأسه وكأنه زوجته ستسمعه من الغرفة المجاورة.

- أتسمع زوجتي آمان...

هكذا بدأ بالكلام وبدأ يقص حكايا لم تحصل مع /كازانوفا/ شخصياً.

خرجنا إلى البستان. ومسك كل واحد منا ساعد الآخر وكأنه يساعده على المشي، ليثبت له أنه ما زال قوياً.. الصحيح أن متأبط ساعد الآخر، كان يريد المساعدة والمعونة، ولهذا كان يقبض ساعد صديقه ليساعده على السير في البستان.

قال أحدهم عندما شاهد تلك العشبة التي غطت البستان.

- ما هذه الأعشاب القذرة؟.. لماذا لا تزيلها؟.

وعندما بدأ الآخرون بالدخول إلى وسط الأعشاب الملتفة على بعضها خرجت بهم قائلاً: لا تضعوا أقدامكم فوق هذه الأعشاب... آمان.. إنها أعشاب ثمينة. يقولون عنها إنها عشبة الحب.

تكونت هذه الكذبة في عقلي فجأة.. وعندما سمعوا كلمة الحب أصغوا بأذانهم. عدت إلى الصالون دون الإصغاء أو الانتباه إلى أسئلتهم وعادوا إلى غرفة الاستقبال واحداً بعد الآخر.

قال شينازي: سمعتك تقول إنها عشبة الحب؟ ما مزايا هذه العشبة؟.

هنا بدأت بحبك خيوط الكذبة.

- يا سيدي الكريم.. هذه العشبة لا تنبت عندنا.. وزراعتها صعبة جداً. قرأت ذات مرة في الكتب صفات ومزايا هذه العشبة. فأحضرت بذورها بصعوبة بالغة من /كتمندو/ بعد أن دفعت ثمنها مبلغاً كبيراً.

- يعني ما فائدة هذه العشبة؟.

- كما قلت لك. اسمها يدل عليها.. عشبة الحب.. من جهتي لم أتوصل إلى فعاليتها في بادئ الأمر. ولكن عندما تناولت منها كمية كبيرة، آه لو

رأيتموني آنذاك. لا المنزل ولا الغرفة ولا السرير قادرون على حملـي.. كنـت أريد أن أهجم على أي امرأة اشاهدها.. لكنني كنت أتمالك نفسي بصعوبة.. هـذه العشـبة تجعـل مـن الإنسـان ثـوراً حقيقيـاً وأي ثـور؟.. وإذا مـا أكلـت جذورها.. يعود الإنسان إلى ثور في الرابعة من عمره.. لا الحبل ولا السلسـلة تهدىء هيجانه. لم أعد أمضغ جذورها فقط بـل أتنـاول مـن أوراقهـا ثـلاث وجبات يومياً. كونوا على ثقة بأني أحسب نفسي في الثلاثين من عمري.

كوَّر صديقي الأطرش أصابع يديه على شكل قمع ليستطيع سماع ما يُقـال عن عشبة الحب.

قال مظفر: أعطني قليلاً من بذورها.

- الطقـس غـير مناسـب لزراعتهـا الآن.. سـأعطيك البـذور في موعـد الزراعة.

قال أحدهم: لم تبق لدينا القدرة على عمـل الشـيء لا العشـبة ولا الـدواء يفيدان.

وقال آخر: ألا تعرفوا هذا الأهبل أي صـاحب المزرعـة؟ إنـه منـذ طفولتـه هكذا. يرمي بالكذب والمزاح. هاهو يعيد الكرة في شيخوخته.

كادت كذبتي ودعايتي أن تذهبا سدى... ولأخذ الأمر علـى محمـل الجـد كان من واجبي الاعتماد على المصادر العلمية التي أعرفها أو لا أعرفهـا، حتـى أزرع القناعة فيهم على أكمل وجه... ولهذا جمعت نفسي. وبـدأت بتوضيـح كل ما عندي من الأفكار والمعلومات العلمية.

- صدِّقوا أو لا تصدِّقوا.. ولكنها الحقيقة.. وكما هو معلوم للجميع فـإن بعض النباتات مقوية جنسياً وهي التي قال عنها ابـن مسـطي في كتابـه: ((إن ملعقة من العجـين مـن بـذور البركـة والبقدونـس والبصـل والكوفـيز والجـزر

والكيشني وبذرة/شالنا/ التي تؤخذ صباحاً قبل الأكل.

قال مظفر وهو يرفع النظارات عن عينيه..

- ماذا يحصل؟... ماذا يحصل؟.

كانت خطتي قد نجحت.. وكلماتي بدأت تهزمهم فتابعت حديثي الشيق معهم.

- إن بعض المواد تملك صفات مفيدة تحوي بعض الفيتامينات وزيادة هذه المواد أو نقصها يؤدي إلى نقص أو زيادة الشحنات في جسم الإنسان. لأن جميع النباتات تأخذ طاقتها من الشمس. وهذه الطاقة تتحوَّل كالمعادن إلى طاقة ذرية. وبما أن كل نبتة لها طاقة معينة على أخذ وتحويل هذه المواد حسب بنيتها الداخلية والخارجية، فإنها تنشر وتشع بمقدار ما أخذته من الطاقة. وتبدأ من الصفر.. حتى تصل إلى عشرة آلاف.

والمواد الغذائية النباتية تعطي طاقة من ٦٥٠٠ إلى ١٠٠٠٠ /آنغستروم/ وهي على شكل حيوينات غذائية /فيتامينات/ وهذه بدورها مفيدة في تقوية الجنس عند الإنسان. أما العشبة التي أمامنا فإنها تملك طاقة هائلة من الفيتامينات والأمواج الذرية تضاهي بها جميع النباتات. وعند قياس أمواج هذه النبتة، ظهر أنها وصلت إلى ٤٠ ألف /أنغستروم/. وكلما تأكل أكثر من هذه العشبة تزداد وتكبر الطاقة الجنسية في الجسم البشري كمرور التيار الكهربائي في الأسلاك. وكلما زادت الطاقة تحول الإنسان إلى ثور حقيقي...

بعد هذا التوضيح العلمي البسيط شعر بالخجل والتراخي، تماماً كالملاكم الذي يصاب بضربة على أنفه. لكن بعضهم الآخر لم يصدقني وقالوا: عني أني ما زلت كما في عهد الطلبة، أسخر منهم. وبعضهم أيضاً شكر الله على عدم حاجته لاستعمال هذه الأدوية والنباتات.

أما الساكتون فلم يظهروا آراءهم. أما أنا فكنت واثقاً من أن توضيحي العلمي كان سيعمل عمله. ولهذا السبب تركتهم في غرفة الاستقبال وصعدت إلى الطابق الثاني. بعد وقت قصير صعد إلي /عساف/ والتجاعيد ملأت وجهه أكثر من الأول. وأمسك بساعدي. عندما نظرت إلى وجهه كانت شفتاه منتفختان وبداخل فمه ورقة من تلك العشبة وآثار مضغ أوراق أخرى. ومن الواضح أن أول من قرض تلك العشبة دون أن يُعلم أحداً بذلك.

نزل المسكين ثانية إلى البستان وهو يحك فمه وشفتاه ويتمتم، بأنه لا العشب ولا غيره قادران على تقوية الجنس فيه ويستحيل عليه تصديق ذلك.

أما أكرم المرتجف فقد رأيته صاعداً الدرج... كان المسكين قد قطف مقداراً معيناً من العشبة وملأ بها جيوبه، وقد ظهرت الأوراق فيها حيث بدأت بعض الأوراق تسقط منها على الأرض. عندما شاهدني وهو على الدرج. رفع يده اليمنى وأشار علي بالرقم /٤/ فقلت له: ما شاء الله.. أنت بخير وبصحة جيدة.

كان أصدقاء الدراسة يحاولون تغطية بعضهم البعض في تعبئة جيوب سراويلهم وقمصانهم من هذه العشبة. أما أنا فكنت أفسح لهم المجال عن قصد لالتقاط الأوراق حتى الجذور، وتحترق أيديهم من الحك بفعل تلك العشبة الحقيرة.

عند كل اجتماع لنا... وبعد تناول طعام الغداء... كنا ننام بعض الوقت.. بعضنا يتمدد على الصوفا والبعض الآخر على المقاعد في غرفة الاستقبال، وآخرون على الأسرة إلا أن أياً منهم لم يستطع النوم.. البعض حاولوا خداعي بأنهم نائمون. وعندما تسنح لهم الفرصة كانوا ينزلون إلى البستان ويقطفون قدر استطاعتهم من أوراق وساق وجذور تلك العشبة..

حتى أنهم كانوا يمازحون بعضهم عندما يتجابهون داخل البستان.

عندما نظرت من الطابق الثاني إلى مكان وجود العشبة في البستان وجدت أن تلك الأعشاب لم يبق منا إلا القليل وكأن الجراد قد التهمها و لم يبق منها شيئاً.

قال كمال الذي انتفخت محفظته بأنه لا يصدق أن هذه العشبة تفعل كل هذا الفعل.

فقلت له: أنت على حق.. ولكن عليكم حجب هذه الأعشاب عن النساء.

سألني: لماذا؟

- كما ترى النساء أيضاً وصلن إلى هذا العمر.. ما رأيك لو أكلن من هذه العشبة ورجعن إلى وضعهن الطبيعي والأكثر من الطبيعي، وهن في هذا العمر.. ماذا يحصل؟ ألم تفكر بالأمر قليلاً.. ليحفظنا الله من كل سوء.. هل فهمت لماذا؟.

قال ذلك ولطم رأسه بكلتا يديه، وهرع نحو زوجته صائحاً.

- صحيح.. كلامك صحيح..

كان أصدقاء الدراسة يغادرون ضيافتنا عند العصر، لكنهم في هذه المرة ظلوا إلى ما بعد المغرب... يلتقطون ويقطفون من العشبة ويملؤون بها محافظهم وأكياسهم، واستمروا طيلة النار يرددون لبعضهم بأن قواهم الجنسية والشكر لله على ما يرام وأنهم غير محتاجين لأي دواء أو علاج أو عشبة... وأنهم لا يصدقوا فاعلية الأدوية بالنسبة للجنس.

عندما ركبوا سياراتهم وحملوا معهم ما استطاعوا من أوراق وجذور العشبة اللعينة.. ردد الجميع بأنهم سعداء جداً بزيارتي.. وأنهم في شوق

جديد لزيارتي في أقرب فرصة ممكنة.. أما أنا فشكرتهم وقلت لهم بأني سأكون سعيداً جداً بلقائكم. والحقيقة أنهم وفوا بوعدهم.. حتى أن بعضهم حضر في اليوم التالي. حتى من كان يزورني في العام مرة واحدة.. أصبح لا يتحمل بُعدي عنه أكثر من أسبوع واحد.. وفي كل زيارة كان كل واحد منهم يذهب إلى البستان سراً ويملأ كيسه بعشبة الحب ويعود.

انتشرت شهرة هذه العشبة خارج أصدقاء الدراسة.. حتى أن الجيران وأهل الحي في بلدنا كانوا يحضرون لزيارتنا.. بين حين وآخر.. بعضهم كان يختلس النزول إلى البستان تحت جنح الظلام ليحصل على العشبة. وخلال شهرين فقط.. لم يبق في بستاننا ورقة أو جذراً من هذه العشبة. فقد أضحى البستان نظيفاً تماماً.

عندما نضب البستان من عشبة الحب تماماً. بدأت الزيارات تخف كثيراً.. ثم انقطعت نهائياً. لا أعلم هل حزنت عشبة الحب منا أم ماذا... لأنها لم تعد تظهر أبداً.. بحثت عنها في كل مكان... فلم أجد منها شيئاً كان كابوساً قد مرَّ وانتهى.

هل تعرفون لماذا أنا حزين وآسف على حالي... لأنني لم أترك لنفسي ورقة واحدة من عشبة الحب، فأنا هكذا دائماً. من كثرة تفكيري.. لا أفكر بنفسي أبداً.. لو أخذت منها قليلاً وجففتها ثم طحنتها، وذريتها على الطعام بين الحين والآخر.. ماذا كان سيحصل معي؟

أطلب الآن من أصدقائي قليلاً منها.. لكنهم يحلفون اليمين.. بأنهم لا يملكون شيئاً. فهل استهلكوا كل ما أخذوه.. أو أنهم لا يعطوني عن قصد.

ولماذا أطلب منهم.. فأنا مثلهم.. لا احتاج إليها أبداً ولكن أفكر بالمستقبل فقط، ربما أعيش عشرة أو خمسة عشر سنة أخرى ومن يعلم؟

- ١٠ -

ماذا هناك حتى نخاف

من؟ أنا.. أنا جبان، ألا تعلمون؟ هيه.. من قال؟ إنني جبان؟ كل الناس جبناء مثلي؟ أسألهم من شاهدني في موقف الجبن والخوف في أي زمان ومكان؟. إنها كذبة كبيرة. أنا لا أخاف.. لا أخاف من أحد أبداً.. ولماذا أخاف؟ كيف ولماذا يخاف الإنسان من إنسان آخر. لم أخف من أي إنسان وفي أي وقت أبداً.

هل تقول الخوف من ا لله؟ هذا أمر آخر.. بكل تأكيد أخاف ا لله. هل تعرف لماذا؟ لأن الجميع يخافونه وأنا أيضاً أخشى ا لله. نعم؟ ولكني لا أخاف من أحدٍ ولا من شيء أبدا.ً هل تقول إني أخاف ممن لا يخاف ا لله؟ هذا أمر آخر. ماذا قالوا: اخش من لا يخشى ا لله/ أليس كذلك؟ يجب أن يخاف الإنسان ممن لا يخاف ا لله.. لست أدري هل وضحت الأمر بما فيه الكفاية.. وعدا ذلك لا أخاف من أحد. ولا أعرف أصل الخوف. إنه إنسان مثلي.. لماذا أخافه..

كيف؟. هل تقول إني أخاف من أبي وأمي.. أو... أو... أو كان ذلك في الماضي عندما كنت طفلاً صغيراً. بالتأكيد يخاف الولد الصغير من أمه وأبيه كل ولد يخاف. هل تقول: إلى أي سن يبقى الإنسان ولداً صغيراً في عيني أبيه وأمه. طبعاً دائماً.؟ من جهتي حتى وصلت إلى سن السادسة والأربعين.

حيث توفاهما ا لله. هذا غير صحيح أبداً. أنا لم أخاف منهما لأنهما توفيا .. قطعاً: لا أخاف منهما.

هل تقول من الأموات يا سيدي؟. آ آ آ هل يخاف الإنسان من ميت؟!. أنا لا أخاف لا من الحي ولا من الميت. ماذا يستطيع أن يفعل الميت لواحد منا. يكفي أن يكون ميتاً... بكل صراحة أنا لا أعرف الخوف مطلقاً حتى لو كان الإنسان حياً، فكيف بالأحرى وهو ميت...

كيف؟.. أقول عندما توفيت خالتي؟.. لكن خالتي ماتت في الليل. و لم يكن في المنزل سواي. سمعت صوتها عند الفجر. فأسرعت إلى غرفة نومها.. فوجدتها فارقت الحياة.. ماذا أستطيع أن أفعل؟.

ذهبت في تلك الليلة إلى الفندق لأنام هناك.. ولكن ليس من الخوف.

هل تقول من ذلك الغلام في الحارة؟ لم أخف منه أبداً، كنت انظر إلى الشارع من شرفة منزلنا، إذا كان ذلك الغلام خارجاً.. فلم أكن أخرج من البيت، كنت أسير في الشارع عندما يكون غائباً عنه.

ماذا تفضلتم؟ أخاف من معلمي؟. هذا غير صحيح أنا لا أخاف من المعلمين.. مواقفي لم تكن خوفاً أبداً ولكنها نوعاً من الاحترام، حتى في الأوقات التي كانوا يضربوني فيها، كنت أحترمهم. ستقول لي: إذا لم تكن خائفاً، لماذا كنت تهرب من مدرس التاريخ عندما كان يضربك. في ذلك اليوم لم يكن الخوف سبباً لهربي.. ولكن من احترامي له. وهل الإنسان يخاف من معلمه؟.

من الامتحانات إذن؟. قطعاً هذا ليس صحيحاً. ارتجف عند الدخول إلى الامتحان. ولكن رجفاني لم يكن سببه الخوف، بل الانفعال والهيجان. تقول لماذا بولت على باب قاعة الامتحان. هذا كذب ليس من الخوف بل من الانفعال ((الجميع يبولون في ثيابهم عندما يتأخرون عن الذهاب للمرحاض)).

لاياسيدي.. أنا لا أخاف من الفشل أيضاً، ماذا تقول هل أقع فريسة للفوضى والاضطراب خوفاً من الفشل.. يا الله كم هناك كاذبون؟! الفشل لا يؤدي إلى الموت.. إذا لم أنجح في عمل واحد أنجح في الآخر ولكن... هل تقول أني أخاف من زوجتي؟ من ينقل ويصنع هذه الأكاذيب؟ هل هناك رجل يخاف زوجته؟ با لله عليكم.. من يخاف منكم زوجته؟. لا يقال عن هذا الشيء خوف.. يا سيدي إنها أنثى ((إذا كنت تريد الوصول لقلبها عليك بالاحترام والطاعة والمعاملة الحسنة، لماذا؟.

لتنعم في الراحة بالبيت، وليحترمك الجيران.. وتشرف على تربية الأطفال وأخلاقهم... لولا هذه الأسباب.. لَمَ أخاف من زوجتي؟ في حياتي لم أخش أحداً أبداً، فهل أخاف من زوجتي؟ آها آها آها

هل تقول أخاف من الجندية؟. ماذا بعد الآن.. وتقول أخاف من العريف آ... أنا لا أخاف العقيد. أنا أخدم وطني بشرف أليس كذلك؟ ولكن... العريف إنسان مثلنا.. هل يخاف إنسان من إنسان، أبداً؟ هل تقول أن النقيب قتلني شر قتلةٍ؟ هذا أمر آخر.. هذا رئيسي.. بعض الأحيان يحبني وأحياناً أخرى يضربني. وليس لأحد علاقة بهذا الشيء. أقولها دون خوف؟.

لم أخف طوال حياتي.. ولن أخاف مستقبلاً ما دام الله في عوني. قلتها مرة وأقولها الآن، حتى عندما كنت صغيراً لم أكن أخشى شيئاً.. لأنني كنت أهرب عندما يقع حادث ما.

هل تقول من الظلام؟.. وهل الإنسان يخاف الظلام.. لا؟ الظلام والنور كلاهما سيَّان.. لا أخاف من السير في المقابر ليلاً. لأنني لا أسير هناك أبداً.. ليس لي عمل هناك حتى أمر في المقابر.. لا أذهب إلى تلك الأمكنة حتى في وضح النهار.. ثم إنني لا أطلق صافرة في الظلام، ولا أغني، وا لله ليس من الخوف. فأنا لا أغنّي حتى في النهار. والصافرة تنطلق دائما من أعماقي..

ولهذا السبب لا يسمعني أحد.

هل تقول أنني أخاف من الأحلام.. آمان ماذا سيخترعون بعد الآن؟

أنا أصرخ في الحلم ولكن ليس من الخوف.. إذا لم أصرخ في اليقظة فيجب أن يكون صراخي في الحلم أمراً عادياً... حتى إنني لا أشعر ولا أحس ولا أسمع بصراخي وأنا أحلم. ما علاقة الخوف بهذا الشيء؟.

ماذا...؟ هل تقول أخاف من الشرطة أو حراس الليل أو ما شابه ذلك.؟

وتقول أني أخاف من زعران الفنادق، ومن ضاربي العصي في الباصات والسرافيس؟ من الذي يصنع كل هذه الأكاذيب. على أية حال أنا لا أسير من أمام الشرطة ولا الحراس. ولا المخافر ولا الجندرمة المندرمة. كل هذه الاتهامات باطلة وكاذبة.

وأقسم با لله إن خوفي من السكير والمجنون باطل وكاذب.

هل تقول إنني أخاف عند الدخول إلى النوم. عدم دخولي إلى السرير لم يكن سببه الخوف... لأنني لا أحضر إلى البيت إلا عندما أكون متعباً...

لا يا سيدي أنا لا أخاف أبداً.. لا من البقاء وحيداً في المنزل، ولا من الأشخاص الذين يتحدثون أو يتجادلون بفظاظة وقساوة. ولا من ركوب السيارات مساء خوفاً من حادثة تقضي على حياتي... ولا من الجيران.. ولا من صاحب البناية اجتماعاتها الدورية. وماذا أيضاً.. أنا لا أخاف يا سيدي لا أخاف.. حتى أني أسميت ابني البكر /قورقماز/ /أي الذي لا يخاف/ والذي يليه /كوركوط/ بمعنى الخوف.

هل تقول أنني مصاب بوسواس المرض.. لا.. أبداً.. لا أخاف المرض أيضاً. هل تعرفون لماذا؟... أنا هكذا في بعض الأحيان أنسى فجأة.. أنا هكذا منذ زمن طويل.. لا أخاف المرض ولا الموت... وكما يقول أحد الفلاسفة

((كما أننا لا نعرف طعم الموت ونحن أحياء.. لا لن نعرفه ونحن أموات فما الداعي إلى الخوف من الموت إذاً. ما أصوب هذا الكلام؟.

هل تقول الخوف من الغد؟.. ماذا يعني هذا..؟. غداً الأربعاء.. أنا لا أخاف من الأربعاء أو الخميس... هل تقول.. مستقبلي.. ها ها... البقاء من دون عمل يعني.. الله وحده يعرف ما في الغد... ما الداعي لأخاف من المستقبل... وحتى يأتي الغد يخلق الله ما لا تعلمون... آ.. أنت تريد أن تأخذ كلاماً مني.

هل تقول إنني أخاف من الممنوعات.. هذا أيضاً ليس صحيحاً.. الممنوعات أو المحظورات وضعت من أجل أن نكون أحسن وأفضل (أو وضعت لصالحنا). أدام الله رؤساءنا وحفظهم من كل سوء، لقد فكروا فينا ووضعوا هذه المحظورات أنا لا أخاف القوانين. إذا كنت لا أخالفها فلماذا أخاف. نحن على الدوام نردد في منازلنا ((سيكون خيراً إنشاء الله)) أو لا يتحسن ما شاء الله)) ((الشكر لله على هذا اليوم)) ولهذا السبب لا نخاف..

هل تقول أخاف من اللمع والبرق والرعد... هل يخاف من الانسان هذه الأشياء، وهل يخاف من الوقوف في المنعطفات والزوايا.. وليس صحيحاً أن سبب دوراني حول الساحة هو الخوف من الاصطدام بشيء ما.

هل تقول إني أخاف من إزالة الوسخ من أنفي بإصبعي خشية أن يراني أحدهم .. يا الله... من أين يضعون هذا القال والقيل من أجل إنسان. هل تقول أخاف من الشهادة.. أنا لا أشهد ضد أحد حتى أخاف.. لم أشهد طيلة حياتي إلا مرة واحدة. أُجيب على كل سؤال.. لم أرَ شيئاً، لم أسمع شيئاً.

هل تقول أني أخاف من رنين جرس الباب، وقد يكون القادم شرطياً..

أو إنساناً سيطلب مني شيئاً؟.. وتقول من الرسائل. ومن الظروف الرسمية؟ ومن دعاوي المحاكم. وطلب النائب العام. ومن ديون المالية وما شابه ذلك. تقول أخاف من كل هذه الأشياء. وأقسم لك كله كذب وافتراء.

هل الانسان من التوقيع أبداً؟ لم أتناول طعاما حتى يصيب الألم بطني، لم أخف من كل ذلك أبداً.. وليس صحيحاً ما تقوله إنني أخاف من التوقيع على سجلات المحاسبة عندما أقبض راتبي.

وهل الإنسان يخاف من الهاتف؟. وهل تقول لأن المخابرات تتصنت على مكالماتي. ليتصنتوا ويسمعوا.. لأنني لا أتكلم من خلال الهاتف لا عن الحكومة ولا عن سياستها الداخلية و الخارجية. ولا أقول شيئاً عن البلديات ولا عن خدماتها في أي وقتٍ. إذاً لماذا أخاف من تصنتهم أو مراقبتهم ولأجل هذا فأنا لا أخاف منهم ولا من الهاتف ولا رنينه.. ها آ آ.. تقول إذا صدر من الهاتف صوت قوي مهدداً.. أغلق السماعة فوراً.. هل تحسب هذا خوفاً..

هل تقول أخاف من هذا /الكناري/ في القفص.. من المزهرية.. أو من القرنفل في المزهرية.. من علب الكهرباء... لا.. لا.. كفى يا دكتور. لن تقدر على تخويفي.. أنا لا أخاف يا دكتور.. لا أخاف من أحد يا دكتور..

ماذا يحصل يا دكتور... أنا لا أخاف من شيء ولا من أحدٍ. ولكن أخاف من نفسي يا دكتور لن أتكلم.. أنت لا تريد أن تأخذ من فمي شيئاً أليس كذلك يا دكتور؟...

- ١١ -

هاي ليمنحني اسمه

الطاولات مزدحمة.. وهذا المكان يشبه إلى حدٍ ما بودروم قلعة من القلاع أو مخزوناً واسعاً للخمور في قصر من القصور. فالأبواب مصنوعة من قطع الجلد. والسقف مستند إلى أقواس صغيرة، مغلفة بالأقمشة. والمكان يعبق بخليط من روائح العرق والخمر ودخان السجائر وشوي السمك واللحم، ورائحة المقالي والمخللات والبصل والعطور. وجُلُّ معظم الجالسين حول الطاولات هم من الرجال والنساء... وقد شحبت وجوههم من أضواء الشموع الخافتة والمرتجفة.

جلس سبعة أشخاص حول طاولتين التصقتا ببعضهما. لم تكن الشموع هي التي تنير طاولتهم، لكن الضوء كان يصلهم من مصباح معلق بحبل وردي فوق النافذة. ووسط الطاولات، ظهر شخص بدين ذو كرش كبير يحاول بصعوبة أن يجد لكرشه مكاناً بين الكرسي والطاولة، فإذا سحب الكرسي إلى الخلف سيبقى بعيداً عن منضدة الطعام، وإذا أبقاها كما هي فكرشه لن يرتاح. ولأجل هذا السبب كان يحاول إسناد كرشه إلى الطاولة بين حين وآخر.

كان كل واحد من السبعة الجالسين يملك من الصفات ما يميزه عن الآخر... الأول الذي يضع النظارات، كان طويلاً ورفيعاً إلى درجة يمكن تشبيهه بحبل يستخدم لربط علبة أو ما شابهها، يستطيع مستخدمه لفَّه بسهولة على بكرة أو إصبع. أما الثاني فرأسه كبير وأصلع بحيث أن صلعته

تلمع أكثر مـن ضـوء ا مصبـاح الكهربـاء المعلـق علـى النـافذة فـوق رأسـه. والثالث يملك شاربان عريضـان وطويـلان يغطيـان فمـه. وعنـد كـل حديـث يتكلم به.. كانت ترتجف شعرات شـاربيه. ورابعهـم نحيـف ونـاعم الصـوت يتكلم كالأولاد الصغار. والخامس يجب أن يكون قليل السمع أصماً لأنه كان يضع على أُذنيه جهازاً مقوياً للسمع. ويتحـدث بصـوت عـال ظنـاً منـه أن الجميع لا يسمعون مثله. أما السادس.. فكان يدخن الغليون ويتحدث هـو في فمه، ولكنه كان قليل الكلام. وكأن كل كلمة تخرج مـن فمـه لهـا كرامـة.. يحاول أن يعطي لكلامه وحديثه نوعاً من الكبرياء وينجـح في ذلـك.. فمثـلاً: عندما يقول ((هل تعطيني المملحـة))؟ فيظهـر هـذا الكـلام وكأنـه نـوع مـن الديباجة اللغوية والاجتماعية، يجعـل المسـتمع إليـه كمـن يسـتمع إلى حكمـة مأثورة أو مثل شعبي يسمعه لأول مرة في حياته.

نعم هؤلاء سبعة أشخاص.. إذا نظرت إلى أحـاديثهم ومناقشـاتهم فتقـول أنهم من المثقفين البارزين في بلدنا.

كان أبو الشارب العريض يقص حادثه. وعندما نسي اسم بطلها قال:

- يا الله.. ماذا كان اسمه يا عالم يا هو.. جميعكم تعرفونه...

قال أبو الكرش: آ آ آ عرفته.. كـان قـد عمـل فـترة في الدوائـر الخارجيـة حتى... أليس هو؟.

- هاه.. تماماً هو نفسه.. قل ما اسمه؟.

بعد أن كرر أبو الكرش كلمة.. اسمه.. اسمه.. عدة مرات قال:

- هاي لينمحي اسمه.. لم أعد أتذكر.

تكلم أبو الغليون وكأنه وضع إصبعه في مشكلة هامـة جـداً مـن مشـاكل الوطن الكثيرة..

- لقد عرفته... كان قد أسس جمعية.. لها الكثير من الأموال.. شيء من هذا القبيل.. استمرت محاكمته عدة سنوات.. ونام فوق كل الأموال.

- نعم هذا هو.. ولكن ما كان اسمه؟.

- اسمه.. اسمه.. اسمه.. هاي ليمحى اسمه..

- أنا الآخر لا أذكر اسمه أبداً..

أنَّ ـ وزَّ صاحب الصوت الناعم مثل صوت بعوضة

- لقد عرفته.. لقد عرفته.. أظن أنه كان يعزف على القانون في اجتماعات الموسيقيين الهواة بشكل جيد... ماذا كان اسمه؟ توه.. ليُمحى اسمه.

صرخ الذي يسمع بصعوبة.

- لقد وجدته... حتى أن في اسمه حرف /التاء/ ت أليس كذلك.؟

- نعم.. نعم.. اسم معلق بالتاء..

- الأسماء التي أعرفها جيداً، لا أتذكرها. بل أتذكر حروفاً من تلك الأسماء وهذا الإنسان يوجد حرف التاء في اسمه.

- هاي ليمحى اسمه.. ولك ماذا كان اسم هذا الشخص؟ كلنا نعرفه؟.

أيقظ صاحب الصوت الناعم جلساءه رافعاً قدحه نحو الأعلى...

- لنشرب أيها السادة.... لنشرب.

- على شرفك.

- لنقل مرحباً...

ضربوا الأقداح ببعضها.

تكلم الرجل الطويل أبو النظارات قائلاً:

- إذا لم أجد الآن اسم هذا الرجل.. فلن أستطيع أن أفكر بشيء آخر. ولن يغمض لي جفن هذه الليلة.

قال الرجل الأصلع: أنا الآخر سأظل بدون نومٍ إذا لم أتذكر اسمه، فليمحى اسمه.

وأضاف بعد أن رشف جرعة العرق المتبقية في قدحه وتناول بالشوكة قطعة من المأكولات ووضعها في فمه.. قال:

- أعرفه تمام المعرفة يا روحي.. بحيث أننا سكنا معاً في بناية واحدة في شقتين متقابلتين.. لقد سكن الرجل عامين كاملين دون أن يدفع أجار شقته. و لم يرضَ بإخلاء الشقة إلا بعد أن أخذ من صاحبها أموالاً إضافية. إنه إنسان رذيل.

قال الرجل أبو الكرش: أنا أعرفه جيداً.. لم يدفع أجاراً لأي شقة سكن فيها طيلة حياته.

- ليس للبيوت فقط.. بل للمصايف أيضاً.. لم يدفع لها الإيجار أبداً.

- يا عالم.. بماذا ينادون ذلك الشخص؟ ألا تعرفونه.. إنه كان مقامراً أيضاً.

مهما أحاول تذكر اسمه فلا أستطيع أن أتوصل إلى ذلك سبيلاً.

إن اسمه على طرف لساني.. ليمحى اسم هذا /الواطي/.

- ترتبت عليه ديون كثيرة من القمار.

- كان يراهن في كل سباق أيضاً... أعرفه بشكل...

- نعم يا روحي... كلنا نعرفه جيداً... ولكن لا نستطيع تذكر اسمه..

دخل الرجل الأصلع ثانية في غمار الحديث وقال:

- ما اسم زوجته الأخيرة؟.. ألم يكن اسمها /ميرنا/.

- نعم /مبرنا/ انظر إننا نتذكر اسم زوجته..

- ألم يطلقها؟

- لقد أرغم على طلاقها... بعد تلك الفضيحة.

- حقيقية فضيحة كبيرة.

- لقد طلقها رسمياً.. ولكنه لم يتركها نهائياً.

- حسب معلوماتي.. أنه تزوج امرأة ثانية.

- زواجه الخامس لم يكن بالنكاح الرسمي والشرعي.

- آه أكاد أنفجر.. كان في اسمه حرف ثاء ولكن..

- إن زوجته الأخيرة تصغره بسبعة أعوام من ابنة زوجته الثانية واسم ابنته... هم م م .. تمام... إن اسمها /نورشان/

- أما صفحة ابنه الصغير فهي سوداء.

- أي.. هو الآخر مثل ابنه غشيم وحمار في المدرسة.. قبض عليه وهو يسرق رفاقه.

- هل سمعتم أنا ما كنت أعرف سوابقه

قال الرجل الناعم الصوت:

- هذه لا تعد سابقة.. ولكنه إنساني لوطي.. أنا لم أشاهده، ولكنهم كانوا ينعتونه بهذه الصفة.

- كما يقول المثل: لا دخان بلا نار.

- الذنب ذنب الرواة..

- ولكن كما تعلمون أن /اللوطية/ منتشرة جداً في هذه الأيام. ألا تعرفون أنهم بعد مدة قصيرة سيشكلون الأكثرية. يجب الانتباه من الآن...

انقطع صوته من جراء الضحكة العالية التي صدرت من الأشخاص السبعة دفعة واحدة

قال أبو الشارب العريض وهو يصفف شعرات شاربه.

- هل من المعقول أن لا يتذكر أحد منا اسمه.؟ ليختفي اسمه إلى الأبد.

- كما تعرفون أنه كان يدرس في مدرسة داخلية.. يقولون أنه اعتاد على سرقة لوازم رفاقه من خزاناتهم ودروجهم..

- أو.. أووو.. أنا أعرف طبيعته جيداً.. اللي عندو عادة ما فيه يتركها يا صديقي.. هو هكذا دائماً..

دخل الرجل الذي يسمع بصعوبة على الحديث وهو يصرخ، ظناً منه أن كل الموجودين لا يسمعون مثله.

- في أحد الأيام اتصل معنا هاتفياً على أحد المصايف، وطلب الحضور إلينا لأمر هام.. طبعاً لا نستطيع أن نقول له لا تحضر. فقلت له تفضل.. ومن سوء الحظ كنت قد وضعت مبلغاً من المال فوق المنضدة جهزته لأدفعه للمصرف.. لم أضع المبلغ أمام كوة المحاسب لأن الصراف كان سيأتي خلال بعد قليل... وخلال دقائق جاء صاحبنا هذا...

سأله أبو الغليون.. من....؟

- وِلَكْ الشخص الذي لا نتذكر اسمه.. متى حضر... أعرف جيداً بأنه سيسحب رزمة أوراق نقدية برموشه، وعيونه... عندما قرع الباب فجأة أسرعتُ إلى المبلغ ووضعته على الرف بين الكتب، المهم.. جاء هذا.. لم أعد أتذكر موضوع مناقشتنا آنذاك.. ثم غادر المكتب بعد قليل...

KMH

عندما نظرت إلى مكان وجود المال.. لم أجده...

- طبعاً سرقه، ومن يكون غيره؟.

- لا يا روحي.. كيف سيأخذه.. هو لا يعلم مكانه..

- أي.. وماذا جرى للمال.

- بالتأكيد نسيت في أي مكان وضعته فتشت عنه كثيراً فلم أجده. كنت قد خبأته في مكان.. بحيث أنني شخصياً لم أستطع كشف مكان وجوده..

- وبعدين...

- وجدته.. ولكن لم يصلح لشيء.

- ولماذا؟

- كانت تلك النقود قد أصبحت باطلة.. نقوداً غير صالحة.

- تو.. انظر إلى هذا الشيء.. إنه بسببه.. ولك أيا كان اسمه: الله يمحيه من الوجود.

دخل الرجل الناعم الصوت على الحديث.

- كنا قد خدمنا الجيش في قطعة واحدة.. والآن لا أتذكر اسمه رغم أن ذكريات الخدمة العسكرية لا تنسى. كان يلبس سروالاً داخلياً طويلاً... ويشكو دائماً من الروماتيزم.

- و يشتكي من /الباسور/ أيضاً أليس كذلك؟

- نعم.. كانت له حلمات من الباسور أزالها بعملية جراحية.

- كم هو قريب منا..

- لو تهمنا معرفة اسمه لتذكرناه فوراً. هكذا دائماً لا أتذكر اسم أي شيء عندما أحتاجه.

- أنا أيضاً يحصل معي مثل هذا.. حتى في حياتي المدرسية.. كلما كان المدرس يسألني.. كان صوتي يختفي. مع أنني أعرف الجواب. ولكن لا أتذكره في تلك اللحظة. وعندما كنت أذهب إلى المرحاض..عندها يحضر الجواب في ذاكرتي..

- أي.. وكما قالوا.. ((في أي وقت.. يأتي العقل)).

- وهذا الرجل لا تتذكر اسمه الآن. ما رأيك لو تذهب إلى المرحاض ربما تتذكر اسمه هناك.

تكلم الرجل أبو الغليون وكأنه يخطب بجدية في ساحة كبيرة.

- هيا لنشرب أيها السادة.

تكلم الرجل الذي اسند بطنه إلى المنضدة ونال قسطاً من الراحة:

- نحن الآن سبعة أشخاص... نعرف الرجل من أساسه إلى رأسه إلى كل تفصيلات حياته.. ولكننا جميعاً لا نتذكر اسمه.

- إننا نعرف اسمه.. إنه مرتبط بحرف التاء (ت).

قال أبو الشارب العريض:

- حتى إن الرقم الذي يتشاءم منه هو /٩/ وإذا سألتموني من أين عرفت ذلك، كنت مرة معه نشتري ورقة يانصيب، فقد اشترى جميع الأرقام المنتهية بالتسعة. ولم يربح قرشاً.

- ولِك وا لله بدي جن.. ما هو اسم هذا الرجل؟.

- إنه مرتبط بحرف التاء.

تكلم الرجل الأصم فجأة:

- اترك هذا الشيء.. تُردِّد بين حين وآخر أن اسم مرتبط بالتاء. في هذا

العالم ملايين الأشياء والأسماء فيها حرف التاء. المهم في الأمر أين موقع التاء في اسمه.. هل هي في أوله؟ أو آخره؟ أم في وسطه أم غير موجودة نهائياً؟ ولكن أين؟

- على شرفكم وصحتكم أيها الأصدقاء.

- هل ورث تلك البناية الرائعة في /قانليجا/ عن أبيه

أجاب صاحب البطن الكبير.

- أنت تضحكني.. هل الانسان الذي لا يدفع أجار منزله بناية ورثها. من هو أباه حتى يرث منه البناية.. كان أباه يعمل خادماً في مديرية السجل المدني في الناحية. ووالدته تذهب إلى العمل في البيوت. أعرف ذلك جيداً. يسكنون في حي شعبي ويقطنون بيتاً بسيطاً جداً، أعرفه منذ طفولتي في ذلك الحي، حتى الآن لم أتذكر اسمه.

- طيب.. وتلك البناية..؟.

- تخص زوجته الأولى.. التي تكبره بأربعين عاماً. تزوجها من أجل مالها.. على أمل أن تموت خلال وقت قصير. والمرأة ما شاء الله.. لم تعد تعرف الموت ولا تفكر فيه //إنها من طينة قديمة// شرهة جداً للطعام.. تحب بطنها كثيراً.. وصاحبنا..

- أي واحد؟

- ذلك الإنسان الذي لا نتذكر اسمه والذي فيه حرف التاء.. فكَّر بطريقة لقتلها.. كانت زوجته تحب /الكاتو/ كثيراً. وصاحبنا يأتيها /بالكاتو/ في كل مساء.. كانت بدورها تراه رجلاً ناعماً وفياً لأنه يأتيها /بالكاتو/. في أحد الأيام وضع صاحبنا على /الكاتو/ سكراً مسهلاً للبطن.. وبدأت المرأة تروح وترجع إلى المرحاض.. حتى لم تستطيع الخروج منه. كلما كانت تأكل من

الكاتو.. يشتد الإسهال عليها. أصبحت المرأة جلداً على عظم فقط، ثم ما لبثت أن سلمت روحها. يقولون أنها ماتت في المرحاض.

- أعرفه بشكل جيد حتى أن قدماه مسطحتان.. هل تعرفون هذا الشيء. وبما أنهما مسطحتين. كان لا يستطيع الجري في المدرسة.

- اترك هذا الأمر جانباً، فإنه كان يشخر شخيراً غير معقول في الليل. تحسب أنهم يذبحون أربعين ثوراً دفعة واحدة. سافرنا معه ذات مرة إلى إنكلترا ونزلنا في فندق واحد.. اترك صاحب الفندق جانباً، لكن القاطنين قريباً من الفندق حضروا إلينا في الليل ظناً منهم أن شخصاً يذبح أو يقتل.. من قوة شخيره.

- في صحتكم أيها السادة.

- صحتنا جميعاً..

صرخ الرجل الطويل أبو النظارات وهو يضع قدح العرق على المنضدة.

- تمام... لقد تذكرت الآن..

سأله الجميع دفعة واحدة وبحماس.

- اسمه..

- ليمحي اسمه. لم أتذكر اسمه ولكن تذكرت رقصته /للفيفتاتللي/ Fiftetelli ((رقصة شعبية تركية مشهورة جداً)) المترجم. كان يصعد على طاولة ما في الاجتماعات أو الاحتفالات التي كنا نقيمها للفرح والتسلية. ويهز بطنه بشكل عجيب، ويربط غطاء المنضدة على خصره فتحسبه وكأنه راقصة شرقية من الدرجة الأولى.

قولوا لي ما اسمه؟.

- إنني أعرف من أي برج أيضاً.. إنه من برج الدلو.

- اسمه.. اسمه.. اسمه.. نعم.. له حرف التاء.. قولوا لي ما اسمـه.. وإلا... لن أستطيع أن أنام هذه الليلة..

- وِلَكْ عمي لو عرفنا اسمه قلناه لك، فاسمه ليس سراً من أسرار الدولة.

- كان يظن نفسه أنه يعرف اللغة الإنكليزية..لكن هذا هراء..

- أليس في اسمه حرف تاء؟ فلنعدد الأسماء التي فيها حرف التاء.

تامر.. تامرلان.. توران..

- ماذا بعد ذلك؟ إن حرف التاء في اسمه ليس في أوله بل في آخره حسب ما أتذكر.

- أنا لم يبق لدي عقل.

- هل كان في اسمه حرف السين S.

- أعتقد أنه يوجد.

- نعم... نعم.. S - T - R...

صرخ الرجل الأصلع: الآن وجدناه.... Sttrrr ستتررر

صدرت قهقهة كبيرة. فقال الرجل البدين الساند كرشه على الطاولة.

- إن اسمه يغدو ويجيء على لساننا في كل زمـان ومكـان. انظـر إلى هـذا الشيء... إننا لا نتذكره الآن.

رفع أبو الغليون قدحه كمـا يرفـع شـيف الاوركسـترا باكيتـه إلى الأعلـى وقال: ليكن هذا اليوم أسوأ أيامنا.

- كنت أشعر باشمئزاز وهو يزيل الفضلات بلسانه من بين أسنانه بعد كل طعام و يصدر صوتاً كريهاً نافخاً وجنتيه.

قال الرجل الأصلع: هل أعطيكم سراً بالنسبة إليه؟.. إنه /رونتفنتي/

- ولَك ما هذا رونتفتيي..

- ولـك إنـه /متلصلص/.. يراقـب النـاس مـن خـلال النوافـذ والسـتائر المكشوفة.. حتى أنه يصعـد إلى السـطوح في الشـتاء وعلـى أعمـدة الهـاتف، ليراقب الآخرين.

- ولكن وا لله إن اسمه على رأس لساني...

- أنا أيضاً..

- هاي ليختفي اسمه.

تكلم الرجال السبعة والذين أعمارهم تناهز العمر المتوسط بقليل.. والذين يظهرون بمظهر الرجال المثقفين.. تحادثوا دون توقـف عـن صديقهـم الـذي لم يعرفوا اسمه. و لم يبق لهم وقت ليتحدثوا عن شيء آخـر. تذكـروا عـن الرجـل كـل شـيء.. يعمـل في الاستشـارة الخارجيـة. وفي جمعيـة وسـرقها، ونهبهـا. يعزف على القـانون في الاجتماعـات الموسـيقية للهـواة. ووجـود حرفـاً التـاء والسين في اسمه. لا يدفع أجار البيوت والمصايف التي يسـكن فيهـا.. ويطلـب من أصحابها فروغاً عند إخلائها. يقامر ولا يدفع ديون القمار.. يراهن علـى سباق الخيول. زوجته الأولى تكبره بأربعين عاماً، قتلها عمـداً عندمـا أطعمهـا الكاتو الممزوج بسكر الإسهال.. وماتت في المرحاض.. وزوجته الثالثة ميرنا. خانته وطلقها ومع هذا لم ينه علاقته بها.. وعمـر زوجتـه الرابعـة أصغـر مـن بنت زوجته الثانية، هو وابنه لو طيان.. يسرق أصدقاء في المدرسـة الداخليـة، يلبس سروالاً طويلاً، لأنه يشكو من الروماتيزم. الرقم تسعة هو رقم شـؤمه.. كان والده يعمل خادماً في مديرية السجل المدني في الناحية.. وأمـه تعمـل في البيوت. قدماه مسطحتان. لا يستطيع الجري بهما. ويرقص /الجيفتـاتللي/ في

الاحتفالات. ومن مواليد برج الدلو... يتظاهر بمعرفة الإنكليزية. يشخر خلال نومه. وينظف أسنانه بعد الطعام بلسانه مصدراً صوتاً كريهاً. يراقب المنازل سراً في الليالي. لقد تذكروا أشياء وأشياء عن صديقهم ولكنهم لم يتوصلوا إلى تذكر اسمه.

دفع الرجال السبعة الحساب وهم على هيئة السادة الكبار وغادروا الطاولة، وخرجوا إلى الشارع... وشرعوا وهم يهمون بركوب سياراتهم، بمناقشات جديدة.

- أنا لن يغمض لي جفن إذا لم أجد اسم هذا الرجل.

- أنا الآخر لن أستطيع النوم.

- هاي ليختفي اسمه.

- ماذا يحصل.. إذا تذكرت اسمه. حاول أن تتصل معي هاتفياً حتى ولو أزعجتك بعض الشيء.

- وأنت اتصل معي.

- ليكن اسمه غير موجوداً.

- في مكان من اسمه كان حرف تاء.. ولكن

- هيا.. ليختف اسمه.. لقد جعل ليلتنا سماً... تصبحون على خير.

- وأنتم أيها الأصدقاء.. كان كل شيء على ما يرام لو وجدنا اسم هذا الحمار ابن الحمار.

- ١٢ -

المدنية ((مستوى الحياة العصرية))

أحبائي المواطنون...... (أصوات نعم يا سيدي).. سأقول لكم شيئاً (أصوات.. تفضل). لقد خربوا حتى لغتنا. لغتنا التي كنا نتحدث بها (على مستوى مدنية معاصرة) جعلوها لغة نتحدث بها على طريقة (دوزان الحضارة المعاصرة). هل تفهمون شيئاً من هذه اللغة؟ (أصوات.. لأنفسهم) بالتأكيد لن تفهموها. لأنني شخصياً لا أفهمها..

سأقول لكم شيئاً آخر. إن إنساننا لا يستطيع أن يقوم برد الفعل المناسب على ذلك. فأنا محتار من نفسي. لأن المجتمعات التي تعيش في المدنيات المعاصرة يعبرون عن ردود أفعالهم.. لماذا لا يستطيع مجتمعنا إظهار التعبير عن هذه الردود.. انظروا.. الحال في أوروبا ليست كما هو عندنا. فإنسان المجتمعات الغربية. إذا ظهرت أمامهم حركة لم تعجبهم أو إذا حاول أحدهم مخالفة أحد القوانين أو مادة منها أو تعليمات تخالفها. فتظهر ردود أفعالهم فوراً اتجاه تلك المخالفات.

استمعوا.. سأعطيكم مثالاً أو مثالين شهدتهما شخصياً وهما من صميم حياتي الخاصة. قبل ثلاثين عاماً من الآن بريطانيا بمهمة رسمية. وكنت أقضي أوقات راحتي في إحدى الحدائق العامة. ولكنها لم تكن تلك الحديقة المشهورة /هايت بارك/. كنت أتجول في الحديقة وأتناول بعض الفستق والبزورات، إضافة إلى التدخين. وعندما يأكل الإنسان الفستق ماذا يفعل؟. يأكل اللب ويرمي القشرة على الأرض. اقترب مني رجل وامرأة مسنين إلى حدٍ ما. اصطحباني إلى دليل يعرف لغتنا لأنني كما قلت كنت على رأس وفد بمهمةٍ

رسمية. سئل الرجل والمرأة الدليل المرافق بالإنكليزية: ماذا يفعل هذا الرجل. فكان جوابي عادياً قلت لهما بأني آكل الفستق. وسألاه.. لماذا يأكل لبه ويرمي بقشره على الأرض. وكان جوابي.. ماذا أفعل غير ذلك يعني.. هل كان علي أن أكل القشرة وأرمي اللب على الأرض. عندها قال دليلي بالإنكليزية المعذرة يا سيدي عندنا في بريطانيا لا نرمي القشور على الأرض. لم أفهم بادئ الأمر.. وحسبت أن الإنكليز يأكلون الفستق مع قشره. ولكن الأمر لم يكن كذلك.. كان سبب غضبهم علي لأنني أرمي قشر الفستق على الأرض وليس في سلال المهملات أو /تنكات الزبالة/ فأشار على الرجل الإنكليزي زوجته إلى علب القمامة الموزعة في الحديقة. في تلك اللحظة تماماً كنت قد رميت بعقب سيكارتي على الأرض. أنا رجل نظامي واحتياطي جداً. إذا رميت بعقب السيجارة على الأرض لا أتركه هكذا.. من يدري.. ماذا يحصل.. وربما يتسبب في حريق كبير.. فاستخدمت قدمي في إطفاء السيجارة حتى تفتفت وتناثرت. في تلك اللحظة كان الرجل والمرأة الإنكليزيان ينظران إلى تصرفاتي بدهشة وحيرة.. وصرخا بي ماذا تفعل؟ قال الدليل: إن أعقاب السجاير لا تُرمى على الأرض في إنكلترا.. ايـ... وماذا نفعل بها؟. هل أرميها في جيبي؟ قال تطفئها جيداً وتلقيها في علبة القمامة.

انظروا أيها المواطنون.. كيف يظهرون ردود أفعالهم على مخالفة بسيطة لتعليمات البلدية. لو كان الأمر عندنا. تستطيع أن ترم عقب السيجارة على الأرض وفي الهواء. وما أحدٍ لأحد لأننا لا نعرف إظهار ردود الفعل.

ومرة ثانية ذهبت إلى النمسا بمهمة رسمية أيضاً. وقد أعطوني مرافقاً لغوياً يدلني ويرشدني. كنت أسير مع دليلي في إحدى حارات /فيينا/ وكما تعلمون أن مدينة فيينا كادت أن تكون مدينة من مدننا في زمن /يني جري/

/العسكر الجديد/. المهم لنقطع هذا الموضوع... وبينما نحن سائران فلم أجد نفسي إلا وأبصق على الأرض بعفوية دون أن أشعر بذلك.. في هذه المرة جاء الرد سريعاً ليس من أحدٍ... بل من مرافقي.. حيث قال لي: ((المعذرة يا سيدي إنني أحاول تنبيهك من هذا العمل قبل أن يأتي الرد من الآخرين. هنا لا أحد يبصق على الأرض)).

بطبيعة الحال وعادي جداً أن أخجل من نفسي.. نعم لقد خجلت جداً وأصبحت في موقف ضعيف ومهزوز. وبينما أنا في هذه الحال قلت لدليلي: ((هذا حسن جداً ولكن لا وجود للوحة أو تحذير يمنع البصق على الأرض. وكلامي هذا فيه عين الصواب، وإذا لم توضع لوحة أو يلصق تحذير مكتوب علبة الحظر، فكيف سيعرف الناس ذلك... وأنتم كما تعلمون وضع بلدنا من هذه الناحية. اللوحات المانعة وضعت في كل مكان: ((ممنوع البصاق على الأرض))، ((من يبول هنا جحش ابن جحش)) ((تواليت خصوصي للحمير)) ((ممنوع رمي الأوساخ وأعقاب السجائر على الأرض)) هذا البحر تابع لهذه البناية. السباحة ممنوعة هنا)) ((ممنوع الدخول إلى هذه المنشأة)) ((ممنوع قطف الأزهار)). مع وجود كل هذه اللوحات المانعة. فلماذا يخالف المواطنون كل هذه التعليمات؟.. لأنهم جاهلون؟. أميون لا يقرأون ولا يكتبون. وليس لهم القدرة على قراءة هذه اللوحات وفهمها.

أما الآن وكما تعلمون.. فقد فتحنا حرباً طاحنة على الأمية... بحيث أصبحت نسبة المتعلمين ٧٠٪. إذن يعد الآن ٧٠٪ من مواطنينا لن يبولوا تحت اللوحة التي كتبت عليها عبارة ((تواليت خصوصي للحمير)) (أصوات، دمتم لنا وتصفيق متواصل). حتى أن حادثة جرت عندنا: جاء أحد الألمان وعاش في تركيا مدة من الزمن. لقد ظن هذا الألماني أن الكلمات المكتوبة على جدار منزله المطل على الشارع)) هذا المكان خصوصي للحمير)) إنها

تدل على اسم الشارع.. وعندما عاد إلى ألمانيا أرسل رسالة إلى جاره في تركيا، بعنوان الشارع ((خصيصاً للحمير)) معنى هذا: أنه عندما تغيب اللوحات المانعة كيف سيفهم الإنسان حظر شيء من الأشياء أو تصرف من التصرفات.

انظروا سأروي لكم إحدى ذكرياتي: في أحد الأيام كنت مسافراً في قطار: لقد علقت في أعلى نافذة الغرفة لوحة كتب عليها ((لا تتعلقوا نحو الخارج)) ((يعني ممنوع مد الأيدي والرؤوس من النوافذ المعدنية))... هكذا.

هل تعلمون ماذا فعل المسافرون. أزالوا بمادة معدنية الحروف التالية من كلمة لا تتعلقوا. فأزالوا حرف من أول الكلمة وحرفاً من آخرها... فأصبح معنى العبارة المعلقة على اللوحة. ((أيها الدب تعلق في الخارج)). هل هذا التصرف معقول؟! إنه عيب كبير. انظروا إليه وانظروا إلى حالنا. إنهم يظهرون ردود أفعالهم على كل مخالفة لتعليمات البلدية... ونحن ماذا نفعل؟

نقول: أيها الدب تعلق في الخارج. انظروا إلى هذا الفرق بين الطرفين.

وعندما يكون مقدار الفرق كبيراً إلى هذه الدرجة. فكيف علينا أن نجتاز مستوى المدنية المعاصرة؟

كنت أحاول توضيح ردود أفعال المجتمعات الغربية في حال مخالفة قانون من القوانين أو نظاماً من الأنظمة. أيضاً في أحد الأيام وقبل أكثر من عشرين عاماً ذهبت إلى ألمانيا بمهمة رسمية... لم أعد أتذكر مر وقت طويل، في أية مدينة كنا.. ربما /هامبورغ أو برلين/ أو مكان من هذا القبيل وكالعادة أعطوني مرافقاً يجيد اللغة التركية. كنت في عجلة من أمري ولهذا كنت غارقاً في التفكير العميق.. وكان علينا أن نجتاز الشارع إلى الطرف الآخر وبينما نحن على وشك اجتيازه وإذا بامرأة ألمانية مسنة تمسك من ساعدي. وأشارت

إلى الإشارة الضوئية. كانت الإشارة حمراء.. وعلى حسب ما قاله مرافقي فإن المرأة قد قالت في حقي كلاماً كبيراً. انظروا إلى رد الفعل الأوروبي... إذا لم تطبق أنظمة البلدية وأوامر الحكومة وقانون الدولة، فيظهر رد فعله مباشرة. ما في لا سيارة ولا ميارة والإشارة حمراء، ماذا يحصل إذا اجتزت الشارع؟.

هذا لن يكون. أنا من جهتي ومن الطبيعي جداً قلت للمرأة عفوك سيدتي. ومنذ ذلك اليوم لا اجتاز إلا إذا كانت الإشارة حمراء.

نحن أيضاً يجب أن نعتاد على إظهار ردود الفعل.. يجب أن نكون من المجتمعات التي تظهر ردود أفعالها. ويجب علينا أن نقف وبشكل حازم ونظهر رد فعلنا مباشرة على كل من يخالف الأنظمة والقوانين والتعليمات والأوامر. لأننا لا نستطيع اجتياز مستوى المدنية المعاصرة إلا عن هذا الطريق. انظروا يا أبناء هذا الوطن.. سأعطيكم مثالاً آخر.

في إحدى المرات أيضاً كنت بمهمة في فرنسا.. وكما تعرفون أن باريس عاصمة فرنسا.. هذه المرة كان مرافقي امرأة. سألتني: إلى أي الأماكن تريد أن تذهب في باريس، وأي الأماكن تريد أن تراها عن كثب.

يا الله.. ماذا سأقول لها.. الزائرون لباريس يعرفون جيداً: حارة مشهورة جداً حارة /الشانزليزيه/. كحارة الاستقلال في استنبول. في ذلك المكان يوجد دار عرض سينمائية.. عندما نظرت إلى إعلاناتها وصورها.. وجدت أنهم يعرضون فيلم /ايمانويل/. كنت قد سمعت كثيراً عن شهرة هذا الفيلم.. قلت للمرأة. بأنني أريد البقاء لوحدي بضع ساعات، فهمت قصدي.. قالت: هذا الفيلم بالفرنسية.. ما الفرق.. أنا لن أدخل لأسمع الفيلم بل لأراه.. المهم في النهاية بدلت رأيي و لم أدخل السينما.

منذ أيام دراستي وأنا أفكر /بنابليون/.. قلت في نفسي إذا لم يكتب لنا نصيب بمشاهدته شخصياً.. على الأقل يجب زيارة قصره.. ركبنا السيارة وانطلقنا نحو قصر /نابليون/. وبينما نحن في الطريق.. /انحشكت/... هذه طبيعة إنسانية...! ما هذا؟.. ماذا سأفعل الآن.. أكاد أنفجر... راض عن كل شيء. ولكن يجب أن أتبول... وكيف ومرافقتي جنبي: قلت للسائق من فضلك توقف يا بني. عندما توقفت السيارة رميت نفسي منها. أجرى مرة إلى اليمين ومرة إلى اليسار.. ليس من مكان خال من البشر. المهم وجدت زاوية.. خلال لحظات قليلة تجمع الناس من حولي.. من أين خرج كل هؤلاء.. العمى... الذي يصرخ.. والذي ينادي والذي يتكلم.

وكأنهم خرجوا إلى اصطياد أحد الإرهابيين.. المهم وصلت مرافقتي وخلصتني من أيديهم بصعوبة. لا أثر للوحة (ممنوع التبول هنا). وغير مكتوب في هذا المكان أنه مخصص لأي شيء.. كان ثمة تواليت عمومي بالقرب منا.. دخلت إليه وقضيت حاجتي.

يعني.. أن ما أود قوله هو أنهم يظهرون ردود أفعالهم ونحن أيضاً يجب أن نظهر ردود أفعالنا لكل من يخالف الأنظمة والقوانين والتعليمات. وعلى الذين يتبولون ويبصقون على الأرض. إذا كان الحاصل هكذا أيها المواطنون... فكيف سنجتاز مستويات المدنية المعاصرة (أصوات.. عاش.. ودمتم لنا).

انظروا أيها الأخوة المواطنون.. سأقص عليكم حادثة جرت معي شخصياً. في أحد الأيام كنت موجوداً في /بروكسل/... عليكم الصحة والعافية.. وكنت مصاباً /بالرشح والكريب/ (أصوات: حمداً على السلامة) ليس الآن. في ذلك الوقت طبعاً. أصابني العطاس الشديد. (أصوات.. عش كثيراً)

ملاحظة: (إذا عطس أحدهم في تركيــة فيجيبه الآخـرون).. عـش كثيراً على غرار رحمكم الله عندنا. عيشوا أنتم أيضاً.

ثم في النهاية يا سيدي.. استمرت الحال على العطاس والسـعال. في تلـك الحالة، ما كان علي أن أخرج من فراشي ولكن الوظيفة أهم وأقدس من كـل شيء قلت هذا وذهبت الوليمة أو المأدبة التي أقيمت من أجلي. في هـذه المـرة كان مرافقي رجل وبينما نحن على المائدة وإذا بعطسة قوية تـأتيني. ومـع إنـني مددت يدي إلى جيبي لأخرج المنديـل حتـى أضعـه علـى فمـي لكـن العطسـة كانت قد خرجت، وكأنها فرمان ملك من الملوك.. ربما أنني مددت يدي إلى جيبي فلم أقدر أن أغلق فمي بيـدي.. وكـأن القيامـة قـامت.. رد فعـل قـوي جداً.. ضدي.

انظروا يا أبناء هذا الوطـن.. مـرة أخـرى كنـت في إيطاليـا.. الإيطـاليون يقولون عن لحم بعجين /بيتزا/ Piza //لحم بـالعجين أو الصفـايح/ تسـمى في تركية أيضاً /لَهْم آجـون/ لأنهـم لا يسـتطيعون لفـظ حـرف الحـاء والعيـن// المترجم.

هؤلاء الإيطاليون أمة غريبة.. فإنهم سموا مدينة باسم /بيزا/. إذا قمنا نحـن على تسمية مدينة من مدننا لحم بالعجين فإنهم يضحكون علينا.

الإيطاليون سموا مدينة اسمها بيزا ولا أحد يضحـك أو يسـخر منهـم. كـل شيء هناك اسمه /بيزا/.. مدينة بيزا.. بـرج بيزا. كـانوا سـيأخذونني في تلـك المدينة مدينة /بيزا/ لزيارة متحف بيزا.

في هذه المرة أيضاً كان مرافقي رجل.. أتحـدث معـه بالإنكليزيـة.. ولكـن إنكليزية الرجلِ ضعيفة.. وإذا سألتموني كيـف عرفـت ذلـك؟. لأنـه قـال لي ذلـك شـخصياً.. المهـم.. وأنـا أخطـو أول خطـوة في المتحــف وإذا بالنــاس

الموجودين هناك هبوا دفعة واحدة.. لا أستطيع أن أفهمهم.. ولكنهم غضبوا من شيء بالتأكيد.. يجب أن أكون قد خالفت قانوناً أو نظاماً أو تعليمات... ولكن أي واحد منهم.. لا أدري. كانوا يؤشرون إلى المكان الذي أطأ فيه قدمي.. وعندما نظرت إلى قدمي.. ما ذا أرى.. وجدت أن قدماي موحلتان.. وما من لوحة تحذر من هذا الشيء //ممنوع الدخول بالأرجل الموحلة//. ما أريد قوله: إنهم يعرفون إظهار ردود أفعالهم. ولست أدري لماذا ولأجل أي شيء نحن لا نعرف ذلك.

انظروا أيها الأخوة.. سأقص عليكم هذه الواقعة التي جرت معي شخصياً لم أعد أتذكر في أي دولة السويد أو سويسرا. أوفدت بمهمة رسمية. وعزمت على ركوب القطار.. طبعاً سأقطع تذكرة أولاً.. ولكن شباك التذاكر مزدحم بأعداد هائلة من المسافرين.. كنت في عجلة من أمري، فقلت في نفسي سأدفع الواقف أمامي بلطف حتى أصل الكوة أقطع التذكرة قبلهم.. آه يا سيدي... أي رد فعل قوي أصابني.. وما يدريني أن الدفع بالمرفق وأخذ دور الآخرين ممنوع..

((أصوات دون انقطاع.. أنت الكبير ما في أكبر منك لا أحد يستطيع أن يأخذ دورك)) أما نحن إذا ضَربنا أو ضُربنا فالأمر سيان.. لا نظهر أي رد فعل على الإطلاق.. ولكن أيها المواطنون الكرام.. أقولها لكم وبصراحة وأسجلها ها هنا إذا سارت الأمور على ما هي عليه. إما أن نقطع التذكرة أو يختار مستوى المدنية المعاصرة يجب على كل فرد مهما كانت موقعه في السلطة احترام القوانين والأنظمة والتعليمات والأوامر.

واتخاذ موقف رد فعل على كل مخالفة. وإلا فإننا أيها الأخوة المواطنون لن نجتاز مستوى المدنية المعاصرة. هذه (أصوات وهتافات مفهومة وغير مفهومة).

- ١٣ -
كلوا لوجه الله

لي ابن خالة.. والحقيقة أن لي أولاد أو أبناء خالات كثيرون.. وهذا واحد منهم.. من المعلوم أن درجة حرارة جسم الإنسان تقاس بميزان الحرارة لو وجد مقياس لقياس اجتهاد وذكاء مثل هؤلاء الناس. لكان ابن خالتي من الأوائل. أنهى ابن خالتي الصف الثالث الابتدائي ثم ترك المدرسة والدراسة نهائياً، لكنه في وضعه العلمي البسيط هذا، يضع أربعين جامعياً في جيبه، فقد منحه الله سبحانه وتعالى... عقلاً وفكراً يحسد عليه.. لقد أعطاه العقل وهو في بطن أمه...

قبل أن يكتشف الجيش العمالي ألمانيا بحثاً عن الخبز والعمل.. ذهب ابن خالتي إليها قبل ذهاب العمال بزمن طويل. وبعد عشر سنوات عاد من ألمانيا.. وأية عودة؟! كان قد تغير كثيراً. لم نعرفه في بداية الأمر. حسبناه ألمانياً أصلياً بكل معنى الكلمة. تعلم الألمانية على أكمل وجه، نستطيع أن نقول أنها لغته الرسمية الفصحى، ولغته تركية قد تكسَّرت إلى حد ما. وفي بعض مفرداتها.. يتكلم التركية وهو يتلعثم قائلاً ((آ آ آ.. كيف يلفظون هذه الكلمة؟)) وحسب ما يدعيه.. فإن كثيراً من الألمان لا يفهمون ولا يتكلمون مثله اللغة الألمانية. وثمة عادة اعتادها وهو يتكلم الألمانية والتركية.. والعادة هي أن يلفظ ((آه.. زو)) في بداية ووسط ونهاية كل كلمة ينطقها.. ابن خالتي هذا لا يستطيع أن يتكلم دون آه... زوو.

لم أستطع أن أتحمل عنجهيته فسألته:

- يا ابن خالتي تردد بين وقت وآخر آه.. زوو... آه.. زوو، ما معنى

هذا الـ آه... زوو...؟!.

وحسب ما قاله ابن خالتي إن معنى آه... زووو هذه لا يعرفه حتى الألمان أنفسهم، تعبير لا معنى له على الإطلاق... ولكن الألمان لا يستطيعون التحدث من دونه.. إن لسان الألماني يغلق إذا لم يقل آه... زو وإذا أردت أن تعرف شخصاً. أنه ألماني صرف أم لا... تعرفه من إضافة لـ آه.. زو AH....Zoo. وابن خالتي يستخدم كلمة أخرى في النهاية إلى جانب تلك الكلمة وهي yaah.... yaah..

كان ابن خالتي يعود إلى تركيا كل عامين أو ثلاثة أعوام.. ويبقى عندنا ضيفاً. لقد قضى في ألمانيا خمس وعشرون عاماً وأكثر.. ونظراً لهداياه التي يمطر بها الأقرباء، فيجب أن يكون دخله وعمله جيدان. سألته عن نوعية العمل الذي يقوم به. قال: إنه في بداية سفره إلى ألمانيا كان عليه أن يجد عملاً.. حتى يعيش.. ولكنه عندما بدأ الأتراك أو العمال الأتراك بالتوافد تباعاً إلى ألمانيا، قال ليس من الضرورة علي إيجاد أي عمل لأعيش.

- يعني أليس لك عمل هناك يا ابن خالتي..

- آه... زووو.. كما نقول.. لا... ياه yaah.

- لأننا بقدر ما نعمل هنا.. لا نستطيع أن نعيش. فكيف وأنت هناك في الغربة تعيش دون عمل...

- آه.... زووو الأتراك العاملون في ألمانيا يعدون بالآلاف، بحيث لم يبق ضرورة كي أعمل...

لم أكن أريد أن أدخل بالحديث حتى نصل إلى ألمانيا..

عندما لاحظ عدم فهمي استطرد بالكلام:

- لو ذهبت إلى ألمانيا لأربح المال من العمل.. ما كنت جمعت كل هذه

الأموال؟. هذا صحيح بكل تأكيد.

في أحد الأيام وصلتني رسالة من ابن خالتي. يقول فيها: بأنه ينوي القيام بمشروع مشترك مع الألمان في تركيا.. وأن هذا المشروع سيدرُّ أرباحاً طائلة. حسب قوله.. عمل يجني المليارات.. وبما أنه يريد أن يعمل معي معروفاً.. فإنه سيشاركني في هذا العمل... كان يسألني: ألا تريد أن تكون شريكاً في هذا العمل المربح؟.

أجبته على رسالته: ((قبل كل شيء أريد معرفة نوعية هذا العمل؟ ثم كيف يتسنى لإنسان فقير مثلي أن يكون شريكاً في عمل يُربح المليارات؟

جاء ابن خالتي إلى تركيا.. وقال حسب ادعائه: بأنه اتفق مع رجال أعمال ألمان كبار. سيحضرون إلى استنبول قريباً وسيعرفني عليهم، أما بالنسبة لنوعية وماهية العمل.. فإن ذلك غير مهم كما قال: لأن رجال الأعمال لا يهمهم هذا العمل أو ذاك.. المهم أن يكون هذا العمل مربحاً، وبأية طريقة كانت.. وبين كل كلمة وأخرى كان ابن خالتي يتحدث ساحباً آه.. زوو. من جهة، وياه من جهة أخرى.. ورجال الأعمال أولئك يعرفون طبيعة الأعمال كلها فهم يمتازون في تدقيق وتسوية كل الأمور المالية.. بدءاً من روث الحيوانات إلى وسخ الإنسان الخارجي.. ومن بيع الثلوج. إلى بيع معجون الحلاقة لذوي الذقون البيضاء... ومن تربية الأسماك في البحيرات إلى السياحة ومن تعليب لحم الغراب إلى الحجل.. وأعمال أخرى كثيرة لا تخطر على بال أحد.. إنهم حذقون جداً بحيث إذا شاهدوا خمسة رجال عراة في الصحراء يستطيعون ربح المال من الذين لا يملكون السراويل الداخلية.. وأن لهم مراكز ومكاتب في شتى أنحاء العالم.

سألت ابن خالتي لأنني وجدت في كلامه نوعاً من /التخبيص/.

- يا ابن خالتي كما ترى أن الحكومة لا تستطيع التعامل حتى مع الأعمال المستوية الصافية.. فما بالك بهذه الأعمال التي تقولها.. هل ترضى الحكومة؟.

بدأ ابن خالتي في توضيح هذه الأمور: أن شطارة هؤلاء الرجال تتلخص في هذه الأمور: مهما كانت الأعمال التي يقومون بها.. فإنهم يضفون عليها رونقاً ويقدمونها مغلفة بمنظر أخاذ. ولأننا لا نعرف كل هذه الشطارة فإننا نحول الماس إلى بحص والذهب إلى غوطٍ أما هم فإنهم على العكس يحولون الغوط إلى ذهب والحصى إلى ماسٍ.. وكل هذا يكون من خلال.. التسويق والإعلان وتوزيع النماذج..

وأنهى ابن خالتي كلامه على هذا الشكل:

- في الوقت الذي لا يملكون شيئاً، يكون لهم كل شيء.. عكسنا تماماً.. نملك كل شيء ولا يوجد عندنا شيء.. آه.. زوو...

لقد أقنعني ابن خالتي بفكرته.. ثم إنني لن أدفع مالاً في حال مشاركتي معهم، ولن يصيبني أي ضرر من العمل الذي سنقوم به.. الآن جاء دور استقبال وضيافة رجال الأعمال الألمان هنا..

- آه.. زوو.. بالنسبة لهؤلاء الألمان لا تهتم بهم من ناحية الطعام فالمطبخ الألماني مكون من لحم الخنزير والبطاطا المقلية وبعدها لا تسأل عن شيء. لا الطناجر تبقى ولا الصحون ولا الملاعق ولا الشوكات. ولهذا السبب كما قال... يجب علينا أن نضيفهم عندي في المنزل. لأن رجال الأعمال.. يتحدثون عن العمل أثناء الطعام حتى أهم وأكبر الأعمال بالنسبة إليهم. ويسمونه كما ادعى.. طعام عمل:... غداء عمل.. أو عشاء عمل.. ويجب أن نقدم لهم في منزلنا طعام عمل حتى.. عندما يأكلوا من محاشينا ويبرقنا وبقلاوتنا، تهرب عقولهم من رؤوسهم. الدهشة والحيرة.. ياه.. الاقتراح

KMH

الذي قدمه ابن خالتي لاقى الحفاوة من زوجتي وأمي.. لأنهن على حسب ما يدعين ماهرتان في صنع الأطباق اللذيذة.. وأن كل واحدة تأتي في الترتيب الأول في ذلك. وهذا صحيح إلى حدٍ ما.. فزوجتي لها القدرة على فتح الرقائق بشكل عجيب! بحيث إذا نظرت إلى هذه الرقائق ترى الطرف الآخر من رقتها ونعومتها.. وإذا ما طبخت منها شاكرية تأكل منها ما يعادل كيلو غرامين وتحسب أنك أكلت.. غراماً واحداً فقط. خفيف بشكل عجيب.. أما البقلاوة.. فتذوب في فمك، إذا أكلت منها لا تحسب أنك أكلت. وأمي، ماهرة في الطبخ بماء الدجاج. وأعتقد أنه لا أحد يضاهيها في الطبخ.

المهم يا سيدي.. جاءت برقية إلى ابن خالتي من رجال الأعمال الألمان يقولون فيها: إنهم سيأتون بالطائرة وهم ثلاثة أشخاص. وبما أنهم في عجلة من أمرهم ومرتبطين بأعمال أخرى في غير مناطق من دول العالم. فإن زيارتهم إلى استنبول ستستغرق يومين فقط. ويعودون بعدها وطلبوا حجز أماكن لهم في أحد الفنادق. لم يبق لنا سوى مأدبة الطعام لنقدمها على شرفهم بمثابة طعام عمل في منزلي. وهذا الطعام يجب أن يمتد على الأقل ساعتين من الزمن، في هذه الفترة وعلى حسب ما يدعي ابن خالتي.. ستقدم لهم اقتراحات للمستقبل:

- ما هي نوعية الأعمال التي سنقترحها عليهم يا ابن خالتي؟.

- آه.. زووو. اترك الأمر لي.. سأقترح عليهم أعمالاً بحيث تتجمد عقولهم/ ياه.

سألته بطريقة غير مباشرة عن الأعمال التي سيقترحها عليهم.. آه يا سيدي ما هذا العقل الذي يملكه ابن خالتي هذا.. يقول: إن الكلاب موجودة وبكثرة في شوارع مدننا.. والبلدية عاجزة عن قتلها.. إذا استطاع إقناع الألمان على بناء معمل يصنع فيه من جلود الكلاب... كفوف نسائية /ياقات

مانتو/.. ومن ذيولها قبعات نسائية.. حمالات مفاتيح.. وأدوات التجميل. أما اللحوم والعظام.. فتطحن في ماكينة تجفيف، وتتحول إلى علف لأنواع من الحيوانات تدعى /كوماس/ وكما نستطيع الاستفادة من القطط الشاردة في الشوارع.. ياه.

قدَّم ابن خالتي اقتراحاً آخر وهو: أنه يعرف مكاناً فيه تراب خاص، يُصنع من وحله.. معجون يفيد الأكزما والجروح.. وأمراض الجلد وسيقترح على الألمان أن يصنعوا من هذا الوحل /كريماً/ خاصاً للنساء وبالأخص للتجميل. يضاف إليه بضع نقاط من الروائح الزكية.. ويُعبأ في علب.. ويباع الغرام الواحد منه بأكثر من ألف ليرة.. ومن الاقتراحات الأخرى أيضاً.. أنه سيطلب من البلدية جمع القمامة مجاناً ونقلها إلى البحر.. حيث نعمل منها جزيرة خاصة. نبني عليها محلات للقمار وأبنية أخرى... ياه...

شمرت زوجتي وأمي عن سواعدهن بعد وصول التلغراف مباشرة. وتسابقتا في تقديم أحسن الطعام، وتقاسمتا العمل أو الطبخ. الحساء تضعه أمي.. والكفتة زوجتي واليبرق بزيت الزيتون زوجتي.. الشاكرية.. أمي والبقلاوة ستضعها زوجتي..

يقول ابن خالتي: لا تخف من المصاريف.. افتح فم الكيس.. من المكان الذي سيأتي منه بط لا يبخل على دجاجة.. ياه...

هذه المشاريع ستناقش خلال هاتين الساعتين التي سنكون فيهما على الطعام، وقال ابن خالتي إذا كانت حصتك واحد بالمئة فستكون مليونيراً..

وكيسنا ماذا يعني.. إن فتحناه أم لم تفتحه... المهم فتحنا الكيس وأفرغنا كل ما فيه.. ولم يكف، وبدأنا بالديون.. والأصح انطمرنا بالديون لم يبق في الحي محل أو دكان إلا واستقرضنا منه.. كل ذلك لا يهم.. لأننا سنصبح من

أصحاب المليارات...

وجاء ذلك اليوم.. وتوجه ابن خالتي إلى المطار لاستقبالهم. سيأخذهم أولاً إلى الفندق... وبعد أن يضعوا أمتعتهم ويستريحوا لبعض الوقت.. سيأخذهم بجولة إلى بعض المناطق في استنبول. وعند المساء سيحضرهم إلى منزلي على طعام ا لعمل. كنت أنتظرهم في المنزل.. أمي وزوجتي في المطبخ لا تخرجان.. إنهما مجنونتان.حقاً. إن الطعام الذي جهزتاه يكفي لكتيبة من الجنود. ثم إنهما طلبتا المساعدة من الجيران وكأنها وليمة عرس.

ورغم أن منزلنا لم يكن لائقاً تماماً لرجال الأعمال الألمان.. فهو لم يكن سيئاً إلى هذه الدرجة... عندنا نقص في غرفة السفرة وأطقم من الصحون والكراسي. هذا النقص عوضناه من الجيران. كان يجب أن يصلوا إلى المنزل عند الساعة السابعة مساء.

وفي السابعة وخمس دقائق وقفت السيارة أمام المنزل، فأسرعت إلى استقبالهم.. تفضلوا.. تفضلوا.. تفضلوا وابن خالتي يترجم كلامي إليهم أولاً بأول.

قال ابن خالتي: آه.. زوو. لنجلس على المائدة مباشرة ونبدأ الحديث عن العمل.

انتقلنا إلى غرفة الطعام.. وجلس كل واحد منا في مكانه المخصص. بينما كانت والدتي توزع الحساء على الأطباق. كان ابن خالتي قد بدأ بالحديث يقول لهم: وكما قلت لكم سابقاً.. إن في بلادنا تركيا ينابيع عمل.. لم تطأها قدم إنسان بعد.

لم يستطع ابن خالتي متابعة الكلام كما يريد بسبب تداخل والدتي بالحديث عندما كانت تقدم الحساء للضيوف. ((أمي دائماً هكذا)) كانت

تملأ أطباق الألمان بالحساء.. وهم يحاولون الامتناع عن أخذ المزيد منه. متعذرين منها بلطف.. مرة بدفعها، ومرة بوضع أيديهم على الأطباق... ومرة بلغتهم وهم يقولون... آمان كفي.. ومهما حاولوا على ردها وشكرها.. إلا أن أمي لا تصغي إليهم أبداً ولا تتراجع عن قرارها.. تريد أن تملأ أطباقهم كاملة..

كان ابن خالتي يبلع ريقه مجهزاً نفسه للكلام.. إلا أن أصولنا التركية تداخلت بالحديث ثانية.

- كلوا... كلوا... الصحة والعافية.. هذا الحساء يسمى حساء العرس.. هل عرفتم ذلك؟ إن حساء بلدنا مشهور جداً... إنه حساء المصايف هذا واحدة.. وهذه الكبجة الثانية.. كلوا لوجه الله.. تفضلوا..

وبين وقت وآخر كانت تلتفت إلى ابن خالتي وتقول:

- ترجم كلامي حرفياً حتى يفهموا جيداً..

بعد أن ترجم ابن خالتي المسكين بعض المقاطع من حديثها التفت إليها وقال:

- لو تأذني لنا بعض الشيء.. حتى ندخل بحديث العمل يا خالتي.

ومهما حاول على إسكاتها إلا أنها لم تصغ إليه وبدأت ثانية:

- هل أعجبكم الحساء؟ هل قلتم نعم؟ قلت لكم إنه حساء لذيذ. توقفوا قليلاً لأضع على أطباقكم كبجة أخرى.

ومهما حاول الألمان منعها من وضع الحساء على أطباقهم.. بإغلاق الطبق بأيديهم.. إلا أن أمي كانت تجد باباً تضع الحساء من خلاله على أطباق الألمان. وفي كل مرة يبدأ فيها ابن خالتي بالحديث.. تبدأ أمي بالكلام.

- تفضلوا.. لوجه الله... لا تجلسوا هكذا غرباء... لا تتحرجوا.. كلوا.... كلوا... وتقول لابن خالتي.. قل لهم ليأكلوا جيداً.. هذا المكان ليس غريباً. احسبوا البيت بيتكم..

ولست أدري كيف حصل ذلك.. أنهى الألمان الحساء الموجود في أطباقهم ومن شدة إعجابهم به.. لم يرغبوا كسر خاطر أمي...

قالت أمي ثانية: اسألهم هل يريدون بعض الحساء أيضاً.

عندها قلت لها:

- هذا الطعام ليس طعام صحبة أو أصدقاء يا أمي.. نريد أن نتحدث بشؤون العمل. اتركينا بعض الوقت حتى نتكلم بصميميةٍ أكثر... في هذه المرة أخذت زوجتي المناوبة..

فتحت فمها وهي تبدل الأطباق من أمامهم ووضعت أطباقاً جديدة وبدأت تضع عليها ما طبخته من الكفتة.

- تفضلوا.. إذا كان ملحها قليلاً فهذا هو الملح.. وهذه هي المملحة.. وهذا هو الفلفل.. وهنا الفلفل الأحمر.. نحن نقول عن هذا.. الكفتة الكبيس وهذا هو الكمّون.. ضعوا منه على أطباقكم إذا كانت قليلة.. إن هذه المأكولات لا تشبه طعامكم أنا واثقة من ذلك. ولكنها لذيذة بالنسبة لنا إنها تغذي الإنسان.. لا تأكلوا كالغرباء...

لم يطبق فم زوجي أبداً حتى نتحدث بعض الشيء عن العمل... الله لا يعطيك العافية أيتها العجوز..!؟.

عندما تريد زوجتي أن تأخذ نفساً.. تستلم المناوبة أمي.

- كلوا... تفضلوا من هذه السلطة أيضاً.. هل أضعها على أطباقكم هنا سلطة البندورة.. وهنا سلطة الراعي، وهنا السلطة المخلوطة.. كلوا يا روحي

كلوا. هل تريدون ماء... أم عيراناً.. أم عصير الفواكه.

لابد وأن الألمان قد أعجبتهم الكفتة فقد مسحوا أطباقهم مسحاً. أما زوجتي وأمي فقد حاولتا وضع كفتات أخرى على أطباقهم.. عندها وضع الألمان أيديهم على الأطباق ومالوا عليها وكأنهم يريدون النوم.

– لأغير أطباقكم... وا لله لم تأكلوا شيئاً.. حرام بقيتم جياعاً.. كلوا من الخبز أيضاً.. تفضلوا.. الشيء الموجود في هذا الكأس نحن نسميه /السماق/ رشوه.. رشوه على الطعام... إنه يفتح الشهية.. وهو يفيد المعدة كثيراً.

لم أعد أفكر بالضيوف الألمان فصرخت في وجه زوجتي.

– اسكتي أيتها العجوز.. اسكتي حتى نتحدث أو نتكلم كلمتين مع هؤلاء.. إنهم سيسافرون غداً.

قالت زوجتي: ما الذي تقوله..؟ الا يحق لنا أن نكرم الضيف.. ها قد سكت.. وخرست.. ومع أن زوجتي قد سكتت ولكن أمي بدأت ثانية بالكلام وهي تضع /شيخ المحشي/ على أطباق الضيوف.

– لا... لا... قطعة محشي واحدة لا تكفيك سأضع لك واحدة أخرى.. توقف قليلاً لا... أبداً وا لله... هذا لا يكون... إذا ما أكلتم سأزعل منكم...

– كل أربعين سنة تأتوا إلى بيوتنا ضيوفاً.. كلوا لوجه ا لله.. والتفتت إلى ابن خالتي.. وطلبت من أن تترجم ما قالته... حتى يأكلوا..

عندما أحس الألمان أنهم لن يستطيعوا المقاومة سلموا الأمر لوالدتي فملأت صحونهم بشيخ المحشي على آخره.

– ماذا لو أضع في صحنك قليلاً من السلطة.. من أي نوع تريدوه.. هذه سلطة /الفجل/ فيه شفاء أكيد.. وهذا هو الفجل الأحمر.. البيت بيتكم.. لا

عليكم بالحرج والخجل..

لم تعطينا أمي وزوجتي فرصة الحديث أبداً سوى حديث الطعام والأكل..

- اسكتي بعض الشيء يا أمي.. حتى نتحدث عن العمل.. هؤلاء الرجال جاؤوا إلى هنا من أجل أن يتحدثوا عن العمل.

لا مجال على سكوت أمي.. حتى ولو سكتت لحظة لتأخذ شهيقاً تأخذ المناوبة زوجتي مباشرة، ولكن الألمان كانوا قد أصبحوا كالأغبياء في تصرفاتهم وهم يملؤون بطونهم بالطعام.. يشربون العيران والعصير المقدم إليهم من قبل زوجتي ووالدتي..

- اشرب.. اشرب... إنه يكبس على الطعام، هل تريد قطعة أخرى من شيخ المحشي؟.. لا تخجل..

بدأت زوجتي توزع الشاكرية.. على الصحون.. تملأ الأطباق بحيث /تشبع الثيران/ وفي الوقت نفسه.. تفهمهم.

- إنه ليس من السوق ها.. لقد صنعته بيدي.. إنه خفيف جداً.. انظر هكذا إنه يذوب في الفم . ولا ضرر منه . خذوا واحدة أخرى.. وا لله سأزعل منكم.. لقد صنعتها خصيصاً لأجلكم..

وكأن الألمان يفهمونها... بدأت تقص عليهم عن هذا الطعام وطريقة صنعه..

- يجب على الإنسان أن يأكل لقمتين من هذا النوع من الطعام، ويشرب معها ثلاث رشفات من العيران.. عندها لو أكلت من هذا الطعام طيلة النهار.. لا تحس به.. وكأنك لم تأكل شيئاً منه.. ولكنكم لم تأكلوا... رجاء كلوا أيضاً انظروا سأضع لكم من هذا الطرف أيضاً.. إنه مطبوخ تماماً..

بدأت أمي على مدح زوجتي:

- إن /كنتي/ تطبخ طعاماً.. لا أحد يضاهيها في ذلك.

صرخ ابن خالتي.في وجهنا.ولم يعد يتحمل أكثر ..

- ألن نتحدث سوى عن الأكل.. يا عالم يا هو..

قالت زوجتي وكأنها تجيب على كلام ابن خالتي.

- بعد هذا سيأتي دور طعام آخر..

نظرت إلى الساعة.. كان قد مضى ساعة ونصف على جلوسنا حول المائدة، وطيلة هذا الوقت لم نتكلم بجدية عن الأعمال التي سنقوم بها.. من جراء ثرثرة زوجتي وأمي.. لم يعطوننا فرصة الحديث سوى حديث الطعام...

- ماذا يضر لو أخذتم ملعقتين من الحلوى /بلاكي/... هذا لا يكون والله. لن أترككم إذا لم تأكلوا من هذه /البلاكي/.

- آ آ.. لم تأكلوا سوى كالعصفور الصغير.

- ألن تأخذوا من هذا المحشي.. تفضلوا.. تفضلوا... وهذا هو ليمون الحامض.. ها هنا.. كلوا.. كلوا..

- والله لقد بقيتم جياعاً.. على الأقل كلوا من هذا الطبيخ الزعفراني.. ملعقتين . رجاء.

لا أنا ولا ابن خالتي.. ولا الألمان.. ولا واحد منا يستطيع أن يفتح فمه..

زوجتي من جهة وأمي من جهة.. نزلنا بالألمان إكراماً وتدليلاً حتى انتفخوا تماماً. ولم يتركوهم.. وكانتا على وشك أن تنويم الألمان على الأرض وحشر المحاشي، من أفواههم.

- رجاء سأغير صحنك.

- والله لقد بقيتم جياعاً.

- ماذا يحصل، لا تبقوا هذا كالضيوف.

آه أن هذه /التجحيشة/ مني.. كيف لا أعرف أصول الضيافة واحترام الضيف والتقاليد المتبعة في المنازل.. حتى أدعوهم إلى هنا إلى بيتي لنقيم طعام عمل.. من الذي استطاع أن يتكلم أو يفتح فمه على موائد الطعام من كلام النساء واحترامهن الزائد للضيف.. حتى يتكلم هؤلاء الألمان..

خذ من هذا وتفضلٍ من ذاك.. وا لله بقيتم جياعاً.. كلوا لوجه ا لله.. كلوا.. هل تريدون فلفلاً.. وقليلاً من الطبيخ.. حتى جاء دور الحلويات... كانت زوجتي تقول للألمان:

- هذا اسمه /صارغي بورما/ ((نوع من الحلويات الشعبية مشهورة جداً. وتصنع في البيوت من رقائق العجين العادي وتحشى بالجوز أو اللوز أو السكر ويلفونها على شكل دوائر ثم يضعونها على نار مزدوجة من الأسفل والأعلى حتى تحمر ويسكب عليها القطر))

- بمعنى اللافف والملفوف/ في داخله جوز. إنه ملك الحلويات على الإطلاق.. لا يستطيع أحد أن يصنعه مثلي تفضلوا.. تفضلوا...

كان العرق يتساقط من وجوه الألمان لكثرة ما أكلوا من جهة وهم يحاولون كسر قطعة الحلوى من جهة أخرى.

بالنسبة لتخميني.. إذا رفض الألمان الأكلٍ.. فإن زوجتي وأمي ستقدمان لهم الطعام بالقتل والضرب.. أي إجبارياً.. على الأقل كان الألمان هم الرابحون في هذا الطعام/ تعليق المؤلف.. لم يبق في معدتهم محط رأس إبرة يستقبل لقمة أخرى من الطعام.. فكانوا يأخذون اللقمة ويدورونها في فمهم مضغاً من دون بلعٍ.

نظرت إلى الساعة.. وقد مضت ساعتان ونصف الساعة لجلوسنا على

مائدة الطعام.. بعد الآن لن يقدر الألمان على الحديث حتى وإن أرادوا ذلك، اترك المحادثة إلى جهة.. حتى شهيقهم كان نعمة إلى حدٍ ما.. فأحدهم وللمرة الثالثة.. كان يوسع قشاط بنطاله.. إلى الثقب الثالث.

أما عيني أحدهم.. فكانت قد رحلت ومالت إلى جهةٍ.وهو على وشك النوم وأمي لا تزال تردد:

– لقد صنعته بيدي.. لا أترككم أبداً إذا لم تأكلوا من هذه البقلاوة تفضلوا... كلوا.. كلوا..

قلت لابن خالتي: هاي يا ابن خالتي... لقد ذهب هذا الطعام بلا مقابل.. والرجال سيسافرون غداً.. ماذا سنفعل الآن..؟.

– آه.. زوو.. هؤلاء سيركبون الطائرة غداً في وقت متأخر وسنتناول طعام الغداء معهم في أحد المطاعم... وسنتحدث إليهم آنذاك في العمل وشؤونه ياه...

وبينما كان ابن خالتي يتحدث وإذا برأس الألماني البدين يلتوي نحو اليمين.. وأصبح لون وجهه أسوداً كلون الباذنجان.. عندها قلت:

– آي واه.. كاد أحد الألمان يضيع من أيدينا.. وإذا بوالدتي تقدم له كأساً من شراب /الفيشنا/ قائلة:

– اشرب اشرب إنه دواء.. سيفيدك كثيراً، تقول ذلك، وتصب له الشراب من أطراف أسنانه. و لم أعلم لماذا شرب الألمان ذلك الشراب كله وهو غير قادر على الحركة. أظنه حسب الشراب دواء، وما هي إلا لحظة حتى تقيأ آخر جرعة وتجشأ كالرعد: عندها قالت أمي:

– الصحة.. الصحة.. ليكن عسلاً وسكراً عليك. انظر.. لقد استفاد منه.

في الوقت الذي كانت زوجتي تسألهم عن نوع القهوة التي يرغبون شربها

اقترب أحد الألمان الثلاثة من ابن خالتي وقال له بعض الكلام.. أما الألماني الثالث فكان جامداً في مكانه.. كعارضات الأزياء الواقفات على واجهات المحلات. تحسبه بلا روح ومع أننا حاولنا أنا وابن خالتي مساعدته للوقوف على رجليه إلا أنه بقي مترنحاً في مشيته من كثرة الطعام الذي تناوله.. حتى أنزلناهم من الدرج. بصعوبة بالغة.. في هذا الوقت كان ابن خالتي قد أخذ منهم موعداً.. لتناول طعام الغداء في اليوم التالي في أحد الفنادق.. أما زوجتي وأمي فكانتا لا تزالان مشغولتان في الكلام وهما تودعان الألمان على الباب.

- هذا غير محسوب.. تفضلوا مرة ثانية.. سننتظركم على الطعام..

- وا لله لقد بقيتم جياعاً...

- يعني ماذا أكلتم.. أبداً.

ذهب ابن خالتي مع الألمان.. أما أنا فقد فتحت فمي وأغمضت عيوني ونزلت بأمي وزوجتي /بهدلة/ لم أترك كلاماً إلا وسكبته عليهما. ولكن كأنني لم أقل لهما شيئاً.. فقالت أمي:

- ماذا صار يعني؟.. قلتم ضيوفاً وأتيتم بهم.. يعني ألا نكرم هؤلاء الغرباء المساكين، وإلا ماذا سيقولون عنا عندما يذهبون.

أما زوجتي فقالت: نحن لم نفعل شيئاً سوى العرف المتبع عندنا.. لقد طبخنا وصنعنا كل تلك الحلويات وكل هذا الطعام لم تصنعوه بيدكم... سلم ا لله يدكما وفوق ذلك تبهدلنا على كيفك.. إن الألمان حضروا مرة في أربعين عاماً على بيتٍ تركيٍ هل سنتركهم جياعاً؟..

ولأجل هذا السبب تشاجرت مع زوجتي وأمي و لم أعارضهما.

عندما ذهبنا في اليوم التالي إلى الفندق لنأخذ الألمان لتناول طعام الغداء لم نجد لهم آثراً.. قال أحد العاملين في الفندق.. أن أحدهم أوصلوه إلى المشفى

بالإسعاف بصعوبة بعد منتصف الليل.. والآخر.. جلبوا له مجموعة من الأطباء غسلوا معدته.. لأنه لم يستطع الذهاب إلى المشفى.. أما الثالث.. فلا أثر له أبداً. لا أحد يعرف عن مكانه شيئاً.

قال ابن خالتي: آه زوو.. لقد نام هذا العمل.. ياه..

وربما تعودت ذلك منه فقلت له: ياه...

يجب أن يكون ابن خالتي هذا والذي أحسبه أعقل رجل في العالم.. قد عاد إلى ألمانيا لأنني لم أراه بعد ذلك اليوم أبداً.

نعم لقد نام العمل الذي كنا سنربح منه الملايين.. ولكن على الأقل أوضحنا للألمان الثلاثة . الضيافة التركية وماهيتها. كل ما حصل قد حصل لي وحدي.

لأنني وفيتُ الديون المتراكمة علي من جراء تلك الوليمة خلال ستة أشهر بصعوبة بالغة.

- ١٤ -

هل لمستك يدي يا أخي

ماذا تقول يا أخي..؟ لو لم يأت إلينا هـذا المسـمى Alo (مـن إبراهيـم) /البزونك/ - كلامي خارج هنا - المهرج. ولـو لم ينصب خيمته في ساحة الكنيسة. ولو لم يشغلني عنده ببعض الأعمال، لما صرت صديقاً حميماً لعكاش آغا أبداً ما كنا أصبحنا أصدقاء.. وليتني لم أصبح صديقه، حتى لا تقع علـى رأسه كل هذه المصائب. أنا وعكاش آغا مـن قريـة واحـدة.. وآغانـا عكـاش هذا الولد الوحيد المدلل لأغا قريتنا والقرى المجاورة /شهموز/.

من أنا: اليتيم.. الفقير المسكين الغريب ومـن عكـاش آغـا.. حتـى أكـون صديقاً له. ولكـن عندمـا وضعنـا الخيمـة هنـاك مـع /المهـرج آيـو/.. تغـيرت استقامة حياتي وحياة عكاش آغا.

مع أن عكاش آغا يصغرني بخمس أو سـت سـنوات إلا أن منظـره يعطـي انطباعاً بأنه يكبرني بعشر سنوات. طول قامتي يصل بصعوبة إلى صرة عكاش آغا. جسـمه كبـير وكتفـاه عريضـان، لأن عكـاش آغـا تغـذى طيلـة حياتـه بالسمن والعسل والبقلاوة.. وليس كأمثالنا من الفقراء..

لقد أنجبت الزوجة الأولى لآغانا شهموز.. بنتـان.. فغضـب شـهموز آغـا كثيراً. لأن الرجل يجب أن تنجب زوجته ذكراً.. وعندما أنجبت هذه الزوجـة وللمرة الثالثة بنتاً.. وبما أن شموز آغا رجل يملك الضمـير والوجـدان لم يطلـق زوجته.. بل تزوج عليها عروساً صغيرة. أنجبت له على التـوالي بنتـان. فصـار عنده خمس بنات. جُن جنون شمهوز آغا و لم يدر ماذا يفعل. و بما أنه صاحب وجدان وضمير، لم يطلق زوجته الثانية بل تزوج عليها عروساً صغيرة أيضاً.

في منطقتنا مزار يدعى /عكاش بابا/. تؤمه النساء اللواتي يلدن أناثاً. وعندما تذهب النسوة إليه ويذبحن قرباناً. يَلدن ذكوراً. ويسمى كل ولدٍ ذكر جاء عن طريق المزار عكاش تيمناً بالولي عكاش بابا.. وإلا فإن الولد سيموت. وهذا هو سبب وجود عدد كبير بهذا الاسم أي عكاش في منطقتنا. إذا صرخت في السوق بكلمة عكاش.. أسرع كل الناس إليك أو يوجهون نظرهم نحوك ومن لا يوجه نظره إليك. إما أن اسمه ليس عكاش أو لأنه أصم لا يسمع..

اجتمع أصدقاء شهموز آغا في القرية. وقرروا أن يأخذوه لزيارة عكاش بابا مصطحباً معه زوجته الطرية الصغيرة الجديدة وافق شهموز آغا على زيارة عكاش بابا. ويقول: أعطني ولداً ذكراً. وأخذ يتوسل إليه ويذبح قرباناً. وعندما عاد إلى القرية.. وإذا بزوجته الجديدة.. تحمل وتلد ولداً في شهرها السابع. ما معنى أن تلد في الشهر السابع؟. يعني أن الولد ناقص ومشوه. وكل من رأى الولد قال إنه لن يعيش لصغره وضعفه ونقصه ولكن الولد ما زال على قيد الحياة قوياً. لأن اسمه عكاش. وهكذا أعطى عكاش بابا القوة لهذا الصبي، ومن جهة ثانية لأن والده صرف الأموال الكثيرة عليه.

أتذكر ولادة عكاش فقد كنت يومها في السادسة أو السابعة من عمري. ومن أول يوم جاء فيه إلى الدنيا بدأ أهالي القرية من السبعة إلى السبعين، ينادونه عكاش آغا.. يحبه الجميع من كل قلوبهم ويعتنون به. إن عكاش آغانا هذا يتغذى بالعسل والسمن والبقلاوة والشوكلاته. كان الولد ينمو بسرعة، ما شاء الله ويصبح طويلاً كشجرة الجوز، وعريض المنكبين كعرض الثور وشاباً قوياً لا يستطيع أحد ثني معصمه ولو بالقوة.

أما بناته الخمس من زوجتيه السابقتين فإنهن لا يخرجهن من البيت ولا يسمح لهن بالمرور من أمام باب المدرسة في القرية لأن تعليم البنات والنساء

عندنا غير مقبول، الذكر يجب أن يتعلم القراءة والكتابة فقط. أرسل شهموز آغا عكاش آغانا إلى المدرسة ولكن بما أن رأس عكاش آغانا سميك كالحطب. فإنه لم يتعلم حتى الحروف الأبجدية. و لم يستطع المعلمون ولا الشيوخ ولا المال الذي مع أبيه أن يعلمه شيئاً. الكبير والصغير في قريتنا وجميعهم لقالق عند عكاش آغانا.

يقولون لعكاش آغانا: (اليوم يومك أنت يا آغا. وأنت الولد الوحيد لشمهوز آغانا.. العادة والعرف عندنا عندما يذهب الأغا إلى مكان ما، يجب أن يرم علبة سجائره على الأرض قائلاً: تفضلوا، تفضلوا. وإذا لم يرم بعلبة سجائره فإنه لن يكون الآغا أنت لا تدخن حتى ترمي بعلبتك إلى الأرض و تقول: تفضلوا).

وتمر الأيام والسنون ويبدأ عكاش آغا بشرب الدخان على كيفه يلف السيجارة ويشربها وعندما يذهب إلى المقهى أو إلى مكان ما يرمي علبة سجائره على الأرض ويقول: من أجلك اشرب قهوتي واسحب سيكارتي.

ومع الأيام يظهر آخرون ويقولون له: ((المرء لا يكون آغا حقيقياً إذا لم يشرب الخمر.. أنت آغا كبير.. والآغا مثلك.. يجب أن يشرب الخمر ويسقي الآخرين.. هيا.. إنه لأجلك.. سنشرب الخمر والآغا لا يكون آغا إذا لم يستضيف الآخرين في مجلس للأصدقاء والأحباب)).

ومع الأيام بدأ عكاش آغانا.. يشرب الخمر حتى الثمالة. لا أحد يستطيع أن يشرب ربع ما يشربه.

في ذات يوم حضر إلى المجلس.. وأمر بإحضار الخمر.. واصطفت أمامه قناني الخمر ((الردح فوق الركبة.. والرأس فوق العين)) كلام مأثور.

ومع الأيام بدأ الناس يتهامسون سراً وعلانية ويقولون: إذا لم يجلس الآغا

على طاولة القمار.. فهناك شك في تسميته آغا. بدأ الآغـا بلعـب القمـار و لم يستطع أحد وقفه عن ذلك. واعتاد الآغا عكاش على لعب القمار أيضاً.

كنا نعيش في القرية وسط ظـروف معيشـية صعبـة لدرجـة كبـيرة عـانيت كثيراً من الفقر والحاجة نزلت المدينة لعلي أجد عملاً ولو على إشباع بطني.

عملت حمالاً بعض الوقت وسمعت حينهـا.. أن /آبـو المهـرج/ سيأتي إلى هذه المدينــة وعندمـا جـاء وضـرب خيمتـه في سـاحة الكنيسـة قـالوا أن هـذا الإنسان يأتي إلى المدينة كل عامين أو ثلاثة أعوام. وبدأ يعرض فنه ومهارتـه فوق الأسلاك مع البنـات اللواتـي بـدأن بـالرقص، حيـث اهـتزت المدينـة مـن أساسها من يستطيع أن يقول وخاصة أمثالي من الفقراء المسـاكين.. أن مجـيء هذا الإنسان إلى المدينة قد جلب معه الخير والبركة.. فقد ازدادت حركة البيع والشراء.. وتدفق المال عليها كالمطر فلم يبق عاطل عن العمل. كان مجيء هذا الآبو المهرج خير وبركة حضر في أحد الأيـام مـع بناتـه بشـاحنة إلى القريـة.. وتوجَّه مباشرة إلى الآغا وطلب منه عملاً فسألني: ماذا تسـتطيع أن تعمـل يـا /هربو/؟ نوع من الاحتقار قلت له: وا لله أعمل كل ما تطلبه مني يا آغـا)).. قال: هل تستطيع أن تعمل عمل الباشا يا هربو؟ عندها: انحلت أربطة ركبي.. وحسبته يسـخر مـني. فقلـت لـه: اسـتغفر ا لله.. الباشـوية أيـن وأنـا أيـن؟. والحقيقة أنه كان يطلب باشا حقيقياً ولديه ثياب الباشا الحقيقية كان أحدهـم يرتدي هذه الثياب ويقف أمام الخيمة وفي يده جرس... يقرعه دائماً.. ولهـذا كان يبحث عن واحد يقوم بهذا العمل، هذا هو الجوع يا أخـي.. يجعـل مـن الإنسان آكلاً لجميع أنواع الأوسـاخ.. قلـت لآبـو آغـا: بـإذن ا لله، نسـتطيع القيام بهذا العمــل.. قـال: إذا قلـت عنـك باشـا... لا تحسـب نفسـك باشـا حقيقياً.. فكل الأعمال المتعلقة بالخيمة أنـت المسؤول عنهـا)) قلـت: نفعلهـا بإذن ا لله.. التنظيف والكنس همـا مـن أولى واجبـاتك.. نفعلهـا بـإذن ا لله..

أعمال تعالى واذهب، هات وخذ أيضاً من صلب عملك.. ((نفعلها بإذن الله)). كل ما تقوله لي أحبه.. بإذن الله.. وهكذا بدأ الرجل يعدد وظائفي.. وأعمالي التي سأقوم بها إلى أن قال أخيراً: أنت مسؤول أيضاً عن بيع النساء؟ ربما من الحيرة ومن اعتياد لساني على القبول.. قلت له بإذن الله نفعله بمعيتك.. قال الآغا: بالنسبة للأكل والشرب نحن نتكفل به، وسنعطيك البخشيش إذا نجحت في بيع النساء.. بدأت بالعمل.. ورفعنا الخيمة الكبيرة أمام الكنيسة وفي الساحة العامة.. والمهرج آبو يملك من البهلوانية والشطارة الشيء الكثير.. دخلت للحلبة امرأة غجرية وبدأت تهز خصرها وتغني أغنية شعبية مشهورة.. وبدأ الناس بترديدها.. خلفها. وكما أوضحت كان آبو المهرج يملك ما هب ودب من الألعاب البهلوانية، وكان كل من يشاهده وهو يقوم بألعابه، يقف حائرا مندهشاً.. نصب سلكاً رفيعاً بين عمودين، وصعد إليه ووقف على رأسه، بحيث أصبحت قدماه للأعلى.. ثم ركب دراجة بدولابين وسار فوق السلك... وسط غناء النسوة وصياحهن وعندما كانت كل واحدة من النساء تخلع عنها جزءاً من ثيابها كان الجمهور يصرخ: اخلعي، اخلعي.. وكان من أولى مهماتي.. أن أخبر آبو عن كل حركة أو أذى يصيب البنات.

في إحدى الليالي دخل آغانا عكاش إلى الخيمة.. ليشاهد البنات. عندها بدأت أدور حوله وأقول: تفضلوا يا عكاش آغاتي... أهلاً وسهلاً بكم يا آغا؟. ماذا تريدون يا آغا؟.

أومأ إلي باصبعه فهرعت إليه، سألني عن الفتاة الشقراء الموجودة مع البنات الأربع. يعني أنه يريدها.. ذهبت إلى آبو وقلت له: إن عكاش آغا يريد أن يجلس معك ويتفق على الفتاة الشقراء.. وجلسا على الإتفاق.. قالت الفتاة الشقراء إن قلبي أحب هذا الشاب القوي.. لا أريد منه مالاً ولا أي

شيء.. وقالت لي.. اذهب إليه وقل لـه أن يخلصـني مـن المهـرج آبـو ويدفـع عربوني وأكون له.. وعندما أوصلت هذا الخبر إلى عكاش آغا.. فرح فرحاً عظيماً حتى أن الأرض والسماء لم تتسعان لفرحه.

وهكذا لازمنا البـلاء منـذ ذلـك اليـوم.. فقـد دفـع عكـاش آغـا عربونهـا وخلصها من الخيمة وحراسها.. تأثر عكاش آغا كثيراً بكلام الفتاة التي قالت: إن قلبي أحب هـذا الفتـى.. لا أريـد منـه مـالاً ولا أي شـيء.. ولأجـل هـذا السبب أخذها وفتح لها منزلاً وأجلسها فيه، وأخذني إلى منزلـه كمرافـق لـه. كل ذلك حسناً جداً. ولكن بعد مرور شهر من الزمن بدأت الصبغة بـالزوال عن شعر الفتاة.. فعاد شعرها.. أسوداً غامقـاً طبـق الأصـل كسـائر نسـائنا.. وطلبت من عكاش آغا إما أن يتزوجها، أو يتركها تعود إلى عملها في الخيمـة رغم تمسكها بقرارها..

بدأ عكاش آغا بترتيب لوازم النكاح والزواج.. ولكن والده شـهموز آغـا سمع بما حصل.. فغضب غضباً عظيماً.. واي.. ما هذا يعني أين ذهبت أتعاب زيارتنا لمزار عكاش بابا...

ماهذه المصيبة التي رمانا الله بها... ولدي الوحيد يتزوج غانية؟ سـيتعذب كثيراً.. لن يكون ابني إذا تزوج منها..

ثم أخذ سلاحه وامتطى حصانه وخرج من قريته و في طريقه قرَّر قتل ابنه الوحيد.. وتلك الفتاة.. ويقتلني أيضاً، زاعمـاً بـأنني كنـت الوسـيط في ذلـك اللقاء بين ولده والفتاة، والجميع يعرفون شهموز آغا، أنـه إذا قـال شـيئاً فلـن يتراجع قراره وكلامه أبداً. ويقولون عنه بأنه ا رتكب ثلاث جرائم قتل...

عندما سمعنا بهذا الخبر، جلست وعكاش نفكر بالأمر ملياً.. مـاذا عسـانا أن نفعل.. فكرنا وفكرنـا.. نضعهـا في المـلآن... غـير صحيـح، ونضعهـا في

الفارغ... غير صحيح أيضاً.. وشهموز آغا.. خرج من القرية يسابق الريح على ظهر حصانه. متوجهاً إلينا..

عاد عكاش آغا بعد منتصف الليل وإذا به يقول لي:

- آمان يا أخي... هذا ليس وقت الصمت.. يجب أن نهرب ونخلص أنفسنا سريعاً.

سألته: إلى أين سنهرب يا آغا عكاش.

- إلى أستانبول: يقولون إنها شديدة الإزدحام. بحيث إذا أضاع الأب ابنه والرجل زوجته هناك فلن يتلاقيا مطلقاً. فالناس هناك يسيرون وأيديهم متشابكة حتى لايضيعوا بعضهم. القادم من القرية ليس أبي.. إنه أجلي... لنترك المكان سريعاً.

وعندما سألته: وزوجتك هذه ماذا ستفعل بها؟.

قال: لاتخليني اكفر بها وبأمها.. بقيت الزوجة نائمة في الفراش وجئت مع عكاش آغا إلى أستانبول.. وعندما وصلنا إليها. خاف عكاش آغا من هذه الزحمة الكبيرة وقال لي:

- امسك بيدي جيداً حتى لانضيع عن بعضنا.

امسكت بيد عكاش آغا.. وكانت أصابع يديه اطول من معصمي وهو طويل كالعامود.. وقامتي تصل إلى خصره.

بعد مرور خمسة أو عشرة أيام.. انتهت نقود عكاش آغا.. فقال لي: لم يبق معي قرشاً واحداً. باع عكاش آغا.. علبة دخانه الفضية، وساعته ولم يبق معه شيئاً آخر ليبيعه.. كنا ننام في فندق رخيص وفي غرفة واحدة تتسع لستة أشخاص.. وإليكم ما حصل بعد ذلك. لقد تعلق عكاش آغا بخادمة الفندق العجوز.. والتي تكبر جدته بكثير، وعندما شاهدت العجوز هذا الشاب

القوي العريض.. قالت له: سأجد لك عملاً! ولكن اترك هذا الأهبل الذي يرافقك وسأخذك إلى منزلي لنظل وحيدين.

في أحد الأيام أفهمني عكاش بما جرى بينه وبين العجوز وقال لي: ((هذه العجوز لا تريدك هنا يا أخي.. سأبقى في بيتها.. وأنت احضر إلي كل عدة أيام مرة.. حتى لانضيع بعضنا.

سامحنا بعضنا وافترقت عن عكاش آغا... كل ما جرى لنا هو من ا لله... المهم.. أني وجدت عملاً أشبع به بطني.. ومع الأيام بدأ المعلم يعطيني بعض النقود أسبوعياً فقلت في نفسي: يجب أن أوفر بعض المال حتى أشتري لباساً جديداً، وأعطي صورة جديدة لنفسي شعرت بأن شيئاً ما فُقد في أعماقي.. تذكرت عكاش ماذا الآن ياترى..؟ ذهبت إلى ذلك الفندق لأستطلع أخباره.. وإذا به قد تزوج تلك العجوز.. وعندما تزوجها.. تركت عملها في الفندق.. وأصبحت سيدة منزله. وأين أصبح عكاش آغاتي يا ترى؟ إنه يعمل ليل نهار في الفندق ليصرف على زوجته ومنزله. حصلت على عنوان المكان الذي يعمل فيه.. وعندما ذهبت إليه.. ماذا وجدت؟. واه يا آغاتي عكاش واه.... لقد أصبح إنساناً آخر.. فقد أضاع أكثر من نصف وزنه. لم أعرفه في بداية الأمر.. إنه شخص يشبه عكاش آغا... ولكن من هو..؟. وعندما رآني.. عانقني بقوة وقال لي:

((لم أرك منذ وقت طويل يا أخي؟! وبدأت عيناه تدمعان. لقد هزل جسده، واضحى مساوياً لقامتي.. لقد تقلص جسمه وذاب وانتهى.. ((ماالذي جرى لك يا أخي الآغا))؟ قال: من كثرة العمل.. ما هذا العمل الذي تقوم به.. هاي أخي عكاش.. لا تسألني كثيراً، سأقص لك كل شيء.

- إنني أعمل في اليوم الواحد أربعاً وعشرين ساعة.. توقظني تلك العجوز الشمطاء التي أصبحت زوجتي.. باكراً من النوم.. ترسلني إلى العمل.. ثم

KMH

تنام.. أرسلتني إلى العمل في الطريق الذي تشرف البلدية على شقه. وأنتهي من العمل الساعة الرابعة. ثم وجدت لي تلك العجوز الشمطاء زوجتي عملاً لغسلٍ الأطباق والصحون.. أعمل فيه بعد الساعة الرابعة. ثم وجدت لي عملاً آخر في تنظيف الخانات. أنتهي من غسل الأطباق والصحون. واذهب إلى الخان.. أنظفه عن بكرة أبيه. وعندما أنتهي من نظافة الخان.. اذهب إلى عمل آخر وجدته لي زوجتي أعمل فيه حارساً ليلياً)).

سألته: وأيام السبت والأحد ماذا تفعل يا عكاش آغا؟.

لا تتركني لحظة واحدة أنام وأرتاح فيها. فقد أوجدت لي زوجتي عملاً أيام السبت في إحدى الحدائق كمزارع.. وأيام الأحد وجدت لي عملاً في أحد ورش البناء أعمل فيها هاي.. عكاش آغا هاي.. أصبح نصف عكاش الذي نعرفه وجهه أبيض كالكلس.. وجنتاه غائرتان.. يقف بصعوبة على قدميه.

سألته: ألا تدخل الفراش أبداً؟. ألا تنام قليلاً؟.

قال: وإن دخلت الفراش ساعة أو ساعتين، فلا تتركني تلك العجوز الشمطاء التي صارت زوجتي.. أنام.. و أرتاح..

-ماذا تفعل بك؟

- ولك يا أخي لا تدعني أنام.. عندما أغمض جفوني تضربني وتقول: لماذا وجدت لك كل هذا العمل؟. هيا الآن قم بوظيفتك الزوجية نحوي...

وتظل تضربني وتمنعني من النوم حتى انتهي من التعب.

هل تعرف أن الوظيفة الزوجية أصعب من نقل الحجر.. لأن تلك العجوز الشمطاء والتي صارت زوجتي.. لا تترك لي فرصة للراحة. بل دائماً هيا انصرف للعمل.

نظرت إلى وجه عكاش آغا ملياً.. لقد خطت الأقدار فيه صروحاً وأخاديد وجروحاً. فاغرورقت عيناي بالدموع حزناً عليه.. ويقول بأن كل الأموال التي يجنيها تأخذها زوجته منه.

كان معي بعض المال الذي وفرته أعطيته له. رفض العرض لأنه كان يعلم بأنه لن يستطيع إعادته لي.

أعطيته المال قائلاً: أنت لك حق كثير علي يا عكاش آغا.

-والله يا أخي.. لست أدري ماذا سأفعل؟ افكر.. وافكر.. هل أعود إلى القرية حتى يقتلني أبي.. أم أموت في أحضان هذه العجوز الشمطاء.

- ولكن لماذا لاتطلقها..؟

-أخذ نفساً طويلاً وقال:

- لم أفكر في هذا الأمر أبداً.. وكيف سأفكر وهذه العجوز لاتتركني لحظة واحدة خالياً من الأعمال والأشغال والترحال.. حتى أفكر بالتخلص منها ليس لي من الوقت يا أخي؟..

تعانقنا وافترقنا عن بعضنا.

زاد راتبي الشهري في المكان الذي كنت أعمل فيه.. ثم انتقلت إلى عمل آخر وهناك كنت أربح أكثر.. استأجرت غرفة.. واشتريت حوائجاً.. كل شيء حسن. في أحد الأيام تذكرت عكاش آغا.. ذهبت إلى مكان عمله لم أجده.. كتبت رسالة إلى القرية أسأل عنه.. لكن لا أحد يعلم بحاله.

مرت أعوام طويلة وأنا لاأزال أتذكر كلمات آغا عكاش حيث قال لي ذات يوم:

- ليس لدي فراغ من العمل حتى أطلقها إنني لا أجد الوقت لذلك...

- ١٥ -

الرجل الذي احتفظ بخصيته في بلاد المخنثين

قبل كل شيء يجب أن أبدأ الحديث عن اسم هـذه القصـة: الشـيء الـذي سأورده لكم هي حادثة حقيقية... يعـني أنهـا ليسـت قصـة جـرت صياغتهـا وتأليفها فوق الطاولة. اعترف بقبولي الكلام والقصـة معـاً.. أمـا أن أصدقهـا فذلك من رابع المستحيلات. حتـى أن مـا سـأقصه عليكـم يُعتـبر حادثـة غـير عادية. ولكننا نعيش في هذا العالم وبأحداث كثيرة لا تصدق.. وهذه واحـدة من الحوادث التي جرت حقيقة ولكنها صعبة التصديق.

سمعتم اسم وعنوان القصة: لماذا لانستطيع استعمال بعـض الكلمـات هـل لأنها كلمات معيبة؟.. ومن ثم نستعيض بدلاً عنها كلمات غريبـة لهـا نفـس المعنى والمضمون والقصد لتصبح غـير معيبـة. هـل فكـرتم بهـذا الشـيء قبـل ذلك؟.. فمثلاً.. كلمة /Sidik/ التبول.. لانذكرها كتابة بل نكتب كلمة بدلاً عنها من أصل اللغة العربية وهي الإدرار: أليست الكلمتان بمعنـى واحـد؟ ثـم المثال الآخر (الشاي يشخخ كثيراً) (الشاي مـدر للبـول كثـيراً) عندمـا نقـول الجملة الأولى نرى فيها نوعاً من العيـب ولكـن إذا قلنـا (الشـاي مـدر للبـول كثيراً) عندها يذهب العيب من الكلام.

هذه الازدواجية في اللسان تثير أعصابي.. وفوق ذلك فازدواجيـة اللسـان تكبر وتنتشر وبمعنى آخر نتكابر بالكلام.. عندما كنـت صغـيراً كـان الجميـع يسـمون السـروال الداخلـي كلسـون. ولم يكـن في ذكـره أي عيـب علـى الإطلاق، أما الآن فإن ذكر العبارة عيب كبير... ولكن إذا قلنا اسم كيلـوت في الفرنجية فهـذا ليـس عيبـاً. هـل العيـب في السـروال الداخلـي الـذي يسـتر

الأرجل والسيقان؟ أم العيب بالكيلوت الذي لايستر إلا القليل؟

قديماً لم تكن كلمة حامل بالنسبة للنساء معيبة، أما الآن فإننا نستعمل بدلاً من تلك الكلمة.. كلمة أخرى عربية الأصل /Hamile/ /حاملة/ حتى القرويون يتكبرون في استعمالهم هذه الصفة: البقرة.. معشرة.. أما الآن نقول /البقرة حامل/.

هل تذكرنا كلمة حامل بعملية التلقيح والجماع ونعدها كلمة معيبة. وهل النساء يقمن بغير عملية الجماع والتلقيح عند استعمال كلمة أخرى؟.

من أي نوع من البشر نحن؟ لانزال حتى الآن نعد كلمة مرحاض أو بيت الأدب كلمتان معيبتان، ولكن عندما نستعمل الكلمة الانكليزية W.C والفرنسية Sans Numero وتعني بلا رقم أو Cent numero وتعني رقم مائة، بدلاً منها. وبما أن كلمة /Sans/ وكلمة /Cent/ تقرآن بالتركية سان /San/. والكلمة التي يقولها الفرنسيون /بلا رقم/. ولهذا فإننا سنقول بدلاً من كلمة مرحاض (الرقم مائة).. بالنسبة لي هذا هو الكبرياء وهذا هو الحسن.. ولكن أعد هذا الكبرياء.. كبرياء الغابات ليس إلا. وهذه هي الرذالة بعينها في نظر العالم من أجل هذا الكبرياء.

وهناك كلمات كثيرة نلفظها خطأ ونكتبها خطأ.. وهي الكلمات الأجنبية التي تأخذ مكان الكلمات التي نراها معيبة في لغتنا الأم. لماذا اللف والدوران بالكلام لأقص عليكم قصة؟ لأنني سأصل بكم إلى كلمة /بيض الرجل/ /Tasak/ وعنوان هذه القصة ((في بلاد المخنثين)) العنوان يجب أن يكون /مابقي من خصية الرجل/. ربما أن كلمة بيضة الرجل.. يعد كلاماً معيباً في نظرنا.. فأنا في هذه الحالة لن أستطيع رفع عنوان قصتي. ولو خُيِّرت لكتبت العنوان حسب التسمية الدارجة.. ولكن المجلة التي ستنشرها.. سترفض نشرها.. لأنها تبدأ بهذه الكلمة المعيبة. ماذا كان علي أن أقول؟

ولهذا السبب بدأت قصتي قائلاً: (قبل كل شيء يجب أن أبدأ الحديث باسم القصة) لنفرض أن فرنسياً أو انكليزياً أو ألمانياً.. أراد أن يكتب هذه القصة. وبما أن هذه الكلمة أي (الخصية) معيبة فهل يستعمل الفرنسي أو الانكليزي أو الألماني كلمة خصية بالتركية عوضاً عن كلمتهم الأصلية حتى لايكون عيباً؟. إن عدم ذكرنا لكلمة الخصية أو خوفاً من ذكرها أو كتابتها على أنها معيبة، هي الإزدواجية بعينها في اللسان.. هذا بالنسبة إلي على الأقل.

نعم هناك كلمة /شرموطة/.. لا نستطيع أن نقول عن أي واحدة تأخذ هذه الصفة حقيقة /شرموطة/ هكذا.. لأن الدستور يمنعنا من نعت أي فتاة أو امرأة بهذا الكلام.. لأنه يحقرها.. ولكن أن نقول للخصية خصية هذا لا يعطي معنى على تحقير الخصية.

إذا كان قول أو كتابة الخصية عيباً. وحتى لايكون عيباً فما هي الكلمة التي سنضعها مكانها.

كلمة الخصية بالفرنسية (Testicule) وبالانكليزية (Testicle) إذا كنت سأستعمل بدلاً من الخصية التركية إحدى هاتين الكلمتين. لكان اسم هذه القصة أصبحت على الشكل التالي: ((رجل بقي له الـtesteculeـة في بلاد المخنثين)).

إنني دائماً وأبداً مع المساواة.. لو أن الفرنسيين وضعوا كلمة الخصية بدلاً من testicule. كونها كلمة معيبة عندهم.. فأنا كنت وضعت بدوري بدلاً من الخصية /tasak/ التركية، الكلمة الفرنسية /testicule/ ولكن في هذه الحالة تظهر عقبة كبيرة.. وهي أن الخصية كلمة خاصة بالرجل فقط عندنا.. أما لدى الفرنسيين فالمفردات عندهم تستخدم للذكور والإناث. فالفرنسيون يضعون في مقدمة الذكر le وتأتي la في مقدمة الكلمات التي تخاطب الإناث. وبما أن الخصية ليست أنثى عندنا.. فعلى الفرنسيين أن يقولوا Le Tasak.

يدعون أن خصية الخاروف أو الكبش تستعمل طعاماً طيباً مع المشروب أنا لم أذقه حتى الآن... نستطيع هنا أن نتكبَّر، بدلاً من استخدام خصية الكبش.. نقول بيض الكبش.. فتكون عنوان قصتي على الشكل التالي: الشخص الذي بقي ببيضه في بلد المخنثين. لو وضعت هذا العنوان لما استطاع أحد فهم واستيعاب هذه البهدلة أبداً.

فإلى جانب وظيفتها الأصلية في الجسم، فإن الخصية عندنا ترمز إلى الشجاعة. هذا ليس عندنا فقط.. عند الإنكليز أيضاً.. لو تفتحوا المعاجم والقواميس ستشاهدون كل شيء كما أقوله لكم.

ولست أدري هل ستوافق المجلة على نشر هذه القصة التي وردت فيها كل هذه الكلمات المذكورة عن الخصية. إذا لم يقبلوا نشرها سأطلب منهم تصريحاً خطياً عن سبب عدم نشرهم لها. فمثلاً سيكتبون لي هذه الحقيقة: ((لأن موضوع قصتك تستند على الخصية)). أو ((لكثرة تكرار كلمة الخصية في قصتكم وهذا بحد ذاته خارج نطاق الأدب والأخلاق العامة))... وهكذا.

ومن ناحية ثانية.. لا أدري هل ستدخل هذه الكلمة (الخصية) ضمن قانون الاستهجان أم لا. فمثلاً: إن استخدام بعض الكلمات ممنوع في الإذاعة والتلفزيون. فهل تدخل كلمة الخصية ضمن الكلمات المحظورة في الراديو والتلفاز. وإذا ما دخلت كلمة الخصية ضمن نطاق قانون الاستهجان.. وإذا ما حاكموني لهذا السبب.. فإنني سأدافع عن نفسي بشجاعة ولا أريد لأحد أن يشك في ذلك: طبعاً سأدافع عن نفسي، وليس عن الخصية. وفي النهاية سنخرج أنا والخصية بريئان.

والآن جاء الدور إلى القصة التي بدأنا بمقدمتها وعرضنا فيها رأينا مطولاً.

القصة كما أسميناها: (الرجل الذي بقيت خصيته معه في بلد المخنثين)

وكما أسلفت سابقاً أن هذه القصة حقيقية.. وليست مصاغة ولا مؤلفة. ولكن لن أفصح لا عن مكان حدوثها ولا أسماء أبطالها:

لايعود سبب عدم ايضاحي للحقوق.. أبداً فأنا لا أريد أن أضع القارىء الكريم أمام حزورة أسئلتهم.. (من هو هذا البلد؟ ومن هم أبطال القصة؟.).

وكما تعلمون يوجد في كل بلد أنواع متشابهة لمقاييس الشجاعة والرجولة والشهامة، في بعض الدول تكون قوة العضلات هي أساس القوة. حتى أن بعض الأشخاص الذين يتمتعون بصحة جيدة يُعتبرون أقوياء.. وفي بعض الدول تكون القوة بالطول والعرض وقوة العضلات. ثم أن الشجاعة أيضاً تعد في مصاف الأقوياء.. وفي بعض الدول يُصنف الإنسان الصريح والذي يقول عن الحق حقاً والباطل باطلاً، ولا يخاف من الكلمة التي تخرج منه.. في مصاف الأقوياء والشجعان.

في إحدى الدول كان مقياس القوة هي الخصية، فالشجاعة والقوة تقاسان بالخصية. وعندما يكون الحال هكذا.. فالنساء لايخرج منهن واحدة قوية أو هكذا يُظن: ومع أن النساء القويات لايملكن الخصية. فإنه يُشَّار لهن بالرمز. المرأة التي تملك خصية. وفي بعض الأحيان يكيلون المديح لها بقولهم: المرأة ذات الخصية.

وكان الرجال الأقوياء ينعتون /أبو الخصية/. وكانت شجاعتهم وقوتهم تقاس بثقل خصيتهم وكبرها وحجمها.. وكان يقال عن أقوى الرجال وأشجعهم /أن خصيته الواحدة منهم تزن ست أوقات/ عندما تزن خصية الرجل في تلك البلاد... ست أوقات.. فيجب أن يكون في بلاد أخرى.. بطلاً قومياً.. أو فناناً مشهوراً أو بطلاً شعبياً..

أن تكون خصيتك بست أوقات.. يعني أنه الرقم القياسي للرجولة

والقوة، وما من شجاع استطاع تحطيم هذا الرقم. فمثلاً: في تلك البلاد، لم يكن أحداً يملك خصية تزن ستة أوقات ودرهمين.

ومع أن الشاربان يعدان مقياساً للرجولة والقوة.. فإنهما يأتيان بالمرتبة الثانية بعد الخصية.

ففي هذا البلد الذي تقاس فيه الرجولة والقوة بالخصية.. حدث فيه انقلاب عسكري.. استلم الحكم فيه سبعة من ذوات الخصيات الكبيرة.. وأكبر السبعة خصية وبطبيعة الحال. استلم القيادة العامة. وحسب ما يدعون.. فإن القائد العام الذي تعد خصيته أكبر خصية. فقد كانت كبيرة بحيث أنه كان يرمي خصيته اليمنى على كتفه الشمال وخصيته اليسرى على كتفه اليمين. وكأنه يضعهما في /خِرجٍ/. ويمشي بهما هكذا شكل مثير..

أما الستة الباقون فكان كل واحد منهم قد استلم مركزاً حسب كبر خصيته.. وكان من الطبيعي أن يستلم الحكم أقوى الرجال في ذلك البلد الذي تقاس فيه الرجولة والقوة بقدر حجم خصيته.. لهذا وضع الشعب ثقته وأحنى رأسه أمامه، كون قيادته كلها من ذوات الخصى الكبيرة. وبطواعيةٍ ومع مرور الزمن تبين أن خصيات الرجال السبعة الذين استولوا على الحكم والذين تزن خصاهم ستة أوقات. لا تقوم بأعمالها الأصلية الموكلة لها منذ زمن طويل. ويظهر بوضوح كل يوم أكثر من اليوم الذي مضى. فإذا كانت الخصية لا تقوم بواجبها المخصص لها.. فماذا يُرجى منها؟. أو ما الفائدة منها.. حتى لو كانت ست وستين أوقية.. بدلاً من ست أوقات.

ومهما حاول الزعيم.. أن يكذب هذا الأمر.. ومهما حاول في مدح خصيته عن طريق المجلات، والجرائد والإذاعة والتلفاز إلا أنه لم ينج في اقناع الشعب.. الذي بدأ يسحب ثقته من هذه المجموعة التي ترأست الحكم في البلاد، مدعياً بأنهم لا يملكون الخصى الكبيرة والعاملة.. وشعر الشعب أيضا

بأن حكامه خدعوه. إذن هؤلاء كانوا مزيفين. أمثالهم القاضي المزيف.. والشرطي والضابط.. وهؤلاء جميعاً كانوا بخصى مزيفة. هذه الخصى كانت للعرض فقط ربما لاتقوم بعملها الأصلي. وما الفرق عند ذلك. بين مثل خصية كهذه.. وبين كيس تبن فارغ. كان الشعب يريد على رأسه مجموعة أخرى لها من الخصى الكبيرة ولكنها في الوقت نفسه عاملة..

بدأت بعض الشعارات تكتب على الجدران بدهان أسود تحت جنح الظلام. ((لينسحب ذوو الخصى المتعفنة من رأس الحكم)) ((الخصية التي لاتعمل لا تحملها محفظة ولا قشاط)) ((إذا كانت الخصية لا تعمل.. فلن يكون هناك أولاد ولاأحفاد)).

وبدأ بعض أصحاب الخصى الكبيرة من بين صفوف الشعب بالدخول في مسابقة الخصى الكبيرة. وخاصة المثقفين منهم. وبدأت الحرب الإعلامية بين هذه المجموعة الجديدة. (الصحفيون ذوات الخصى الكبيرة، والعلماء والفنانون وبين القيادة الحالية. وبما أن المجموعة الجديدة نشأت على التربية الحسنة وتنحدر من سلالات عريقة ذات حسب ونسب وتربية وأخلاق... فإنها كانت لا تذكر الخصية علناً، لكنهم كتبوها في زواياهم وبرامجهم بمثل هذه العناوين، يجب أن تكون الخصية بيضاء وليست سوداء)) ووسط هذه الظروف الصعبة، اجتمعت قيادة ذوات الخصى الكبيرة المزيفة.. وناقشت الأمر فيما بينها وقررت أن يظهر زعيمها على التلفاز ويذيع للشعب بياناً رسمياً بهذا الخصوص. ولكن هذا الزعيم.. كان. ولأنه لم يكن من الذين يقولون بدلاً من (أنا موجود) (أنا غير موجود) وبدلاً من (التيار).. (الخرى).. /Bokum/ /akim/..

توجه إلى إحدى المحافظات وخطب في الشعب من إحدى محطات التلفزة وبدأ الحديث هكذا:

أحبائي أبناء هذا البلد..

منذ زمن طويل وأنا أريـد زيـارة مدينتكـم الجميلـة هـذه، ولكـن لم أجـد الفرصة السانحة. أما اليوم.. انظروا فأنا اليوم في مدينتكم.. كـانت رسـائلكم وشكاياتكم تصل إلي تباعاً والتي تقولون فيها.. إنكم تذهبون وتـزورون كـل المدن إلا مدينتنا... ها آنذا أزور مدينتكم للمرة الثانية.. كنت قد زرتها مـرة قبل خمسة وعشرين عاماً.. حيث كنت أمر منها بالحافلـة.. حتـى إننـا وقفنـا هنا للإستراحة.. وأتذكر. لم يكن أحداً منكم يملك جهـاز /فيديـو/ في منزلـه آنذاك.. ولا جهاز كمبيوتر.. لأنها لم تكن قد اخترعت بعد. وإذ انظر إليكم الآن وأرى هذا التطور العظيم الذي وصلتم إليه. وإنشاء الله سيكون عندكـم جهاز /فيديو/. وأجهزة كمبيوتر.. وأشـياء وأشياء أخـرى في أقـرب وقـت. بعض شعراء مدينتكم يرسلون لي مقاطع من أشعارهم.. /أدامهم الله/ سـأقرأ لكم قصيدة لأنها تهز الأعماق...

الخصية عندما توجد.. يجب أن تكون بيضاء

آمان لا أحب أن تكون سوداء

آه فرفرا آه فرفرا

الخصية بيضاء لايسعها سروال..

يجب أن تكون ست أوقات،

السروال يجب أن يعبأ

شق شق دا شق شق دا.. شق شق دا

الخصية التي تزن ست أوقات

وإذ أشكر الشاعر الذي أرسل هذه القصيـدة العظيمـة لي فلـه مـني جزيـل

الشكر..

أحبائي أبناء هذا البلد...

بدأ القال والقيل يتعاظم شيئاً فشيئاً في هذه الأيام. كل الأقاويل والشائعات تصل إلى مسامعنا.. حذاري.. ثم حذاري من أن تنخدعوا بكلمات خونة الوطن والأمة.. أيها الأخوة المواطنون..

في تلك اللحظة.. كان الشعب يهتف بأعلى صوته:

شق شق دا.. شق شق

الكبير هو أنت

لا خصية أكبر منك

شق شق دا شق شق

ظل هذا الخطاب الهام الذي أذيع بالراديو والجرائد. وبقية وسائل الإعلام الأخرة دون فائدة. أي أن الخطاب لم يقنع الشعب. عندها تمَّ إضافة بند جديد إلى دستور البلاد حُظِر فيه ذكر كلمة الخصية علناً.. وبما أن الشعب له حرية الكلام والفكر.. يستطيع من خلالهما أن يناقش موضوع الخصية بعقلانية كاملة ولكن دون الدخول إلى ذكرها أو فتح حرب معها.. وحسب هذه المادة.. فإن أي شخص يذكر كلمة الخصية بينه وبين نفسه وبصوت عال.. تكون عقوبته السجن لمدة خمسة أعوام.. أما إذا كان أمامه شخص واحد سمعها منه أي الخصية.. فتكون عقوبته خمسة عشر عاماً... أما إذا اجتمع ثلاثة أشخاص في مكان ما، وذكر كل واحد منهم كلمة /الخصية/ مرة واحدة فسيكون جزاؤهم الإعدام ويحاسبون على أنهم أعضاء في منظمة سياسية محظورة. وإذا ذكر أحدهم الخصية/ ثم ندم على ذكرها وقال أنا لم أذكر خصية ذكرت /تخصيص/ عند ذلك يعفى عنه ولكن على شرط أن

تظهر على وجهه علامة الندم والشعور بالذنب (استناداً إلى قانون الندامة).

وعلى مدى التاريخ.. وفي كل زمان ومكان.. كلما زاد الضغط على الشعب بسبب شيء ما.. فإن هذا الشيء ينتشر ويتوزع اضطراداً مع زيادة الضغط على الجماهير.. وكلما تحدث الشعب وأعلن بأن هذا الحاكم لا علاقة له بالخصية ولا بأي شيء وأن خصاهم لاتعمل و.. و.. إنه مقابل ذلك كانت تضاف مواد من العقوبات المحذرة.

في بداية الأمر بدأت الإعلانات تظهر وبشكل كثيف.. أن الخصية لاتساوي شيئاً.. وعلى جميع الناس استئصال خصاهم كإستئصال الأمعاء الاثني عشرية.. وهذا من شأنه إفادة الصحة العامة كثيراً.. ويعطي توازناً في المجتمعات عند تطبيق الخطة العائلية وكان الشعار الذي يتردد على لسان القيادة ((لكل عائلة ولد واحد وخصية واحدة)).

وكما يحدث في كل زمان ومكان، فقد أيقظ هذا الشعار روح رد الفعل الغاضب لدى الشعب.. كانوا يكتبون على الجدران الشعارات المضادة للدولة: ((أيها المواطن اصنع ولدك بنفسك. واحمي خصيتك بنفسك)) كان هذا الشعار قد أدى عمله الإيجابي لدى الشعب. حيث بدأ الجميع على حماية خصاهم بكل ما لديهم من قوة.

بعد ذلك بدأت القيادة تعلن وتذيع عن /فردية الخصية/.. كما أن للإنسان فم واحد و.. واحد.. فانتشرت هذه الشعارات أيضاً.

((خصية واحدة تكفي، خصيتان كثير)) و((الخصية الوحيدة مفيدة، وزوج من الخصى غير مفيدة بل ضار)).

فأظهر الشعب رد فعله سريعاً وقوياً أيضاً: ((الخصية الحقيقية لا تعرف الحظر الحكومي)).

وضعت العقوبات الكبيرة مرة ثانية وأخذت احتياطات شديدة من قبل الحكام في هذا الخصوص: ((كل من له خصية سيعملوه خنثى)). تدق خصيته كما يخصى الثور الهائج.. تضرب خصيته حتى تصبح غير قادرة على أداء عملها الأصلي. ولكن القانون لم يكن يرغم الناس على هذا العمل.. إلا أن الإعلانات كانت تملأ صفحات الجرائد التابعة للدولة والإذاعة والتلفاز وتقول: على المواطنين أن يكونوا خنثى بملء إرادتهم. فهذه العملية مفيدة جداً للوطن على حد سواء فالرجل المخنث يكون هادئاً مسالماً.. لا عصبياً شرساً أو غوغائياً أو فوضوياً.. الرجل المخنث يتصف بأخلاق حسنة.. لايراقب البيوت ولا يكون هجومياً. فالنساء والفتيات والغلمان، وحتى بعض الحيوانات يحافظون على كرامتهم وأعراضهم وشرفهم. وعملية التخنيث عملية سهلة وبسيطة جداً. مثل التبرع بالدم.. عملية تبرع بالخصى بدلاً من الدم.. أو هكذا.. ولكي يكون الشعب مقتنعاً بهذا الشيء كان التلفاز يعرض تخنيث بعض الشخصيات المهمة والكبيرة في طول البلاد وعرضها، وأضحت أبواب العمل مفتوحة على مصراعيها للمخنثين. أما غير المخنثين فيطردون من العمل بقوة القانون: ألم يكن من الأفضل أن يبق الإنسان مخنثاً في بلده يعمل ويأكل على كيفه. أفضل من الذهاب إلى بلاد الغربة للبحث عن الرزق والخبز والتين.

هذه الإعلانات وغيرها أدت ولحد ما إلى نوع من التجاوب بين السلطة والشعب.. ولكن البعض منهم كان يتهرب من ذلك مدعياً بأنه لايستطيع أن يعيش بدون خصية. ولذلك تداعت مجموعة من العلماء بمن فيهم الحقوقيون والأطباء والتاريخيون.. وعلماء الإنسان.. والعلماء الآخرون إلى ندوة مفتوحة لمناقشة فوائد التخنيث.. لدى الشعب، واقتراح القرارات اللازمة بشأن تطبيقها وتنفيذها وجاء في المقدمة: عندما خلق الله الإنسان من الطين بقيت

قطعة منه لايستفد منها. وبعد الخلق رغب الطين أن لايصبح تراباً يُذر في الهواء (ومهما كانت الأسباب كان الله في عناد في ذلك الوقت). فأخذ هذه القطعة من الطين وبدأ يلصقها في أنحاء متفرقة من الإنسان.. ولهذا السبب وُجدت تلك الزوائد في الإنسان ولكن حتى العلم لايستطيع أن يغرس في رأس الإنسان أمراً لايفهم منه شيئاً. ومهما أسدي له من نصح، فيظل متمسكاً بكلامه وقراره: ((خصيتين لا أتركهما أبداً)) حتى النساء وقفن إلى جانب الرجل يدافعن عن الخصية بكل السبل والوسائل، عندما لم تطبق أوامر القيادة بالتي هي أحسن.. فبدأوا باستعمال وسائط الجبر والقهر.. وبدأت الأوامر والتعليمات ترد تباعاً من القيادة. مفادها: لن يبق في طول البلاد وعرضها رجل بخصية.. وكل رجل لم يخنث نفسه طواعية.. وقبض عليه فيما بعد.. فإن الأوامر نصت بصراحة.. لن يصبح مخنثاً فقط بل يستأصل طاقمه السفلي من أساسه.. عندها بدأت النساء بالمعارضة ورفع راية الحرب، لأنهن وقعن ضحية ظلم هذا القانون.. حيث بدأ الختان يطبق على بعضهن.

جميع الذين كانوا يحاولون حماية خصاهم والتمسك بها.. كانوا يتاورون عن الأنظار ويختبئون، ولكن المخنثين.. لم يعطوهم الفرصة بالبقاء هكذا.. كانوا يحملون خصاهم المعفسة.. ككيس التين الفارغ ويخبرون الدولة. ويرشدونها إلى أماكن الذين لم يخنثوا.. وبذلك تتحقق المساواة مع أمثالهم.. وكانوا دائماً يذيعون على الشعب فضائل وفوائد التخنيث.

وكان التلفاز يقدم برامج خاصة عن التخنيث وفضائله فمثلاً: ظهرت فتاة نصف عارية على شاشة التلفاز وقالت: ((أنا أحب المخنثين)) وأحد المخنثين ظهر على الشاشة أيضاً وهو يقول: //اوه ما أجمل الحياة دون خصية//.

حتى أن بعضهم كان يعلن وبصراحة أن أصحاب الخصى هم خونة الوطن. وعلى زجاج السيارة الخلفي لصقت وريقات ملونة كتبت عليها

العبارة التالية: ((أنا أصبحت مخنثاً.. وأنت؟)).

كان أصحاب الخصى. قد نزحوا من المدينة وبدأوا يعيشون في الجبال والغابات والكهوف، ومع هذا لم يستطيعوا حماية خصاهم التي لايبلغ حجمها حفنة يد. بسبب تعقب جند المخنثين لهم.

وفي النهاية.. نعم وأخيراً.. لم يبق في ذلك البلد شخص واحد بخصية. ولكن الشائعات بدأت تتسرب تباعاً. بأن شخصاً واحداً بقيت خصيته معه.. ولا أحد يعلم مكانه. ولم تُعرف هل هذه الإشاعة صحيحة أم لا؟..

كانت نسبة الزيادة السكانية قبل عملية التخنيث تصل إلى ٣٪.. ولكن مع التخنيث بدأت هذه النسبة تهبطحتى أصبحت صفراً.. ثم بدأ عدد السكان يتضاءل ويتضاءل، فقد بدأت عملية التخنيث تفعل فعلها أكثر من الخطة العائلية المتبعة سابقاً. وبدأت الدولة والوطن يسيران شيئاً فشيئاً نحو الهاوية بسبب تقلص عدد السكان.. وكما في كل مرة عندما يبدأ الوطن بالانهيار. فيكون هذا دليل انقلاب عسكري ما.. وهذا ما حصل بالضبط.

وكان أول عمل قامت به القيادة الجديدة.. إعطاء الحرية للخصى.. ولم تكن الخصى موجودةً أبداً.. حتى تعطى هذه الحرية.

أسرع الجميع بالبحث عن ذلك الرجل الذي يعيش في الكهوف والجبال والذي يملك بمفرده خصية واحدة في طول البلاد وعرضها... أذيعت بيانات خاصة بأن الرجل عليه الأمان.. وخصيته أمينة من كل سوء.. وأن له جائزة كبيرة إذ استطاع أن يحمي خصيته طوال هذه المدة. ولكن مع الأسف الشديد.. لم يظهر الرجل ولم تظهر خصيته أيضاً.

ثمة شائعات بدأت بالإنتشار بين الشعب ومفادها أن الرجل يركب حصاناً أبيضاً طائراً.. يزور المدينة ليلاً. وحسب إفادة الذين شاهدوه: أن

خصية الرجل تلمع في الليل كالنور وتوزع الضياء كالشمس وهو على ظهر الحصان.

لم يبق أحد في البلد إلا وبحث عن ذلك الرجل الذي بقيت خصيته معه. البوليس. الجندرمة. الجيش. والدفاع المدني. والمدنيون.. وكلاب البوليس الطائرات الحربية والهيلوكبتر (المروحيات) جميعهم قاموا بتمشيط الجبال والأنهار والغابات.. لم يجدوا له أثراً.. أما هو فقد استمر في إظهار خصيته في الليل مثل وميض نور قوي.

كانت الجائزة التي ستدفع لذلك الرجل تكبر وتتضخم.. بحيث أن أي إنسان حصل على هذه الجائزة لعاش طول حياته مرفهاً سعيداً هانئاً دون أن يعمل شيء على الإطلاق.. يكفي أن يجلس على خصيته ويفرشها طولاً وعرضاً.. في أحد الأيام دخل رجل إلى الدائرة الحكومية التي ستدفع الجائزة. وادعى أن له خصية وطلب الجائزة من المسؤولين.. وعندما قبض الرجل جائزته أصبح بين ليلة وضحاها بطلاً قومياً كبيراً.

انتشرت صوره على صفحات الجرائد والمجلات.. وعملت محطات الإذاعة والتلفاز برامج وريبورتاجات خاصة معه. وصورت خصيته كاملة من كل أطرافها.. أذيعت أرقام مفصلة عن حجمها وكبرها وطولها وعرضها وشكلها.

بعد هذا التاريخ حصل شيء لم يكن بالحسبان أبداً.. عندما أخذ ذلك الرجل جائزته الكبيرة واشتهر بما فيه الكفاية... بدأ أصحاب الخصى يخرجون من مخابئهم تباعاً.. كانوا في البداية اثنان أو ثلاثة في اليوم الواحد.. إلى أن وصل الرقم إلى بضع مئات.. يطلب جميعهم الجوائز على أن لهم خصى حقيقية.. وأقيمت الاحتفالات الوطنية والقومية على هذه المتغيرات اليومية الخصوية، والمسابقات عن أجمل خصية ظهرت حتى الآن، تماماً كمسابقة

ملكة الجمال في أية دولة. كأجمل فتاة.

بعد زمن قصير.. ظهر أصحاب الخصى بأعداد كبيرة جداً بحيث كادت ميزانية الدولة أن تصاب بالإفلاس من كثرة توزيع الجوائز.

كيف استطاعت هذه الكثرة من أصحاب الخصى أن تحمي خصاهم من ذلك الخطر الشديد الذي فُرض على الشعب والشارع، وكيف عملت المخابرات العامة والخاصة على تغطية كل هؤلاء الذين يملكون الخصى في زمن الحظر.

هذا غير ممكن أبداً.. يجب أن يكون هناك سر ما في تفاعلات هذه الأحداث الخصوية. ولكن ما حصل بعد ذلك، وهو ماكان يجب أن يحصل، فقد تدافع العلماء في ندوة عامة عن الأمر وتدقيقه فتوصلوا إلى هذه النتيجة: أن كل الذين قدموا أنفسهم على نيل الجائزة الكبيرة على أن لهم خصى.. كانوا جميعاً مزيفين.. وأن خصاهم لم تكن خصى حقيقية، كانت خصى تكنولوجية.

وكيف لا.. والعصر عصر التكنولوجية الحقيقية.. حيث بدأ الإنسان يضع الرموش المزيفة والقضيب المزيف، حتى الإنسان أصبح مزيفاً عن طريق /الروبوت/ الآلي. فكيف لاتكون الخصى مزيفة.. كل من يضع خصى مزيفة.. كان يسرع إلى الجائزة.. والجوائز كانت تعطى على حسب حجم ووزن الخصية.

كانوا يضعون خصى منفوخة عن طريق الضواغط الهوائية.. حتى أن بعضهم كان يضع خصيته على عربة يد صغيرة يجرها أمامه. لأنه لايستطيع حملها بين ساقيه. حتى أن بعض الخصى كانت تتفجر من الضغط والنفخ الشديدين.

ومع أن العلماء اكتشفوا هذا الأمر.. إلا أن وسائل الإعلام تسترت على ذلك حفاظاً على السمعة الوطنية والقومية.. ومع كل ما قيل عن قياس الشجاعة والرجولة تسرب منها جزء إلى الخارج.. ظل الشعب يتباهى بخصاه المزيفة المنفوخة.

ومهما كان الأمر.. خصى حقيقية أم مزيفة.. أو أي شيء آخر.. كان الدوزان القديم قد عاد.. مع بقاء فرق كبير، بين أصحاب الخصى الحقيقية والمزيفة.. حيث بدأت رؤوس أصحاب الخصى الحقيقية.. تقسوا إلى حدٍ ما.. ثم بدأت القرون تخرج منها تباعاً..

- ١٦ -

خطاب في حفلة عرس

لاشك أنكم قابلتم مخادعاً إلى حين وصولكم لهذا العمر.. وربما يكون هذا المخادع أحد أصدقائك أو أقربائك . وربما أنكم واحد من المخادعين. فيجب أن تعرفوا شيئاً. أنه لا يوجد في العالم مخادع.. نعم.. نعم كالسيد رضا.. ولن يكون مثله أبداً.

وبشكل عام فإن المخادعين يرمون شباك خداعهم لأسباب كثيرة: ربما لمصلحة شخصية ينتفعون بها، أو لنيل وكسب المديح والثناء من غيرهم، أو لفقدهم الأحاسيس والمشاعر.. أما السيد رضا الذي يخصنا فلم يكن من هؤلاء جميعاً. إنه يخدع ويخادع ليخصّ نفسه بقسط من التسلية ويسلي الآخرين. ولهذا السبب نستطيع أن نسميه مخادعا. وباستطاعته وضع مئات المخادعين المحترفين في جيبه. وعندما يرمي ببعض خداعه لا يطلب من الآخرين إلا أن يصدقوه. ولكنه عندما يتحدث.. يكون حديثه جدياً وصميمياً بشكل منقطع النظير.. ومهما كانت نوعية الحديث الذي يتحدث به.. فالجميع يصغون إليه بدقة وكأن كل ما يرويه هو من صميم الواقع.

حياة السيد رضا كلها خداع بخداع.. فقد وُلد الخداع معه، واستمر إلى الآن، حتى أولاده وأحفاده وزوجته الذين عاشوا معه كل هذا العمر الطويل، لا يعرفون حقيقة الكلام الذي يتحدث به صحيح أم كذب.. فزوجته التي تعاشره منذُ أربعين عاماً وإلى الآن كانت تسأله بعد كل حديث يرويه:

- لوجه الله. هل تقول الحقيقة يا رضا.؟.

كان السيد رضا يقص الأحداث المستحيلة الوقوع بأسلوب مقنع للغاية.

أُحيل السيد رضا على التقاعد صحياً وهو برتبة نقيب، ولكنه يقول للجميع أنه تقاعد برتبة عقيد. ليس مدحاً لنفسه ولا طلباً لإقناعهم. فالجميع يعرفون أنه متقاعد برتبة نقيب. ومع ذلك فإن حديثه لهم /أنا عقيد/ كانت تعجبهم وتترك في نفوسهم الطمأنينة والراحة.

إذا كان يريد خداع الآخرين فإنه يقول لهم أنا برتبة /جنرال/ ولكنه يكتفي برتبة العقيد كونه مخادعاً متواضعاً بسيطاً.

ومن ميزة الخداع عند السيد رضا، أن كان يغير أزمنة وأمكنة الأحداث التي يرويها على هواه وحسب نفسيته. كالسحرة، والشطار عندما يغلقون عيون المتفرجين لدى قيامهم بعمل معين. وبما أن للسيد رضا ميزة خداع الأذن بشكل مثير. فإنه كان يروي ويقص الأحداث الواقعة قبل ولادته بزمن طويل. وكأنه عاشها بنفسه. ويسمعها الآخرون منه بشوق.. ومع أنه لا يعرف غير لغته التركية.. فإنه كان يحكي عن مغامراته وصداقاته مع أهم المشهورين في القرن الأخير وأنه يراسلهم.. منذُ سن مراهقته وشبابه ورجولته..

كان السيد رضا في السبعين من عمره.. يروي أنه شارك في الحرب التركية اليونانية، كيف غنم سيف الجنرال اليوناني /تريكو بيس/. فكان الجميع يصغون إليه ومن يعرفه تمام المعرفة كان ينصت إلى حديثه بشدة ولهفة.. أما الذي لا يعرفه فإنه كان يستمع إليه بحيرة ودهشة.

عندما ذكرت له مرة أن استلام سيف الجنرال /تريكوبيس/ أمر مستحيل من ناحية عمره.. فأجابني وهو لم يترك شيئاً من حديته..

- ولك يا أخي.. سمعت من أكثر من عشرين ضابطاً متقاعداً أنهم

KMH

استولوا على سيف الجنرال اليوناني /تريكو بيس/.. أفلا أكون واحداً من هؤلاء؟.

وكان يذهب إلى أبعد من ذلك كله في مخادعته، بحيث كان يحكي ويروي أنه كان صديقاً حميماً لديكتاتور إيطاليا /موسوليني/ قبل زمن من ولادة الأخير بكثير.. ويأتي بتفصيلات دقيقة جداً عن مغامراتهما في ميلانو وغيرها. بحيث يصعب علي عدم تصديقه أو من المستحيل أن لا أصدقه. وأكثر من هذا فإنه كان على علاقة مباشرة مع هتلر. وقبل زمن مجيئهما إلى الحياة بزمن طويل وأنهما كانا يشربان البيرة معاً في إحدى حانات ميونيخ.. ورغم السلبيات التي تلف الزعيم الألماني هتلر. فإنه من الرجال الذين /يجلسون/ أعوج ويتكلمون جالس. أي أن هتلر لم ينس صداقته للسيد رضا أبداً حتى بعد تسلمه القيادة في ألمانيا.. فقد أرسل إليه خطاباً يطلب فيه من السيد رضا.. مساعدته في قيادة ألمانيا، وطلب منه الإسراع في الحضور. ليقلده منصباً رفيعاً في القيادة الألمانية. حيث سمع هتلر بأن السيد رضا واقع تحت ضائقة مادية كبيرة.. وكان يتكلم عن هتلر ذاكراً اسمه الأول /أدلوف/ ((كان من الأفضل عدم الذهاب إلى ألمانيا بدعوة من أدلوف. لأن اسمي كان بين لوائح المحكوم عليهم بالإعدام في محاكم /نورمبرغ/ الشهيرة: كان يتكلم ويطرق التفكير لبعض الوقت ويضيف: ((لا.. لا كان من واجبي عدم تركه وحيداً.. فلو كنت إلى جانبه لما حصل له كل ذلك.. لأنهم كانوا سيستمعون إلى كلامي.. وأرشدهم إلى أسلوب التصرف الصحيح مع أدلوف.

كان الجميع يصغي إليه وبانتباه شديد. وينتظرون منه كلاماً آخر... بعضهم كان يغشى من الضحك، والآخرون يستمعون إليه بجدية..

كانت التواريخ غير مهمة للسيد رضا.. لأنه يروي الأحداث غير المتابعة زمنياً. وكأنه عاشها حقيقة و لم يصيغها من خياله.

يروي مثلاً: أن القيادة أرسلته إلى مصر للاشتراك في حرب قناة السويس.. ومن هناك نقل إلى الجبهة الشرقية ثم إلى جبهة /غاليجيا/.. فكان يتحدث وبإسهاب عن ذكرياته الحربية في تلك المناطق. وكان يقول: ((إن أنورنا)) والمقصود (أنور باشا) ومع أن رتبة السيد رضا أصغر من رتبة أنور باشا لكنهما كانا صيقين حميمين جداً.. وعندما يقول ((إن عصمتنا)) ويقصد بذلك. عصمت باشا.. والجميع يعرفون قصده. كانا (السيد رضا وعصمت باشا) يلعبان /البريدج/ داخل الخيمة وعند اشتداد المعارك قائمة.

إن الحركات الخداعية والتصديقية التي يقوم بها السيد رضا لم تكن نابعة عن قصد بغرض تصديق الناس روايته، ولكنه كان يروي الأحداث المستحيلة الوقوع بعفوية ويضع فيها بعض اللمسات التي تدل أنها مستحيلة... ينفخ فيها الروح وروعة الأداء. بحيث تجعل منه محدثاً آخر حقيقياً وكاذباً.. وتظهر كذبة السيد رضا أنها تملك الحقيقة بفضل دقة تسلسلها وجمال أداء تفاصيلها.

لقد جعلني أفكر ملياً بتفاصيل الكذب وأسسه ومحتوياته من خلال خدعاته الجميلة إن مهمة الإنسان الكذاب هي إعطاء دفع لمصداقية تصديق الكذب. أما المخادع فإنه لا يحاول أن يجعل الناس الذين يستمعون إليه يصدقوه. الكذب يقال من أجل التخلص من عقاب ما.. أو لمصلحة مادية أو معنوية. أما المخادع فكلامه غير موجه لإعطاء المصداقية له. والهدف منه: قضاء أوقات الفراغ بالابتسامة والضحك.

لمراوغة السيد رضا ميزة أخرى هي غياب التكرار والازدواجية فيما رواه ويرويه. ولهذا فهو يعتبر مؤلفاً ومبتكراً للفن القصصي. بحيث لو سجلت كل أقواله وقصصه ورواياته على كاسيت عادي. لظهرت لنا بأنها عمل ناجح جداً من الناحية الأدبية. فهو يضع مراوغته أو مخادعته وبشكل مباشر على

هامش كل حادثة آنية في زمانها ومكانها... ولو أن أعماله جمعت في كتاب أو مؤلف، فيكون بهذا العمل قد أضاف للعالم عملاً أدبياً رائعاً جداً.

سأحاول أن أقص لكم حادثة أو مراوغة أو مخادعة أو محادثة قام بها. وكنت شاهداً عليها.. لأنني أعرف السيد رضا جيداً.

كنت مع رضا في حفلة عرس لأبناء أحد معارفنا في إحدى المدن الألمانية. العروس ألمانية... وقد أقيمت الحفلة في صالون كبير بحضور أقرباء العروسين، ومجموعة كبيرة من المدعويين.. وبما أن السيد رضا من المدعويين.. ومن الشخصيات المعتبرة إلى حدٍ ما، فقد طُلب منه أن يلقي كلمة الافتتاح في الحفلة. وكنت أعرف تماماً أنه لم يجهز نفسه على إلقاء مثل هذه الكلمة.. لأنه لا يعرف أنه سيلقي كلمة في هذه الحفلة.. وكنت أنتظر بفارغ الصبر عن الشيء الذي سيتحدث به وعن أي مراوغة سيضع النقاط فيها على الحروف.. وماذا كان سيتحفنا من خياله الخصب من الوقائع والأحداث. وكنت أعرف أنه لا يستطيع الكلام دون أن يرمي حبال الخداع على الآخرين.

بدأ بالحديث، وكانت كلماته تترجم حرفياً إلى اللغة الألمانية. سأحاول بقدر الإمكان، وعلى قدر ما بقي في ذاكرتي، أن أنقل إليكم هذه الكلمة التي ألقاها السيد رضا في تلك الحفلة.

أيها الضيوف الأعزاء: إنه ليفرحني كثيراً أن تعطوني فرصة الحديث في هذه الليلة السعيدة. أود أن أبدأ كلامي بحادثة جرت معي قبل سنوات. كنا على جبهة /غاليجيا/ في الحرب العالمية الأولى نحارب الأعداء. (في ذلك الوقت لم يكن السيد رضا قد ولد بعد.. هذه الحادثة مرت دون تعليق). جنباً إلى جنب مع الألمان. وحسب تعليمات قيادتنا والقيادة الألمانية يجب أن يسير الجندي مسافة أربعة كيلو مترات في الساعة.. تلك كانت تعليمات قيادتنا

استلمتها القيادة حرفياً مـن الألمانيـة. لأنـه في ذلـك التـاريخ لم نكـن نعلـم أن أمريكـا سـتدخل الحـرب ضدنـا. ولكـن مـع الأسـف لا الألمـان ولا الأتـراك استطاعوا التقيد بهذه المادة. فالألمـان كـانوا يسـيرون خمسـة كيلـو مـترات في الساعة. والأتراك ثلاثة كيلو مترات.. ومهما حـاولت القيـادة تخفيـف سـرعة الجنود الألمان وتسريع الجنود الأتـراك، فإنهـا لم تسـتطع الوصـول إلى النتيجـة المطلوبة. ولهذا كانت المسافة التي تقطع في ثماني ساعات.. يقطعهـا الألمـان في ست ساعات ونصف الساعة والأتراك في عشر ساعات ونصف الساعة.

وعندما كانت تعطـى الأوامـر .. فـإن الجنـود سيصلون إلى نقطـة مـا في الساعة الفلانية.. الألمان كانوا يصلونها أولاً، ثم الأتـراك بوقـت غـير قصـير. لماذا يحصل هذا التأخير؟ لم يفهم أحـد سببه، ولم يجـدوا لـه مـبرراً. وفي هـذه الحال. كان الجنود الألمان يخرجون إلى مطاردة العدو مبكريـن. أو ينهزمـون قبل الأوان.. أما الأتراك فكانوا يتأخرون دائماً عن مطاردة الأعـداء أو الهزيمـة أمـامهم. ولهـذا السـبب كـانت الخطـط العسـكرية تتغـير تباعـاً.. لم نسـتطع تخفيف سرعة الألمان ولا زيادة سرعة الأتراك... فكانت الفوضى تسود جبهـة /غاليجيا/ في ذلك الوقت. بالنسبة إلى قنـاعتي الشـخصية لـو حـدث الـتزامن والتآلف الحقيقيين بين الألمان والأتراك.. لانتصرنا في تلـك الحـرب.. أي كنـا انتصرنا في الحرب العالمية الأولى..

المهم لنعد إلى قصتنا أو حادثتنا.

كانت الحرب قد استعرت في صباح أحد الأيام.. كـانت قذائـف مدفعيـة العدو تنفجر بكثافة حولنا. فـاختلطت الوحـدات الألمانيـة والتركيـة ببعضهـا. وشرعت عناصر الإسعاف تنقل المصابين والجرحى إلى المستشفيات العسـكرية المتنقلة التي نُصبت في الصحراء. كنت آنذاك جالساً في خيمتي. وقد أحضرت عناصر الإسعاف جندياً ألمانياً أُصيب بساقه الأيسر، وقـد بـترت مـن الفخـذ،

ولم يكن للساق المقطوعة من أثر. وكان هناك مجموعة كبيرة من السواعد والسيقان المقطوعة. وكما تعلمون أن عملية نقل الأعضاء والتي تسمى الآن بالـ/بلاتاسيون/. فإن أول عملية من هذا النوع جرت في الخيمة الصحية من قبل المسعفين. فقد كان من بين الأطباء.. طبيباً ألمانياً جراحاً حاذقاً. وبما أن قيمة الإنسان تتلاشى في زمن الحروب والأهوال. فإن طبيبنا هذا أصبح ماهراً في الجراحة.. من كثرة ما قطع وما وصل وما أراق من دماء الجنود. وكأنه يصلح رجل طاولة عادية. كان ينقل السواعد والسيقان إلى الذين خسروا سواعدهم وسيقانهم. كان من المقرر أن يُنقل إلى ذلك الجندي الألماني الذي بُترت ساقه اليسرى ساقاً غير ساقه. فبحث عن ساق مناسبة من بين السيقان المتراكمة هناك. وكانت تلك الساق ساق جندي تركي وقد عرف من حذائه العسكري والثياب المتبقية على ساقه. فنقلت هذه الساق إلى الجندي الألماني. استغرقت العملية ست ساعات متواصلة ولست أدري. كم بقي الجندي الألماني طريح الفراش أربعين يوماً أو شهرين كاملين.. المهم أن الجندي الألماني شُفي وبدأ السير على رجليه ومُنح إجازة نقاهة إلى وطنه مدتها ثلاثة أشهر. وعندما انتهت النقاهة عاد إلى قطعته أو وحدته. حضر مع قائد وحدته الطبيب الجراح الذي نقل له الساق. وكنت في ذلك الوقت وبالصدفة جالساً مع الطبيب. فأكد الضابط الذي يرافق الجندي الألماني للطبيب، أن الجندي لايستطيع المساواة بين ساقيه الاثنتين عند المسير... إن هذا العسكري المسكين كان يشعر أن ساقه اليمين الألمانية الأصل تنتقل بسرعة عند المسير على عكس ساقه اليسرى التركية التي تسعى للتخفيف من سرعة المسير فترجعه للخلف.

كان الجندي المسكين يتعذب كثيراً. لا أن يخفف من سرعة الساق الألماني ولا يستطيع أن يسرع من ساقه الأيسر التركي. هيا ضعوا نفسكم مكان هذا العسكري المسكين. هل تعرفون ماذا حصل في النهاية؟

استطاع هذا الجندي الألماني. أن يكافئ بين ساقيه الاثنتين بعد عذاب ومشقة كبيرتين، وبهذا استطاع أن يطبق تعليمات قيادته.. بأن الجندي يجب أن يسير في الساعة الواحدة أربعة كيلو مترات. فكان يقطع هذه المسافة خلال الزمن المطلوب.

كان السيد رضا يقص هذه الحادثة بشكل جدي جداً.. وعندما وصل إلى هذه النقطة.. ابتسم بعض الشيء وكأنه يقول للمستمعين ((بكل تأكيد عرفتم بأن الذي رويته لكم ليست حادثة حقيقية)) وأضاف:

أيها الضيوف الألمان والأتراك الأعزاء.. ها نحن نقيم حفلة نزوِّج من خلالها ابنتنا الألمانية على ابننا التركي.. وأقولها لكم بحكم خبرتي وتجاربي الماضية. بأن أحد العروسين لو سار مسرعاً والآخر بطيئاً فإن أولادهما وأنا على ثقة من ذلك. سيأخذون الوسط بين الاثنين وسيطبقون تعليمات القيادة حتماً. أتمنى لهما السعادة. وأتمنى أن يصبح لهما أولاداً أصحاء يعيشون حياة ملؤها السعادة والتوفيق.

فظهر تصفيق حاد من الصالون.. تعجبت كيف افتعل السيد رضا هذه الأكذوبة في لحظات قليلة. لقد تذكرت شيئاً آخر. نعم إن السيد رضا مخادع ومراوغ من الطراز الأول، ولكنه يملك طرقاً دقيقة في النقد البناء، فعندما انتهى من إلقاء كلمته في تلك الأمسية.. قال لي:

- هل تعرف يا صاحبي.. إن الألمان يخسرون دائماً لأنهم يسرعون خطاهم والأتراك يخسرون لأنهم بطيئون جداً. لو وجدنا الوسط بين الطرفين لوصلنا إلى الهدف المنشود لا مبكرين ولا متأخرين..

- ١٧ -

معاني التاسع عشر من شباط (فبراير)

(إن تاريخنا الحافل والعظيم يحمل في طياته أياماً مقدسةً كثيرة وكلها تحمل من المعاني والعبر الشيء الكثير. ولكن أشرف وأعظم هذه الأيام على الإطلاق هو يوم ١٩شباط. لذا يجب علينا أن نرفع من أهمية ومعنى هذا اليوم، ونحتفل به احتفالاً كبيراً يضاهي احتفالنا بأيامنا المجيدة الأخرى.

ويجب علينا أن نقدم خالص شكرنا ووفائنا لصانعي ١٩ شباط الخالدين ونقدم لهم أسمى آيات الشكر والتبجيل في ذكراهم السنوية، من مدننا الكبيرة، ومناطقنا ونواحينا وفي كل مكان من أرض الوطن. يجب أن نخلد أسماء الذين صنعوا تاريخ ١٩ شباط. على كل شارع وحي ومدرسة وساحة عامة وحديقة. ويجب أن تقام تماثيلهم في الساحات العامة والشوارع الرئيسية وبهذه الطريقة نكون وفينا بالعهد لأبطال ١٩ شباط وأننا على طريقهم سائرون.

إن تاريخ ١٩ شباط يجب أن يذكرنا بالأحداث الجسام والأيام الصعبة التي مرت بنا قبل ذلك التاريخ.. ومن خلال التجربة التي مرت بها الأمة فيجب أن لا تسقط فيها ثانية أو تنحدر إلى طريق أسوأ.. وجميعكم يعلم علم اليقين.. بأن بعض خونة الوطن.. يشيعون دائماً بأن تاريخ ١٩ شباط لا معنى له ولا أهمية إلا كون هذا التاريخ يذكرنا بشتاء قارس جداً. ولهذا فهم يحاولون إماطة اللثام على هذا اليوم الكبير.. إنهم لن ينجحوا في ذلك أبداً لأن شعبنا لن ينسى تلك الأيام السوداء أبداً.

إن أمتنا التي تعرف القيم وترعاها في مدارسها.. لاشك أنها تعرف قيمة

الذين صنعوا هـذا اليـوم العظيـم والذيـن فتحـوا صفحـة مشـرقة وعزيـزة مـن صفحاتهـا القوميـة والنضاليـة. إن شعبنا وتاريخنـا وأمتنـا كـانوا علـى حافـة الأنهيار قبل هذا التاريخ.. وتلك اليـد الناعمـة يـد ١٩ شـباط منعـت الوطـن والأمة من الانزلاق إلى الهاوية السحيقة.

يجب أن لا ننسى تلك الانتكاسة الوطنيـة قبـل ١٩ شـباط.. ويجـب أن لا نكتفي فقط بتسجيل هذا اليوم بالحروف الذهبية على صفحة التاريخ.. نعم.. إن تلك الصفحة الذهبية يجب أن لا تبقى مغمورة ومطوية داخـل الصفحـات الكثيرة. ويجب أن نعيش ١٩ شباط في كل حياتنا يجب أن نعلنـه واضحـاً في الكتب المدرسية.. وعلى الجميع معرفة قيمة وأهمية هذا اليوم العظيم. ويجـب على كل طفل وشاب وكل أب وأم تركيـان. أن يعرفـوا مـا الـذي فعـل ١٩ شباط في وطننا، وما هو التغيير الذي أحدثه..

ما الذي جاء به إلينا ١٩ شباط؟ ما هي أهمية ومعنـى ١٩ شـباط؟ يجـب أن نعرف الجواب ويجب أن نوضحه لبعضنا على الدوام. وبهذا الخصوص فإن للإعلام دوراً رائداً في ذلك. وهو مهمة وطنية بالنسبة إليه.

لماذا يوم ١٩ شباط يوم مقدس؟. لأن ذلك اليوم هو يـوم الثلاثـاء المبـارك أعدنا فيه ما ضاع من حقوق الشعب. إنه يـوم النصـر الكبـير . الـذي أضـاء وفتح لنا أبواباً وطرقاً مثيرة. لنكشف به آفاق المستقبل المشرق.

لا شك، فإن لكل دولة أيامها المجيدة والعظيمة، لا يمكن نكرانها. كذلك هناك حقيقة واضحة عن قيمة وأهميـة ومعنـى ١٩ شـباط مـن تاريخنـا المجيـد الذي يأتي في مقدمة كل أيامنا. والجميع يعـرف قيمـة هـذا اليـوم والانتصـار الكبير الذي حققناه فيه. وإن فيه دروساً وعظات تأخذ بها الأمم وتنهل مـن ينابيعه. وإذا كان الأمر كذلك. فإن معنى وأهمية ١٩ شباط تكبر وتكبر على مدى التاريخ الطويل، والكل يعرف هذا الشيء العدو والصديق والعالم كلـه.

ولهذا السبب فإنهم يباركون لنا فيه ويهنئوننا في ذكراه السنوية.

إن لصانعي هذا اليوم مكانة خاصة عندنا، ويجب ألا ننسى أن هناك أبطالاً آخرين ضمن تاريخنا الحافل بالانتصارات. ومن أولى واجباتنا الإقرار بذلك. إذا كانت المقارنة بين أبطال التاريخ غير واردة. فإن الأبطال الشباطيين لهم مكانتهم الخاصة. لأنهم أقاموا سرائر حبهم في أفئدتنا بتضحياتهم الكبيرة. فألقوا بأنفسهم وسط المهالك والأخطار.. دون أن يبخلوا بحياتهم وأرواحهم..

إن أهمية ومعنى ١٩ شباط وخاصة.....أيتها السيدات والسادة:

إنني أوصيكم أن تكتبوا ما قلته أعلاه.. أي الخطاب، وتضعوه ضمن كيس بلاستيكي وتعلقوه على أعناقكم كالحجاب. لأن هذه الكتابة أو هذه المنظومة ربما تحتاجون إليها على مدى عمركم.. ولكن بدلاً من أن تضعوا ١٩ شباط فقط ضعوا ٣ آذار. ١٨ أيلول. ٧ كانون الثاني في ذاكرة هذه الأيام.

إن حاجتكم لهذه الكتابة وارد جداً في أيام السنة.. وعندها تستطيعون أن تخرجوا هذا الحجاب المعلق في أعناقكم وتستعملونه وفق الظروف والأيام.

هذه الكتابة التي قرأتموها.. تستطيعون أن تتوسعوا فيها بقدر ما تريدون شرط أن يكون أسلوبكم وصياغتكم على نفس النغمة والوصلة ولكن لا تنسوا أن تضعوا بدل من ١٩ شباط أي يوم تريدونه.

نعم إن هذه الكتابة تشبه إلى حدٍ ما تسبيحة بائعي الدواء الجوالين عندما يعلنون عن بضاعتهم.

((أيها المواطن.. قف دقيقة.. حتى لو لم تشتر.. قف وانظر أيها المواطن.. وإذا لم تنظر.. استمع على الأقل.. إن الاستماع ليس بالمال.. إنه الدواء الذي تراه في يدي.. دواء لاثنين وسبعين داء.. لآلام الظهر..

والروماتيزم. لآلام الأسنان.. والصداع الرأسي.. والضعف الجنسي.. لآلام الطمث عند النساء.. للبواسير.. والأكزيما. ولحصي الكلية.. وللجزام.. ولجميع الأمراض المعروفة وغير المعروفة..

وهكذا فإن منظمونا عن ١٩ شباط.. كإعلانات بائع الدواء تحتاج إليه على الدوام. حافظ على الحجاب في صدرك واستعمله عند الحاجة.. على شرط أن تغير ١٩ شباط.. وبذلك تستطيعون إزالة الذنوب والدرنات.. العيوب والعقبات.. والصفحات السوداء بسهولة.

وبها تستطيعون فتح أبواب كثيرة وكبيرة. حيث يضيء مستقبلكم كالشمس في صدوركم.. تلمع وتنير الطرق. وسنقدم لكم الاحترام والتقدير أسوة بالآخرين.. وستتوضح معالم طريقكم إلى السلطة.

ويتضاعف أعداد أصدقائكم، وتسوى أمور دينكم وترفع مستوى معيشتكم.. وتسعدون بها أفراد عائلاتكم.. وتصبحون من الشخصيات البارزة في البلد والدولة.. إلخ.. إلخ..

وإذا أردتم أن تجددوا فيها ما يفيدكم.. انزعوا الحجاب عن صدوركم واطلقوا محتواها في الساحات العامة خطابات محددة. وإذا كنتم في مجالس خاصة.. اقرأوها قراءة على من يجالسكم.. أو انشروها على صدر صفحة جديدة.. أو اطبعوها ووزعوها على الناس في الساحات العامة. وعلى هذا الأساس تستطيعون أن تثبتوا للآخرين أنكم من مناضلين ١٩ شباط.. أو ٤ آب أو ١٥ تشرين الثاني.

نعم أيتها السيدات والسادة.. وعلى مدى بقاء أمثالكم من مناضلي هذه الأيام.. أو المحسوبين من أبطالها.. فإن الحقارات، وقلة الحياء... والمتهزمين .. وذوي الوجهين.. سيبقوا على مدى بقائكم. وإن تواريخ كثيرة ستتجدد من /٢٥ أيلول/ و/٣ تموز/ الذين نحن أبطالها.

- ١٨ -

قمنا بواجبنا الأخير

كان أحد الصحفيين يحاول كتابة عمل في صحيفته.. بترتيب وتجهيز نفسه لكتابة المقالة. من أجل ذلك شرع بتسجيل الخطابات لدى مختلف الشعوب والمجتمعات. وفكَّر بجمعها في كتاب دون موافقة أصحابها. ومرت الأعوام، وتراكمت أشرطة التسجيل عنده إلى حدٍّ كبير.

أحيل الصحفي على التقاعد.. ولكن دون أن ينفذ أو يكتب شيئاً من خطته. وهو الكتاب الذي كان يحاول نشره وتوزيعه. مات الصحفي والحسرة في أعماقه. أعطتني عائلة الصحفي هذه الأشرطة عسى ولعل أستطيع أن أجد فيها شيئاً يساعدني ويساعدهم على تطبيق الخطة التي أرادها الصحفي المرحوم. بدأت بالاستماعٍ إلى الأشرطة.. التي أخذت مني وقتاً طويلاً.. أياماً وشهوراً طويلة جداً وتوصلت إلى قرار أن هذه الخطابات سيئة.. غير صالحة للنشر. لم يُفرح هذا القرار عائلة الصحفي. لأنهم كانوا يفكرون بربح مادي من وردات هذه الأشرطة والكتاب الذي سينشر.

ومع ذلك كانوا يطلبون من رب العائلة. المال اللازم لانجاز هذا العمل وكأنهم يقومون بواجبهم الأخير تجاه الصحفي الراحل.. بحيث استبعدوا الربح المادي.. هكذا يتظاهرون.

تحولت إحدى الأشرطة المتبقية من الصحفي المتوفي.. إلى كتابة.. فظهر أن هذه المناقشات والخطابات التي حولتها.. إلى كتابة. تدور في إحدى المقابر. ومراسم الدفن لأحدهم.

كان الصحفي قد سجل كل ما صدر عن الأصدقاء والأقارب والمقربين من الميت سراً. من لحظة خروج الجنازة من المنزل.. وصولاً إلى الجامع.. وصلاة الجنازة.. إلى المقبرة.

لم أستطع أن فهم مدى استفادة الصحفي من هذه الكلمات والمناقشات التي جمعها في الشريط.. وسأقوم شخصياً بطرح هذه المناقشات التي جمعتها وحولتها إلى كتابة لقرائي الأعزاء. طالباً منهم أن يقوموا بإرسال اقتراحاتهم وآرائهم، حول هذه الكتابة مع كيفية الوصول إلى الاستفادة منها.

- البقية في حياتكم.

- البقية في حياتنا جميعاً.

- إنني حزين جداً.

- ماذا تقول ولك يا أخي.. وكيف لا تحزن وهو صديق لنا من عدة سنوات.

- نعم... ولكني لم ألتق به منذ سنوات طويلة.

- آ آ آ.. لماذا هذا الانقطاع.

- إن توضيح الأمر يأخذ كثيراً من الوقت. كان ثمة حساب بيني وبينه. وكما تعرف.. أنه خوزقني في هذا الحساب.

- نعم... كان للمرحوم شيء من هذه الميزة.. وأنا أيضاً كنت متخاصم معه، ولهذا السبب سألتك.. لأن المرحوم.. كان قد نصب علي أيضاً.

- وكما ترى.. فإن نهايته التراب.

- كنهاية كل واحد منا.

- سيكون حسابنا معه بعد الآن في الآخرة.

- بالنسبة إلي.. أسامحه. ولكن ليبقى الجزاء معه.. عندما شاهدت إعلان موته في الجرائد.. قلت في نفسي لأقوم بواجبي الأخير تجاهه وها آنذا كما تراني في جنازته.

- أنا الآخر هكذا. لتبقى الإنسانية معنا، ومهما كان الأمر. فهو يعد صديقنا.. ونحن مدينون للقيام بواجبنا الأخير تجاهه.

* * *

- أووه مرحباً..

- مرحباً يا روحي.

- لولا هذه الجنازات لن نشاهد بعضنا.

- ومع الأسف هذا ما يحصل.. لا نرى بعضنا إلا في الجنازات، ولكن هناك فرق بين جنازة وجنازة. انظر لهذا الطقس.. لقد فكرت طويلاً قبل المجيء إلى هنا.. وأخيراً قررت الحضور.

- صدّق أنا أيضاً فكرت مثلك.. إذا لم أحضر فماذا سيقول الأصدقاء؟ سيقولون.. إنه صديقه منذ سنوات طويلة، ومع هذا لم يحضر جنازته ولذلك حملت نفسي وجئت إلى هنا.

- أنا أرسلت سلة أزهار.

- أنا الآخر أحضرت سلة الأزهار.. انظر.. ها هي.. تقبع هنا.. يا الله. لقد وضعوا سلة البنك فوقها.. إن سلتي غير مرئية.

- لقد وضعتُ سلتي بيدي فوق كل السلال.

- سأقوم بإعادة ترتيب سلال الزهور بعد الدفن.

- كنت قد سمعت من خلاف بينك وبين المرحوم.

- نعم.. وربما سمعت بما فعله معي.. بعد هذه الصداقة الطويلة.

- نعم.. سمعت.. سمعت.. ولكن ألم تسمع بما فعله بي أيضاً.

- المهم.. حصل ما حصل.. أنا أقوم بواجبي الأخير.. ولهذا السبب جئت إلى هنا قاطعاً مسافات طويلة.

- هل ستذهب إلى المقبرة؟

- لا أدري.. وأنت؟

- ما رأيك لو نذهب من هنا إلى السينما.. يقولون إن فيلماً عظيماً يعرض الآن.

- ليحصل.. ولكن بعد أن نقوم بواجبنا الأخير.

* * *

- الله يرحمه.

- الله يرحمه.

- ليغفر الله ذنوبه.

- آمين.. ولكل واحد منا.

- ايه.. هذه نهايتنا جميعاً.. ومع هذا فإن البعض لا يفكر بهذه النهاية وهو على قيد الحياة.

- أنت محق يا صديقي.. فالرحوم مثلاً.. لم يفكر في يوم من الأيام بأجله وموته. وماذا.. حصل.. كما ترى: ذهب وهو يرعد..

- آه.. آه.. أنا من يعرفه جيداً.. أعرفه.. ولكن الحديث عن الميت..!! حرام...

لقد قالوا ((اذكروا أمواتكم بالخير)) يعني اذكروا حسنات الميت.

- في السنوات الأخيرة.. لم أكن انظر إلى وجهه. ولكن عندما توفي. قلت في نفسي.. اعمل إنسانيتك يا رجل.. قم بواجبك الأخير تجاهه ولهذا السبب تراني هنا.

- أنا الآخر.. مثلك، وا لله أخذ مني بقدر ما أعطيته. ألا تعرف ما فعله بي.. بسببه.. كان منزلي العائلي على وشك الانهيار بسببه، ومع هذا ليكن.. أنا أقوم بواجبي الأخير.

* * *

- ليرحمه ا لله رحمة كبيرة.

- ليرحمه.. إيه وبعدين..

- لماذا سكتَّ هكذا فجأة.. هل هناك شيء ما.

- كيف أفسر لك الأمر.. لا أستطيع أن أتكلم وجنازته ترتفع عن الأرض. إنه أحرق أرواحاً كثيرة.

- كما تقول.. لقد فعل معي.. أشياء لا تصدق، ولكن كما ترى أقابل سيئاته بالحسنات.. لقد تركت أعمالي كلها وجئت إلى هنا لأقوم بواجبي الأخير نحوه.

- أنا معك في كل ما تقوله.. لو لم يمت.. لما رأيتني هنا أبداً. ولكن لا أحد يستطيع أن يتهرب من الواجب الأخير، كنت سأحضر ولو كانت يداي ملوثتين بالدم.

* * *

- ايه أيها الإنسان.. ايه.. هل تعرفون ماذا قالوا: ((لم يرتاح، و لم يترك غيره يرتاح)).. ماذا خلف وراءه؟.

- أو ((ليتحمل أهل القبور هذا الإنسان)) أو شيئاً من هذا القبيل.

- حتى جنازته مزدحمة ما شاء الله..

- ما شاء الله.

- كل الحضور مثلنا.. جاءوا للقيام بواجبهم الأخير.

- بعضهم من ألمه والبعض..

- هيا تكلم لا تخبئ شيئاً في صدرك.. حتماً ستقول وبعضهم من سروره.

- ومهما يكن الأمر.. فقد رحل هو الآخر.. إنها الدنيا لم تدم حتى للسلطان سليمان..

- بكل تأكيد أنت تعرف بما فعله بي.. كان علي وشك أن يقودني للإفلاس.. بعدما أخذ كل هذه الأموال.. أصبحنا مدينين له.. صدق إنني ما كنت أنوي الحضور حتى على طلب حقي منه، ولكن عندما مات.. لم أستطع الاحتمال.. فجئت قاطعاً كل هذه المسافة لأقدم له واجبي الأخير.

- نعم.. هكذا.. لنقم بواجبنا الأخير نحوه... وكما يقول المثل: ((افعل الخير وارميه في البحر - إذا كان السمك لا يعرف خيرك فالخالق يعرفه جيداً)).

* * *

- كان لي عمل كثير.. بحيث لو جاء عزرائيل لما استطاع أن يبعدني عن عملي، ولكن عندما سمعت أن جنازته ستكون هذا اليوم.. جريت مسرعاً لأقوم بواجبي الأخير نحوه.

- والله أنا الآخر هكذا.. لو أنني مت لما استطعت حتى الذهاب إلى جنازته.. لديَّ أعمال كثيرة.. ولكن قلت إنه صديقي.. فأسرعت إلى حضور

جنازته.

- آي.. واجبنا الأخير.

- ماذا حصل.. بعدما فعل سوءاً بجميع الناس.

- ألا يقولون، لتشبع عيناه حفنة من التراب.. هكذا..

- لو، مت بدوري.. فلن يحضر جنازتي أبداً.

- لا.. لا.. كان سيأتي.. حتماً سيأتي.. وهو يرقص طرباً لأننا متنا.

- لتبق الإنسانية في قلوبنا.. ولنقم بواجبنا الأخير وليحصل ما يحصل.

- ليتقبل الله منا.

- جميعاً.

* * *

آه يا سيدي.. أنتم أيضاً هنا؟

- مهما يكن الأمر.. قلنا.. في يوم من الأيام.. كان صديقاً لنا.. فجئنا نقدم له الواجب الأخير.

- لقد فعلتم خيراً.. أنا أيضاً مثلكم.. كم أنت طيب القلب يا سيدي. بعد كل هذه الخلافات الكثيرة بينكم.

- ما نهايته يعني.. تحته تراب وفوقه أوراق الشجر.. سيُلقى في هذه الحفرة.. هكذا..

- لو في هذه الحفرة فقط لكان الأمر سهلاً جداً.. إن لهذه الدنيا جانباً آخر.

- الحق لا يصير باطلاً بالرشوة والتهديد في يوم الآخرة.

- مهما كان الأمر يا سيدي.. لنفعل المطلوب.. وليبقى هو كما يريد.

- نعم.. نعم.. قمنا بالواجب الأخير.. وجئنا إلى جنازته.. هكذا..

- ماذا ستفعل بعد الجنازة؟

- أقول.. سأحضر فيلماً سينمائياً.. لأن الأولاد.. كانوا يذكرونه في البيت. إذا أردت المجيء نحضره معاً.

- ولكن سنتأخر عن عرض الفيلم.. إذا بقينا حتى انتهاء مراسم الجنازة.

- كلامك صحيح.. إذن لنتسلل من وسط الزحام.. ونذهب إلى سيارتي في الكاراج.

- وهكذا تحسب أننا قمنا بأداء واجبنا الأخير.

- ماذا كنا سنفعل أكثر من هذا يعني.. طبعاً ما كنا سننزل إلى القبر معه.

* * *

- لأنني أعرفه.. أتحدث عنه. كل ما فعله من السوء لن يظل فيه. انظر.. ماذا حصل له.. هذه نهايته؟..

- ليغفر الله ذنوبه.

- ما من أحد يحل مكان الآخر.. كل واحد له مكان في يوم الحساب أو الآخرة.. مثل المسارح... والطائرات.. جميع المقاعد مرقمة.. ولكن صاحبنا هذا ليس له مكان لينام تحت التراب؟!

- ربما يجدون له مكاناً ما.. لأن جهنم كبيرة.. لها بداية وليس لها نهاية.

- التراب يلفظ أمثاله وِلَكْ أخي..

- لم يكن من الرجال الذين تستطيعون النظر إلى وجهه، ولا أن تبادره بالتحية والسلام، ولكن.. اي.. إنها دنيا فانية.. والله لم أستطع البقاء في

المنزل لأن ضميري أنبني كثيراً.. جئت إلى هنا لأقدم له الواجب الأخير.

- صدق.. أنا الآخر مثلك..

* * *

- إلى أين ستذهب بعد الجنازة.

- يعني بعد أن نقدم الواجب الأخير؟

- ولك يا غبي.. أين ننهي هذه المهمة.. هل في الجامع؟. أم في المقبرة؟

- أنا سأذهب إلى المقبرة.. وسألقي مي فوقه بعض حفنات من التراب، بعد أن يوارى الثرى حتى أكمل واجبي الأخير نحوه.. ثم نكون معاً إذا أردت..

- لأن الإنسان يتضايق في الجنازة..

- لأجل هذا السبب اتفقنا مع بعض الأصدقاء للذهاب إلى إحدى الحانات الموسيقية لنرفه عن أنفسنا قليلاً.. إذا أردت الحضور تعال معنا

- ليكن ذلك.. ولكن لنقم بواجبنا الأخير قبل كل شيء.

* * *

- عفواً.. ماذا تكون هذه المرأة من المرحوم..؟

- زوجته..

- آ آ.. وماذا أيضاً.. يعني الرجل بعد هذا العمر تزوج من هذه الفتاة الشابة.. لابد وأن الموت أخذه..

- وما علاقة الموت بالزواج من امرأة شابة يا سيدي.. أنا أيضاً تزوجت من فتاة شابة فهي تصغرني بخمس وعشرين عاماً..

- خمس وعشرون عاماً ليس هذا الفارق كبيراً.. وأنتم ما شاء الله.. (بعد

سعال شديد)..

- لقد جلست المرأة على الميراث.. ستجد رجلاً آخر وبأقرب وقت..

- جاء الإمام.. ستبدأ صلاة الجنازة.

- لنقوم بواجبنا الأخير.. ثم..

- لنذهب إلى المرأة المسكينة حتى نأخذ بخاطرها.

- نعم لقد بقيت المسكينة أرملة وهي في هذا العمر.. يجب أن نسليها (تسمع أصوات الإمام).

صوت الإمام.. يا جماعة المسلمين.. كيف تعرفون هذا المرحوم؟.

أصوات:

- الشكر لله قمنا بواجبنا الأخير.

- الشكر لله.

- ليغفر الله ذنوبه.

* * *

ها آنذا قدمت لكم واحدة من الأشرطة التي تركها الصحفي الراحل.. ماذا ستقولون هل يستطيع المرء أن يجعل من هذا العمل ومن أشباهه كتاباً وتراثاً ؟...

KMH

- ١٩ -

لن نتطور أبداً

أحيل الرجل على التقاعد.. كانت زوجته تطلب منه أن يجمع تعويضاته مع ما توفر لديه في شراء طابق من بناية للسكن. وبذلك يقضوا بقية حياتهم سعداء . كان باستطاعتهم شراء كشك في موقع رئيس... لأن الكشك يدر مالاً كثيراً في وقت قليل. لقد كان سعر الكشك يتضاعف كل عام إلى مثلين أو ثلاثة أمثال... ولكن الرجل كان يفكر بطريقة أخرى لتشغيل هذا المبلغ... فإذا كان الناس يضعون أموالهم فوق الأموال غير المنقولة فكيف ستتطور البلاد.. من غير المعقول تجميد رأس المال. يجب أن يتحرك ويعمل حتى يكبر.. ولكن التعويض الذي أخذه لا يعد من رأس المال فيجب دعمه بالمبلغ الذي ادخره خلال سنواته الطويلة.. يبيع منزله الذي آل إليه إرثاً عن أبيه.. وبهذا يستطيع أن يحرك نفسه ويجد عملاً وربحاً جيداً، يساعده في بناء شركته أو تأسيس عمل حتى ولو كان صغيراً.. منذ وقت طويل وهو يتخيل بناء مزرعة للأبقار.. وبعد أن قام بسؤال واستشارة أحد المجرمين عن طبيعة هذا العمل.. وحصل منهم على الإرشادات والتوصيات.. اشترى قطعة أرض تبعد عن المدينة مسافة ستين كيلو متراً. وأقام عليها مزرعة صغيرة. وبنى حظيرة للحيوانات.. وكتجربة أولية قام بشراء عشرين بقرة.. وبما أن المبلغ الذي معه لم يعد يكفيه للقيام بكل هذه الأعمال.. فقد أخذ قرضاً من البنك الزراعي.

البقرات العشرون... بحاجة إلى عناية وتربية.. لا يستطيع أن يقوم بمفرده بكل هذه الأعمال.. فاستعان بعائلتين عدد أفرادها أحد عشر فرداً... بين

صغير وكبير.

كان صاحبنا يظهر بين القرويين.. إنساناً مثقفاً.. قام بحساب جدوى العمل بدقة متناهية.. يجب أن يقوم بذلك ليؤمن الربح المطلوب. أخذ بالحسبان أنه إذا جرت الأمور على ما يرام.. فستكون أرباحه على أقل تقدير مليوني ليرة: وإذا استمرت الأمور جامدة.. فإنه سيعيد القرض الذي اقترضه من البنك بفائدة صغيرة لمدة عامين.

ولكن كما يحصل أحياناً، وهذا شيء وارد حسب المثل.. فحساب السوق لم ينطبق على حساب الصندوق. والسبب هو كسل وتنبلة العائلتين اللتين استأجرهما للعمل.

في معظم الأحيان.. لم يبق في المزرعة سوى أربعة أشخاص من أصل أحد عشر شخصاً.. منهم امرأة حامل.. وعجوز لا يستطيع المشي، وولد صغير. وشاب بنصف عقل... هؤلاء لا يستطيعون الذهاب إلى العمل.. ولكن الجميع يحضرون في أوقات الطعام والنوم وأصبح الرجل على حافة الجنون.. لقد رجاه هؤلاء العمال ليعملوا في مزرعته.. ما هو مطلبهم؟ ولماذا لا يعملون؟ إن في هذا البلد أكثر من خمسة ملايين شخص عاطلين عن العمل.. ألا يعملون ذلك؟.. ألم يقف العاطلون عن العمل في طوابير لانهاية لها طالبين السماح لهم بالسفر إلى ديار الغربة لينظفوا شوارع أوروبا وفضلاتها.

شخص واحد وجد عملاً لأحد عشر شخصاً، يدفع لهم رواتبهم في نهاية كل شهر. وأعطاهم منزلاً.. وأمّن على حياتهم فماذا عليه أن يفعل أيضاً؟. لقد ماتت بقرتان، وكميات الحليب تتناقص يومياً. وعندما تحضر الشاحنة الصغيرة كل صباح، فكانوا لا يزالون يغطون في النوم.. فيضطر لإيقاظهم كل بمفرده.. وانتشاله من الفراش.

وصلت المزرعة إلى هاوية الإفلاس.. وروح الرجل تكاد تصل إلى أرنبة أنفه. يصرخ على عماله.. رافعاً رأسه نحو الأعلى: ((إلى متى سيستمر على هذه الحال؟ إلى متى يستمر هذا الكسل معكم... إننا لن نتطور أبداً)).

* * *

عندما عجز الرجل عن دفع عماله إلى الشغل؟.. عمد إلى مشاركة أحدا المختصين بجهده في تربية الأبقار.. يقِّدم الاختصاصي العمل وصاحبنا رأس المال.. ما أن جاء الشريك إلى المزرعة حتى بدأ الاستقرار يعود إليها. وكان الشريك الجديد... يبدل العمال بآخرين غيرهم، بين وحين آخر.. لأن العامل لا يستطيع البقاء في المزرعة أكثر من شهرين. وقد برَّر تصرفه على النحو التالي.

- إن هؤلاء العمال يحاولون ذر الرماد في العيون عندما يبدأون العمل لنقول عنهم إنهم عمال مخلصون. ليخطوا ثقة أصحاب العمل... وبعد نيل الثقة.. يرجعون كعادتهم إلى التباطؤ في العمل.. ثم يزحف العامل على مؤخرته شيئاً فشيئاً، ليقف بعدها عن العمل. ولهذا السبب فإن تسريحهم من العمل كان ضروري جداً قبل أن يتكاسلوا كلياً.

ظل إنتاج الحليب يتناقص يومياً.. حتى مع العمال الجدد.. وفي كل عام يتبدل العمال من خمس إلى ست مرات. وعندما سأله الشريك صاحب المال عن سبب تدني الإنتاج.. أوضح المختص الأمر على الشكل التالي:

- إن الأعلاف التي نشتريها فاسدة، وقليلة الدسم. لقد غيرنا أكثر من ستة معامل - لتصنيع العلف - وجميعها تنتج أعلافاً فاسدة. مما أدى إلى تناقص كمية الحليب يومياً ووصول الشريكين لحافة الإفلاس.

عندما أصبح الوضع لا يطاق، صرخ الرجل بقوة وعصبية:

((إلى متى يستمر هذا الغش فينا، إننا لن نتطور أبداً)).

* * *

حاولوا بيع المزرعة بأي سعر كان قبل أن يحجزهـا المصـرف، لأن مـردود الحليب لم يكن يغطي المصاريف. وفي الوقت الذي أعلنوا فيـه بيـع المزرعـة في الجرائد.. حصل مـرض ساري أصـاب البقـرات.. هـرع الرجـل مسـرعاً إلى الوحـدة الإرشـادية لمقابلـة الطبيـب البيطـري الخـاص بالدولـة، سـأل أحـد الموجودين: أين مديرية الطب البيطري؟ فأجابه الرجل.. أنه هو الآخر يبحـث عنها. بدأ الاثنان بالبحث في تلك المنطقة عن مديرية الطب البيطري.

فأشار أحدهم إلى مكانها.. وعندمـا وصـلا إلى تلـك المنطقـة. لم يجـدا في المكان ما يشير إلى وجود المديرية أو /مديرية الطـب البيطـري/.. بعـد سؤال وجواب - دخلا إلى بناية مؤلفة من طابقين.. لا يوجد على بابها أية لوحـة. دخلا الطابق الأول فلم يجدا فيه أحد، وعندما صعدا إلى الطابق الثـاني وجـدا رجلاً نائماً وقد أسند يديه وساعديه على كرسي.. ففرحا أشد الفرح لوجود هذا الرجل. فسألاه:

- هل هذه مديرية الطب البيطري؟.

- عرفا من كلامه ومن نبرة (ها) بمعنى نعم. وأنه حارس للمديرية.

- لماذا لا توجد لوحة على الباب؟.

- حتى الآن لم نضع لوحة، لأننا انتقلنا إلى هنا منـذ زمـن غـير بعيـد. و لم يكن لدينا الوقت لوضع اللوحة.

- الأطباء البيطريون غير موجودين حتماً؟

نظر الخادم إلى ساعته ثم التفت إلينا وقال:

- ساعتي واقفة.. كم الساعة الآن؟

إنها تقارب الساعة العاشرة وعشرين دقيقة.. أجاب البواب:

- يحضرون حوالي الساعة الحادية عشرة.

وأضاف الحاجب: إن طبيبين، منهما توجها إلى القرى المجاورة لمعالجة وتلقيح بعض الأبقار.

فهز الرجل رأسه وقال:

(إلى متى ستبقى هذه اللامسؤولية وعدم الاهتمام.. لن نتطور أبداً).

* * *

بعد أن خرج الاثنان من مديرية البيطرة.. وصل الطبيبان من القرى المجاورة بشاحنة صغيرة. وكان الغضب واضحاً على الاثنين. قال أحد الأطباء:

- إن القرويين معهم كل الحق.

وقال الآخر:

- لأن اللقاح الذي يعطى للأبقار لا فائدة منه.. وجميع اللقاحات التي أرسلتها الوزارة فاسدة.. والأبقار أصبحت عاقر. واضطر القرويون لبيع أبقارهم إلى القصابين.

صرخ الطبيب الثاني. وهو بحالة عصبية:

((إلى متى تبقى اللامسؤولية وعدم الاهتمام بمصالح الشعب، لن نتطور أبداً))

* * *

توجه مختار القرية إلى مركز الناحية ليعلمهم أن اللقاح الذي يعطيه الأطباء

البيطريون للأبقار غير نافع. وقبل أن يتوجه للناحية قصد بناء البلدية حيث المدافىء تشتعل بتوهج شديد داخل كل غرفة. والموظفون يستلقون على مقاعدهم وقد أخذ النعاس منهم مأخذه من شدة الحرارة. كان بعضهم نائماً وشخيرهم يملأ الغرفة، الزمن في نهاية أيار. والطقس حار كالعادة. وقد خلع الناس معاطفهم واستغنوا عن المدافىء منذ وقت طويل.. ونوافذ البيوت مفتوحة دائماً للهواء والشمس.. عندها قال المختار:

- إنهم يشعلون المدافىء لأنهم لابد لا يدفعون ثمن المحروقات. إنهم يشعلوها حتى في شهر آب، طالما أن الدولة تمدهم بالمحروقات.

قال المختار هذه الكلمات بصوت خافت بينما يهم بالخروج من البلدية.

(إلى متى يستمر هذا الإسراف في بلادنا لن نتطور أبداً).

* * *

بينما كان المختار يتحدث مع أحد الموظفين في دار القائمقامية توصلا في الحديث إلى أسعار الحليب.. وعندما ذكر الموظف سعر الحليب الذي اشتراه من البقال.. استغرب المختار هذا الغلاء الفاحش. كيف يحصل هذا؟ ومن يضع السعر؟ إن الحليب المستورد من قريتهم التي تبعد عن مقر الناحية مسافة ثمانية كيلو مترات يباع في الناحية بثلاثة أضعاف سعره في القرية.

وبينما كانا في الحديث، سمعهم تاجر صغير حضر من المدينة فقال لهم: إن سعر الحليب في المدينة أغلى بكثير من سعره في الناحية. إنه حليب مغشوش، أضيف إليه الماء بنسبة عالية.. وهو لا يستطيع معرفة نسبة الماء في الحليب، ثم رفع يديه إلى السماء وقال:

(إلى متى يستمر هذا الغش اللاذع، لن نتطور أبداً).

* * *

ظل تاجر الناحية يحدثني عن أسعار الحليب.. وعندما عاد مساء إلى منزله.. بدأ يتحدث إلى ضيوفه عن المدارس التي تعلم فيها أولاده.. وقال: إنه لم يبق في المدارس الابتدائية.. أو الإعدادية وحتى الثانوية.. معلم واحد يحترم نفسه.

أين أولئك المعلمون الذين كانوا كالشموع تذوب لتضيء طريق الأمة.. إنهم اليوم بحاجة إلى عدة شهود لإثبات هوية المعلم أنه معلم. فالمعلمون اليوم يمارسون جميع الاختصاصات عدا اختصاصهم التعليمي.. فمثلاً. كان أحد المعلمين يعمل في إحدى البقاليات بتكليف من زوجته، وآخر كان يعمل في أحد المحلات محاسباً، خارج الدوام الرسمي. وبعضهم كان يعمل سائقاً على سيارة طوال الليل. وكل هؤلاء أي المعلمون.. لهم أشغال وواجبات غير إعطاء الدروس.. من واجب المعلمين تحضير الدروس يومياً.. فأين الوقت لإتمام هذا التحضير؟. وكيف سيعطى المعلم درسه لتلاميذه وقد أخذ التعب منه مأخذه؟ ماذا يتوقع من هؤلاء المدرسين.؟ وما النتائج التي يقدمونها؟ أين المدرسون العاشقون لمهامهم.. أين أولئك المدرسون المحترفون؟.

عندها قطع التاجر حديثه وقال:

(هل ستبقى أخلاق الإخلاص للمهنة موجودة في داخلنا؟ لن نتطور أبداً).

* * *

خرج أحد الموجودين في الاجتماع المسائي مع ابنته التي تدرس في الصف السادس إلى السوق لشراء بعض الحاجيات. وفجأة وقفت الفتاة وقالت:

- لا أريد الذهاب من هناك يا أبي.. ماذا يحصل لو رجعنا من هنا؟

سأل الرجل ابنته عن السبب في ذلك.. ولماذا لا تريدين الذهاب من هناك. كانت الفتاة تحاول جاهدة ألا تجيب على سؤال أبيها. ولكنها بسبب

إصراره الشديد قالت إن معلمها في الصف يعمل بائعاً في تلك الزاوية - وربما لا يريد أن أعرف عنه أنه يعمل في بيع أشياء ما...؟

إنني أخجل منه...

حزن الرجل مثل ابنته على ذلك المعلم، فقد تخرج من الصف الخاص، ومطالب الحياة دفعته للقيام بأعمال أخرى. ثم فرك الرجل عينيه وتمتم:

(إلى متى نستمر في عدم تقدير المعلم ومعرفة موقعه.. لن نتطور أبداً).

* * *

كان أحد المدرسين يشكو لزميله من مدير الثانوية.

- لقد طلب المدير من مديرية التربية معلمة للرياضة لأن في المدرسة نقصاً في هذا الاختصاص. مع العلم أن للمدرسة معلم رياضة. ولكن .. انظر وافهم الغرض من هذا الطلب.. قال إن معلم الرياضة لا يستطيع أن يعطي دروساً في التربية البدنية للإناث.. كونه ذكراً.

قال صديقه: ألا تتذكر ماذا فعل في العام الماضي.. فقد احضروا إمام القرية للمدرسة مدعياً أنه معلم موسيقا.. وبدا الإمام بإعطاء الإلهيات بدلاً من الموسيقا.

ضرب المدرس قبضته على المنضدة وقال:

(إلى متى يستمر تحكم الرؤوس الكبيرة فينا؟ لن نتطور أبداً)

* * *

قال المدير.. في إحدى اجتماعاته مع المدرسين: أن المدراء يتبلدون عنده عند تبديل مدراء التربية. والبيروقراطيون في المديرية مع كل تغير للوزير في وزارة التربية.

(إلى متى تستمر هذه الفوضى.. لن نتطور أبداً)

* * *

كانت المدرسة الثانوية تقيم اجتماعاً لأولياء الأمور في إحدى قاعات المدرسة.. وخلال انعقاد الإجتماع، شرعت إحدى النساء الأنيقات بالحديث مع جارتها بما يفيد أن زوجها دفع مبالغ طائلة لمديرية الهاتف.. لتمديد خط هاتفي لمنزلها الجديد الذي اشتراه لها زوجها منذ فترة. والآن وبعد مرور أسابيع طويلة فإن الهاتف لم يصل بعد إلى المنزل. ولدىسؤال المسؤولين عن موعد تركيب الجهاز الجديد، قالوا لهم إن التركيب سيتم في اليوم التالي. وحتى الآن لم ينفذ الوعد.

(وعلمنا فيما بعد أنهم يطلبون الرشوة.. لو قالوا ذلك من قبل لكنا أعطيناهم.. إن تقديم الرشوة ليس بالأمر الهام. ولكن عندما لا نعرف /التعرفة/ وما مقدار المبلغ الذي سندفعه فإننا نحتار، فماذا سنفعل؟ وكم سندفع. انظري إلى التاكسي.. بعد أن وضعوا فيها العدادات كم ارتاحوا وأراحوا).

بدت على المرأة علامات الغضب وهي تتحدث لرفيقتها، ومن شدة الغضب.. نسيت أنها أنثى.. ونسيت أنها في اجتماع هام في مدرسة أولادها.. فصرخت المرأة التي بجانبها وقالت بصوت مرتفع:

عفواً يا حلوتي يا سكرتي.. إلى متى تستمر هذه الرشوة بيننا، لن نتطور أبداً.

* * *

ذهب زوج المرأة إلى عيادة طبيب اختصاصي بأمراض القلب، بعد أن شعر بضيق شديد في صدره.. ولدى معاينته وإجراء تخطيط لقلبه مع صورة

شعاعية.. أفاد بأن الرجل سيموت حتماً إذا لم تجر له عملية فوراً.. وعملية فتح الصدر ليست سهلة أبداً. وشاءت الصدف.. عن وجود طبيب ألماني في ذلك الوقت مختص بأمراض جراحة القلب حيث يقوم ببعض الأبحاث والدراسات في المشافي.. عرضوا عليه صورة تخطيط القلب والصورة الشعاعية.. فضحك الطبيب الألماني وقال: قلبك سليم تماماً، وأجهزة التصوير والتخطيط تعمل جيداً. ولكن العلة في ضعف التيار الكهربائي عندكم.

فقد كان جهاز تخطيط القلب يشير إلى ذبحة قلبية حادة عندما يكون توتر التيار الكهربائي منخفضاً.

قال الرجل الذي تخلص بأعجوبة من عملية فتح الصدر لمن حوله:

(إلى متى سيبقى الإهمال وقلة الدراية عندنا، لن نتطور أبداً).

* * *

كان لأحد الممرضين وهو مساعد الطبيب في المشفى الذي أجرى فيه الرجل تخطيطاً وتصويراً لقلبه، مشكلة في إحدى الدوائر الحكومية.

أمضى الرجل أكثر من عام دون أن يحل مشكلته الصغيرة. وقد ملَّ من كثرة المراجعة حتى أن المستشفى امتنع عن إعطائه إجازة، وأصبح في وضع صعب للغاية، وأصيب بحالة من اليأس والقنوط، ماذا يفعل؟.. كان ذلك اليوم يوم عطلة.. وبغية الترويح عن نفسه، توجه الممرض إلى الملعب لحضور مباراة في كرة القدم بين فريقين لا يعرفهما ولا يؤيد أي فريق منهما.. علا صراخه حتى كاد يختنق، رفع يديه وصفق طويلاً.. وعمل المستحيل من أجل نسيان مشكلته. إلا أنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا.

بعد خروجه من الملعب توجه إلى إحدى المقاهي التي كان يتردد إليها دائماً. وجلس أمام التلفاز.. وسبح في بحر من الأفكار.. وفجأة لم يدر ماذا

حصل.. هل كان خبراً أم دعاية أم ماذا؟ لم يعرف ما حصل في التلفاز.. هو أن أحد المسؤولين في المستشفيات البارزة في الدولة. ظهر على الشاشة وهو يردد... (إننا نجتاز عصراً) ((إننا اجتزنا عصراً)) ربما أن الممرض وصل في دراسته للصف الثالث الابتدائي في قريته. فقد كان يشمئز كالآخرين عندما يرددون لن نتطور أبداً). وبينما كان الغضب يملأ جسمه من جراء عدم إنهاء مشكلته الصغيرة في الدائرة الحكومية.. وما زال المسؤول الحكومي يردد دائماً.. إننا نجتاز عصراً.. وتركنا عصراً.. وإننا نتطور.

لم يستطع أن يتحمل هذا الكلام كثيراً.. فمد جسمه ورأسه نحو التلفاز وأومأ إليه بإصبع يده الوسطى.

نهض عدة أشخاص من الحضور وقبضوا على الممرض من طرف قميصه وقادوه كالسلحفاة خارج المقهى، وساقوه مقيداً إلى أحد مخافر الشرطة (قره قول).

وهناك أوضحوا لرئيس المخفر أمر الرجل وحركاته والفوضى التي خلقها عمله في المقهى.. طلب رئيس المخفر من الشرطي المختص فتح تحقيق معه، وتنظيم ضبط بأفعاله في المقهى سأل رئيس المخفر الممرض.

- ماذا كنت تقول؟.

بدأ الممرض يقص على رئيس المخفر قصته من أولها. كيف كان يتردد يومياً إلى تلك الدائرة من أجل مشكلة صغيرة. وكيف خدعوه هناك. وصعوبة الحصول على الإجازات من المشفى.. وأنه لا يستطيع العيش من راتبه. وأنه لا وجود للرشوة في المكان الذي يعمل فيه ولا حوافز عمل ولا بخشيش

وأنه غارق في الديون حتى أذنيه.. فكّر كثيراً بالانتحار. وبينما كان في

هذا الوضع المضطرب ظهر المسؤول على شاشة التلفاز وبدأ يقول: إننا نتطور.. إننا نجتاز عصراً.. لقد تطورنا.. اجتزنا عصوراً.. وعندها لم يستطع أن يتحمل وفعل كل ما فعله..

أفاد الممرض بكل ما بدر منه من قول وفعل دون أن ينكر شيئاً من ذلك وبكل تفرعاته. وكان رئيس المخفر ينصت إليه بدقة وبيده مسبحة، و لم تصدر منه كلمة واحدة، ولكنه كان يشد المسبحة لترتفع، كلما كان الرجل يذكر كلام المسؤول في التلفاز. حيث كان لرئيس المخفر مشكلة مثله.

بعد انتهاء التحقيق وأخذ التوقيع على الضبط.. طلب رئيس المخفر من المدعين العودة إلى منازلهم قائلاً: سنقوم بالواجب..

طلب رئيس المخفر من الممرض الوقوف على قدميه والانحناء أمامه، حيث كان يرتجف من الخوف، ويقول في قرارة نفسه. سنأكل الفلق حتى الصباح وأن عظامي ستتكسر. انحنى أمام رئيس المخفر. ودنا رأسه منه، قال له رئيس المخفر بصوت خافت.

- لماذا قمت بالإشارة بيديك يا بني. إذا كانوا يقولون في التلفاز إننا نتطور.. هذا حسن جداً.. وأنت قل من جانبك (لماذا نظل نتردد على الدوائر، ولماذا نعد الناس ولا ننفذ لهم مطالبهم، لن نتطور أبداً).

ارتاح الممرض لهذه الكلمات. وشعر بالأمان فقال لرئيس المخفر: ولكن يا سيدي.. منذ أن دخلت إلى المخفر.. وأنتم أيضاً تؤشرون بالمسبحة.

غضب رئيس المخفر وقال: ولك أنا صوتي مبحوح.. ولهذا السبب أشرت لك بيدي بدلاً من لساني. لو لم أكن مريضاً لكنت صرخت وضربتك.. هيا انصرف عن وجهي.. وعليك من الآن وصاعداً أن تمد يديك ومعصمك إلى التلفاز عند ظهور المسؤول.

- ٢٠ -

عرض حال للندم

أودع آ. أصاصلان السجن المؤبد في سجن /ماماك/ العسكري في انقلاب ١٢ ايلول. وكان صحفياً يكتب في بعض الصحف والمجلات. تقدم بطلب استرحام وندامة للمحكمة الأمنية العليا في أنقره، قال فيه بأنه نادم على ما قام به من أعمال ضد الدولة، وسيعترف بذلك أمام النيابة العامة، وسيدلي بمعلومات دقيقة. في أول جلسة للمحكمة. ويعرضها على زملائه القائمين على رأس التنظيم. ورجا في طلبه أن يشمله قانون الندامة بالعفو. وفيما يلي النص الحرفي لطلب الاسترحام والندامة.

أنا آصاصلان المولود في استنبول عام ١٣٥٣ للهجرة والدتي حوا ووالدي آدم والمعتبر من عداد (المثقفين) ومن الذين كان الظن يحوم حولهم قبل انقلاب ١٢ ايلول العسكري. أقسم لكم بكتابي المقدس، وأنا راكع أمام محكمتكم الموقرة وعدالتكم النابضة. بأني تراجعت وتخليت عن جميع الأفكار المناهضة للمزايا الحميدة للانقلاب.

واعتباراً من صدور قانون الندم.. وبعون الله رب العالمين وهدايته. فقد توصلت إلى قناعة بأن ما يقوله رجال دولتنا هو عين الحق والصواب، وأؤمن به قلباً وقالباً.. وسأظل طوال حياتي مقتنعاً به.

وكما أن استغلال الإنسان لأخيه الإنسان عمل غير لائق وصحيح. أقسم لكم بأني لن أحمل شيئاً من الأفكار المتطرفة.. وأرفض من الآن النظرية الداروينية القائلة بأن أصل الإنسان قرد، ولن أسمح أيضاً لهذه الأفكار المتطرفة أن ترعى انتباهي وسأدافع بكل ما أوتيت من قوة عن فكرتنا القائلة بأن

الإنسان جاء من والدنا آدم عليه السلام ووالدتنا حواء. وكذلك فإن النساء قد خلقن من عظام الصدر للرجال.

كما أعدكم وأقسم بأني لن أقرأ الكتب التي منعتها المقامات المقدسة العالية. وسأعلمكم عن كل شخص يقرأ ما يمنعه مقامكم السامي. وأقسم لكم على ذلك بشرفي ووجداني. وكذلك فإنني لن أستعمل تلك الكلمات التي نشرت، ومنعتها مقامكم المحترم المقدس /TRT/ هذه الكلمات التي يقولون عنها بأنها من صميم اللغة التركية. فإن استعمالها يعتبر إهانة للوطن وخيانة عظمى له.

ومن خلال شعوري بعفوكم وسماحكم. فإنني أنبذ وألعن الأخطاء الكلامية والكتابية والمعارضة التي كنت أبديها للدين والإيمان. والأفكار الفاسدة التي كنت أحملها وأبنيها ضد مقامكم العالي. كما ألعن بشدة جميع الذين يحملون هذه الأفكار ويطرحونها ضد الدين والدولة على السواء. من صميم قلبي يا سيدي.

وإنني أتراجع أيضاً عن شكواي القائلة بأن جميع التحقيقات قد أخذت مني بالتهديد والتعذيب والضرب.. وأقول خلافاً لذلك:

//في المكان المضروب تنبت الورود//. وإنني إذ أطلب المغفرة من الذين ضربوني من أجل التأديب. هذا بالنسبة إلي وإلى شركائي في الجريمة. إذ نقر ونعترف بأننا لم نضرب ولم نعذب ولم نهدد من قبل المحققين.

وإنني إذ أنكر وبشكل قاطع كل مخالفة وكل فكر مناوئ للدستور والقوانين.. وأقدم جل الاحترام والتقدير لجميع القوانين الصادرة والمعلنة والتي ستصدر لاحقاً، وأساند جميع التعليمات والتنظيمات والتعاميم العامة والخاصة وكل ما يتعلق بها، مستنكراً جميع الأفكار المناوئة لهذه القوانين جملة

وتفصيلاً.

أريد أن أقسم هنا بكل غال ورخيص عندي من شرف ونـاموس وكرامـة ووجدان بأنني لن أنظـر بعيونـي أو بحركـة مـن لسـاني أو بـأي فعـل آخـر لا بالإشارة، أو حركة الحواجب والرموش، واليديـن والمعصـم لأي شـيء يخـص الدولة، أو الأمكنة المحظورة.. ولن أمسها بعد الآن بأي سوء أو ضرر.

وأقسم بشرفي ووجداني.. بأنني لن أقوم بعد الآن بالحركات الطفولية التي كنت أقوم بها في زمن غفلتي الأولى.. عندما يظهر علـى شاشـة التلفـاز أحـد المسؤولين الكبار.. ومع الأسف كنت أفعلها في الماضي.. بحركات مـن يـدي وبـإخراج لسـاني نحـوه وسـخريتي منـه.. لا بالنقنقـة.. ولا بالمقمقـة.. ولا بالقهقهة ولا بأي شيء آخر. حتى ولو كـان كلامهـم غـير منطقـي وعـادي وخاطئ وغير سليم. إنني لن أعيد الكرة مرة ثانية.. وإنني سأقوم بالإعلام عن كل من يقوم أمامي بهـذه الحركـات والسـخريات مـن رؤسـائنا الكـرام. إلى أقرب مخفر أو شعبة آمن. وأقسم على ذلك.

وإنني نادم يا سيدي عن جميع التصرفات التي قمت بهـا مـن كتابـة وفعـل وقول وعمل، وأقول عنها أنها مخالفة لجميع مبادئكم السامية.. وأنا نادم أشد الندم عن كل ما صدر عن لساني من كلام خاطئ. ومن يدي لحركة خاطئـة ومن قلبي لنية عاطلة.

وأقسم با لله العظيم بـأني لـن أفكـر أبـداً وبشـكل قـاطع.. كيـف دمَّرنـا وأفلسنا ستة عشر حكومة على مدى تاريخنا.. ولا التفكير حتى بكيفية وقوع هذا العمل.

حتى ولو كانت الدماء التي تجري في أوردتنا ناقصة من الحديد بسبب قلـة الغذاء.. سنفتخر بأصالة هذا الدم. لهذا فإنني أقدم شكري وامتناني ورجائي..

إذا ما قرروا في أحد الأيام وأعطوني قليلاً من هذا الدم. فأرجوا منهم أن يعطوني دماً أصيلاً لا شائبة فيه وإذا كان الأمر عكس ذلك.. وأرادوا إعطائي دماً فاسداً أو غير أصيل أو من الذين لا دم فيهم. فإنني أقول لهم.. أتمنى الموت كبطل على أن أحقن بدمهم الفاسد. أقبِّل أيادي الكبار، واعلم الصغار بإذن الله حسب برامجكم. إما بالضرب والقتل وإما بالسباب والشتائم وسأجعلهم يتسلقون سلم المجد مثلي.

إن الصفات التي وصف بها الأعداء بلدنا وبلدان العالم الثالث كما يسمونها أحياناً.. البلاد النامية قليلاً.. والتي لم تنمو بعد.. والتي على وشك النمو.. والتي قد نمت بعض الشيء.. والتي ستنمو.. كل هذه الصفات الحقيرة.. وعلى امتداد القرارات التي أخذت: (ضع الشيء الذي تريده بنفسك) قد أخرجتنا فجأة ووضعتنا في مصاف الدول المتقدمة. حتى ولو بغرق رأس حصان.. وإذ أقسم بالله العظيم إنني أؤمن وأعتقد على أننا قد اجتزنا كل الصعوبات.. وعلى هذا الأساس فإنه يحق لرؤسائنا أن يبرزوا صدورهم وكروشهم.. بقدر ما يريدون.

إنني نادم عن كل خطأ اقترفته في حياتي.. وأبرئ نفسي من كل الجرائم التي عملتها في وقت الضلالة.. السرقات والبشر الذين قتلتهم. والبنوك التي سرقتها. الحانات والمقاهي التي أمطرتها بوابل من الرشاشات.. وسأذكر وبكل التفاصيل.. شركائي في هذه الجرائم.. أسماءهم وأماكن سكناهم أمام العدالة العسكرية.. وأتعهد بذلك...

يا سيدي المحترم الكبير.. إنني أطلب إخلاء سبيلي من السجن مقابل ما سأقدمه من الخدمة لهذا الوطن.. وبناء على قانون الندامة.. فإنني أطلب من سيادتكم.. أن تأمروا بإجراء عملية جراحية لوجهي.. حتى لا يعرفني الأعداء والأصدقاء.. مع خالص تحياتي واحتراماتي.

أمر آخر.. قرأته في الصحف.. بأن هناك طبيب جراح يقوم بتحويل الذكور إلى إناث وبالعكس.. وأرجو أن تتكرم الجهات المعنية. بتبديل سائر أعضاء جسدي وليس وجهي فقط.. وبذلك سأصبح مواطناً شريفاً أميناً مطيعاً.. أتمتع بضمير حي.. وككل مواطن سأحترم رؤسائي وأحب الذين هم أصغر مني.. إن مهمتي هي الارتباط والاحتكاك بمن هم أكبر مني.

اشتري لي عسلاً يا بابا

أين العسل ولَكْ.

العسل عند البقال يا بابا

أين المال ولِكْ

إذا العسل غير موجود اشتري لي كرة

هوب هوب

أين كرة

هوب هوب

لن أشتري لك كرة

لماذا تضحك ولِكْ

P.S

يا سيدي المحترم.. إنني لا أطلب فقط بتغير اسمي وجسمي وأصلي وفصلي.. إذا كان ممكناً أيضاً تبديل وتغيير وجداني.. مع خالص الشكر يا سيدي..

الفهرس

KMH

لن نتطور أبداً

أريدكم أن تعرفوا شيئاً واحداً، أنه لا فرق بين حياة الدنيا والآخرة، من يملك الأراضي والقصور على هذه الأرض، سيملكها في الآخرة، أسألكم هل ترك المستعمرون للفقراء فعل الخير في هذه الدنيا؟

أنا نادم على كل خطأ اقترفته في حياتي، أحاول تبرئة نفسي من الجرائم التي ارتكبتها وقت الضلالة: من سرقة البنوك إلى مهاجمة الحانات وقتل الأبرياء.

واستناداً لقانون الندامة، أطلب إخلاء سبيلي، مقابل ما أقدِّمه من خدمات لهذا الوطن.

مجموعة من القصص تُشكِّلُ لوحة رائعة رُسِمَت بمئات الألوان ولكنها لبست قناعاً أشبه بالوجه الحقيقي.

إذا قرأت هذا الكتاب سوف تعلم ما تحت القناع، ولكن أي وجه سترى؟!.

الناشر

السعر ٢٠٠ ل.س

Internationella biblioteket
Stockholms stadsbibliotek
STOCKHOLMS STAD